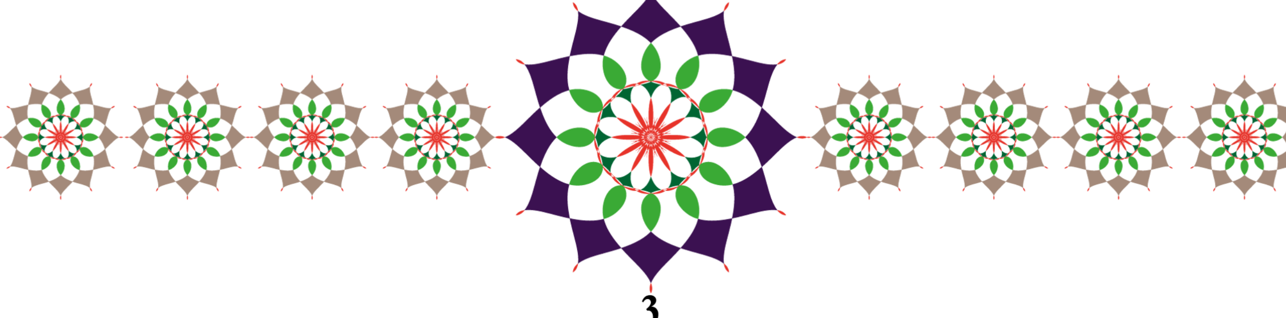


3

من نقد الحداثة إلى نقد الحضارة

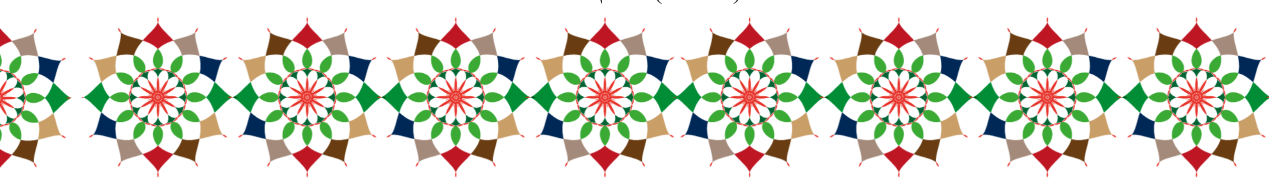


فضُّ وهْم التفوُّق الأوروبي: غزو أميركا والجنوب والشرق

محمَّد عبد الرحمن حسن

يرى معظم المؤرِّخين والمفكِّرين الغربيِّين أنَّ المعلومات التي تملكها الشعوب غير الأوروبيَّة عن العالم، خاصَّة معارفها التاريخيَّة، مجرَّد أساطير؛ بينما يصفون النصوص التاريخيَّة الأوروبيَّة بأنَّها تستند إلى معرفة علميَّة وموضوعيَّة. لكنَّ تحليل روايات الأوروبيِّين لأحداث فاصلة في تاريخهم الحديث يوضِّح أنَّها ليست ذات طابع أسطوري فقط، وإنَّما هي متلقَّاة عن مصادر تاريخيَّة تعود إلى حضارات أخرى. فقصص فتوح الإسبان لممالك شعوب أميركا (الأزتك والمايا والإنكا) التي جرت في بداية القرن السادس عشر، وغزو نابليون للشرق الذي لم يحقِّق فيه نجاحاً يُذكَر، ووصول الإنجليزي جيمس كوك إلى هاييتي وأستراليا، الذي يعدُّه الأوروبيون (اكتشافاً)؛ كلّها أحداث صِيغت لها صورة نجاحات خارقة باستعارة قالب قصص الفتوح الذي ورثه الإسبان عن حضارة شرق وجنوب البحر الأبيض المتوسِّط (الحضارة العربيَّة الإسلاميَّة).
بتحليل النصوص المعتمدَة لدى المؤرِّخين الغربيِّين حول تلك الفتوح؛ يوضِّح هذا الكتاب الطابع الأسطوري لخطاب المعرفة الغربيَّة الحديثة، الذي صُنِعت به لشعوب أوروبا صورة أُممٍ متفوِّقة، من حقِّها غزو العالم. ويخلص الكتاب إلى أنَّ المعرفة التاريخيَّة الأوروبيَّة، المُسمَّاة حديثة، تعتمد على قصصٍ مُصطنعة تخدم استدامة الهيمنة على وعي الشعوب؛ وأنَّ فضَّ السلطة المطلَقة لهذا الخطاب القائم على أوهام التفوُّق الطبيعي للإنسان الأوروبي، والذي ما زال يُقرأ وكأنَّه فوق المساءَلة، قد حان وقته.

محمَّد عبد الرحمن حسن:
مُدرِّس النقد والعلوم الإنسانيَّة بكلِّية الفنون الجميلة والتصميم، جامعة النيلين - الخرطوم.
نُشرت له كتب عدَّة إلى جانب هذا الكتاب، منها:
ذاتيَّات: فضُّ نظرة الفلسفة الأوروبيَّة إلى الإنسان والمجتمع.
ثورات: فضُّ الخطاب التاريخي الأوروبِّي.
اكتشافات: فضُّ خطاب النهضة و(اكتشاف) العالم.



رقم الإيداع 2020/0142
ISBN 978-99942-72-25-9

من نقد الحداثة إلى نقد الحضارة

3

فُتُوحات

فضُّ وهْمِ التفوُّق الأوروبِّي: غزو أميركا والجنوب والشرق

محمَّد عبد الرحمن حسن



فهرسة المكتبة الوطنيَّة أثناء النشر – السودان 401.
م. ع. ف محمَّد عبد الرحمن حسن عبد الرحمن –1960.
فتوحات: فضُّ وهم التفوُّق الأوروبِّي: غزو أميركا والجنوب والشرق.
محمَّد عبد الرحمن حسن. ط1. – الخرطوم: م.ع. حسن، 2020.
299 ص؛ 24 سم.
ردمك: ISBN 978-99942-72-25-9
1.اللسانيات– نقد. 2. الحضارة الأوروبيَّة. 3. التاريخ. أ. العنوان.

تصميم الغلاف: حسين عثمان
تنسيق النصّ: محمَّد عبد الرحمن

رقم الإيداع 2020/0142

الطبعة الأولى
2020



وقف للنشـر
الخرطوم

www.waqfbook.com
الخرطوم جنوب – جبرة: شارع 14 – 205/1.

المحتويات

شُكر

أتوجَّه بخالص الشُكر إلى محمَّد أبوبكر حامد وغادة عبد الحميد محمَّد وأبنائهما، أُسرتي (الممتدَّة) بالولايات المتَّحدة، وعبد الواحد ورَّاق وعواطف محمود، ومرتضى جلال الدين والنذير سِرّ الختم، الذين أحالوا بضيافتهم الكريمة برد مدينة (كولمبس) بولاية أوهايو دفئاً يعين على الكتابة. وساهموا، بطرق مختلفة، في توفير المراجع التي اعتمدتُ عليها في هذا الكتاب. وامتناني لأسامة الخوَّاض الذي أهداني في سنة 1996، عند استضافته لي بالجمهورية اليمنيَّة، مجموعة كتب قيِّمة كان بينها كتاب تزفتان تودوروف (فتح أميركا: مسألة الآخر)، الذي قدَحَ في ذهني أسئلة هذا الكتاب. والشكر لأخي حيدر على اهتمامه ودعمه المستمرَّين، ولصديقي الشاعر بابكر الوسيلة على المراجعة اللُغويَّة للنص في مراحله المختلفة، ومثله لصديقي الفنان حسين عثمان الذي صمَّم غلاف الكتاب بأسلوبه الفنِّي المميَّز. وشكري للدكتور طاهر مرتاچو بجامعة بحر دار بإثيوبيا، الذي لولا مساعدته الإنسانية التي تفوق كل تقدير، لما أعدتُ كتابة هذا الكتاب بعد أن فقدتُ كل أصوله في ظروف بالغة العُسر. ولابنتي تسابيح وأمِّها، اللَّتين صبرتا صبراً جميلاً ربع قرن من الزمان استغرقته كتابة هذا الكتاب؛ لهما بشارة عتق وامتنان.

محمّد عبد الرحمن

الخرطوم - فبراير 2020

مقدِّمة

يرى معظم المؤرِّخين الغربيِّين أنَّ معرفة الشعوب غير الأوروبيَّة بماضيها تقوم على خرافات وأساطير، وفي الوقت ذاته يرون معرفة الأوروبيِّين بماضيهم، وماضي العالم، معرفة عقلانيَّة ذات طبيعة (موضوعيَّة) تلتزم منهجاً علميَّاً. بهذه الرؤية، عندما وصل بعض المؤرِّخين الإنجليز إلى منطقة جنوب شرق آسيا في الربع الأول من القرن التاسع عشر، رأوا أنَّ من واجبهم كتابة تاريخ شعوب تلك المنطقة؛ لأنَّ ما يتناقله مواطنوها عن ماضيهم "مجرَّد قصص عبثيَّة" تعكس تفكيراً خرافيَّاً، حسب رأيهم[1]. كتب المؤرِّخ جون كروفورد عن روايات الأندونيسيِّين التي يتداولونها حول تاريخ بلدهم:

> **"إنَّ تاريخ جاوا القديم، أو أساطيرها، تبدأ بنسيج غريب من تلك الأخلاط أو العبثيَّات التي لا تستحق أن تُسرَد مطلقاً؛ وهي لا تقدِّم سوى صورة عن شخصية الشعب، وبرهان جديد على الضعف البائس للعقل الإنساني في [مرحلة] طفولة المجتمع"[2].**

على الطريقة ذاتها قال باحث غربي معاصر عن معرفة العرب ومسلمي الشرق بتاريخهم، نافياً علاقتها بماضيهم:

1 Knapman, Gareth: *Race and British colonialism in South-East Asia, 1770-1870: John Crawfurd and the Politics of Equality,* (New York and London: Routledge, 2017). P. 50.

2 المرجع السابق، الصفحة السابقة.

”إنَّها قصصٌ فولكلورية لماضٍ مجيد، وهي انعكاس للحالة العقليَّة والاهتمامات الخاصّة بمن صنعوها، والذين نقلوها، واستجابة لانشغالات ومصالح الوسط الخاص بمستهلكيها“[3].

إنَّ الفكرة التي يكرِّرها الباحثون الغربيون حول عدم علميَّة تواريخ الشعوب غير الأوروبية، عميقة الاستقرار في الفكر المعاصر، وهي ذات علاقة وثيقة بما أقامته الثقافة الغربية من تراتُب بين البشر على مستويات (العِرق) والحضارة. فقد ادَّعى هيغل أَنَّ العقل الآسيوي أقلّ مكانة من العقل الأوروربي، وميَّز بينهما على أساس (العِرق)، فكتب:

”لدى العرق الآسيوي ... يبدأ العقل في الاستيقاظ وتمييز نفسه عن الطبيعة. لكن هذا التمييز ليس قاطعاً بعد، وليس مطلقاً. فالعقل لم يَعرِف نفسه بعد في حال حرِّيته المطلقة“[4].

أما عند الأفارقة فإنَّ العقل يبلغ مرحلة الغياب التام، حسب رأي هيغل الذي شخَّص وضعيَّة العقل معتمداً على فكرة ”الموضوعيَّة“، حيث كتب:

”عند الزنوج لم يتوصَّل الوعي، وحتى الحدس، إلى أية درجة من درجات الموضوعية [...]، إنَّ الزنجي هو الإنسان بوصفه وحشاً“[5].

هذا النوع من التمييز بين البشر، الذي يُخَصِّص للأوروبيين فضاء الإنسانية ويُزيح عنها بقية الشعوب ويجعل بعضهم وحوشاً، يتوافق مع التمييز بين المعرفة التي تنتجها الأُمم، فيرسم فارقاً جذريَّاً بين المعرفة الأوروبية وغير الأوروبية.

---

3 لمزيد من وجهات النظر حول المكانة المتواضعة للنصوص التاريخية العربية عند الباحثين الغربيين المعاصرين، خاصة تلك التي تعتمد على قصص مستعادة، انظر المقدمة المخصصَّة لهذا الموضوع عند:
Sizgorich, Thomas, *Violence and Belief in Late Antiquity: Militant Devotion in Christianity and Islam,* (Pennsylvania: University of Pennsylvania Press, 2009).

4 Kain, Philip, J.: *Hegel and the Other: A Study of the Phenoloenology of the Spirit*, (New York: State University of New York Press, 2005). P 249.

5 Dussel, Enrique; Eurocentrism and modernity (Introduction to the Frankfort Lectures), *Boundary* 2, vol. 20, no 3, (Autumn 1993), 65-76. p. 72.

يفحص هذا الكتاب الكيفية التي يروي بها الأوروبيون تاريخهم الحديث مختبراً دعوى أنَّ معرفتهم لها طبيعة عقلانيَّة وموضوعيَّة، وأنَّها متفوِّقة على معارف الشعوب الأخرى، التي يصفونها بأنَّها تصدر عن أهواء ذاتية وعقل أسطوري. يُركِّز الكتاب على الحدث الأكبر أهمية في تاريخ أوروبا الحديث، وهو غزوها لقارَّة أميركا وسيطرتها عليها. ويضيف إليه سلسلة عمليات الغزو التي قامت بها أوروبا بعد ذلك في مناطق مختلفة من العالم، والتي صاغت تاريخها الاستعماري الذي رسم معالم العصر الحديث[6].

تمثِّل القصَّة التي يسمِّيها الأوروبيون "فتح أميركا" العمود الحامل لتاريخ الغرب، فقد صِيغت على قالبها كثير من قصص النجاح والفتوحات في العصر الحديث. ورغم أنَّ هذه القصص تفُوق في طابعها الخرافي النصوص التاريخية العربية التي ينتقدها المؤرِّخون الأوروبيون، مازالت قصَّة فتح أميركا ومثيلاتها متداولة حتى اليوم في الثقافة الغربية وتُكتَب باعتبار أنَّها تتضمَّن معلومات تاريخية حقيقيَّة.

يُقدَّم فتح أميركا كلحظة مؤسِّسة للعالم الحديث ربطت بين جميع شعوبه بأن أضافت الأميركتين إلى أوروبا وإفريقيا وآسيا، التي كانت تشكِّل كتلة متَّصلة. ويُعدُّ أيضاً الحدث الذي بواسطته اكتسبت أوروبا الغربية هويَّة جديدة فصلتها عن عالم البحر الأبيض المتوسِّط الذي كانت تنتمي إليه، وشكَّلت مع أميركا كياناً جديداً ينتمي إلى فضاء المحيط الأطلنطي، سُمِّي (الغرب). ومن هنا صارت لحظة غزو أميركا هي لحظة ميلاد التصوُّر الأوروبي للشرق أيضاً، بوصفه ضدَّاً لذلك الكيان المُسمَّى الغرب، الذي أنشأته المخيِّلة الأوروبية.

---

6 حسب الرواية الغربية، سيطرت أوروبا على قارَّة أميركا عبر مرحلتين هما: (الاكتشاف) و(الفتح). وفي سلسلة الكتب التي يشكِّل هذا الكتاب جزءها الثالث، والتي تصدر تحت عنوان (من نقد الحداثة إلى نقد الحضارة) يبدأ تحليل الخطاب التاريخي الأوروبي من اللحظة القريبة إلى الحاضر سيراً نحو اللحظة الأبعد بهدف استخلاص المنطق الذي رتَّب المؤرِّخون الغربيون وفقاً له حِقب التاريخ الحديث. ولهذا تُدرَس مرحلة (اكتشاف أميركا) في الكتاب الرابع، الذي يلي هذا الكتاب، رغم أنَّها سبقت مرحلة الفتوحات التي تُدرَس هنا.

شكَّلَ غزو الإسبان لأميركا الحدث الذي ساهم إلى حد كبير في تشكيل الذاكرة الجماعية لأمم غرب أوروبا، وصاغ نظرتها إلى ذاتها والشعوب الأخرى، وحدَّد بوجه خاص نظرتها إلى شعوب جنوب الكرة الأرضية. عندما نشر المؤرِّخ الإسباني فرانسسكو غُمارا (Francisco Lopez de Gómara: 1511– 1566)، كتابه الأول عن فتح المكسيك في سنة 1552م، لقي الكتاب نجاحاً لحظيَّاً فائقاً في كل أوروبا. وخلال عامين فقط طُبِعت منه سبع وخمسون طبعة وتُرجِم إلى أربع لغات أوروبية كبيرة. وفي الفترة نفسها ظهرت كتبٌ كثيرة حول فتح أميركا وضعها مؤرِّخون آخَرون، وجدت أيضاً رواجاً كبيراً وطُبِعت عشرات المرات. وهذا يوضِّح إلى أي حدّ هُضِمت قصَّة الفتح وساهمت في تشكيل تصوُّر الأوروبيين لأنفسم بوصفهم فاتحين وناقلين للحضارة، ليس لدى الإسبان فقط بل لدى عموم أمم غرب أوروبا من برتغاليين وهولنديين وفرنسيين وبريطانيين. فبعد نجاح الإسبان في غزو أميركا، انتشرت تلك الأمم في الأرض متنافسة فيما بينها في سياق توسُّع هائل لمشروع غزو العالم. وإن كانت قصَّة (اكتشاف) أميركا تشكِّل الوجه الأول لصفحة بداية التاريخ الأوروبي الحديث، فإنَّ قصَّة فتح أميركا تشغل وجهها الثاني. وبينما حصلت الأولى على رواج كبير خارج أوروبا، لقيت الثانية رواجاً عظيماً بين الأمم الأوروبية، دعمَ اعتقادها بتفوُّقِها العِرقي الذي أسَّست عليه سيطرتها العالمية.

إلى يومنا هذا، ما زالت الكيفيَّة التي تمَّ بها فتح أميركا تشكِّل "واحدة من أكبر المشكلات الشاغلة للمؤرِّخين"، حسب قول المؤرِّخ فرنانديز– أرمستو[7]. وهي تمثِّل مشكلة أكبر بالنسبة إلى شعوب الأميركتين على وجه التحديد، لأنَّها أورثتهم صورة سلبية عن ذاتهم. وهي مشكلة لأُمم أوروبا أيضاً، لأنَّها تثير شكَّاً عميقاً حول مصداقيَّة تاريخها الحديث وكيفيَّة صعودها الحضاري. ومن ناحية

7 Restall, Matthew; *Seven Myths of the Spanish Conquest*, (Oxford: Oxford University Press, 2003). p. 3.

أخرى فإنَّ القصَّة تطرح تساؤلات حول الأُسس التي بُنيَت عليها صورة الغرب، والمكوِّنات التي صِيغت هويَّته وفقاً لها.

إنَّ قصَّة الفتح غير معقولة في كثير من مكوِّناتها، ولا يُعرَف إلى اليوم تفسير لأحداثها، ولا إلى أي حدٍّ هي صادقة ويمكن أخذها كحقيقة تاريخية، فرواياتها غير متوافقة في تفاصيلها رغم اتِّفاقها في بعض العناصر الأساسية. ومن ناحية ثانية، فإنَّ بعض روايات شعوب أميركا تعارض الرواية الأوروبية في عدد من الجوانب، هذا بجانب عدم وضوح المصادر التي استمدَّ منها المؤرِّخون الإسبان معلوماتهم حول ما جرى، فالقصَّة شكَّلتها شهادات جماعات كانت ذات مصلحة في أن تُضفي على الغزو صورة فتح عظيم.

الهدف الأول لهذا الكتاب هو الكشف عن المصادر التاريخية للقالب السردي الذي صيغت قصَّة الفتح وفقاً له، وأكسبته صورة حدث غير مسبوق. ولأنَّ المعرفة التاريخية الأوروبية الحديثة تنسب نفسها إلى الحقيقة الموضوعية؛ فإنَّ الكشف عمَّا إذا كانت سردياتها ذات محتوى موضوعي أو أنَّها ذات طبيعة مصطنعة، له أهمية كبيرة في تحديد مكانتها في عالمنا الحاضر الذي يمنح المعرفة الغربية مكانة تؤكِّد لأُممِها تصوُّرها عن ذاتها بوصفها متفوِّقة ومتميِّزة عن بقية البشر.

رغم أنَّ الإسبان كانوا أول الأُمم التي وصلت إلى قارّة أميركا، وأول الذين كتبوا قصَّة فتح ممالكها، حاول بعض المؤرِّخين الإنجليز والفرنسيين إلحاق تاريخ الفتح بتواريخ أُمَمِهم، وجاء ذلك في سياق منافسة هاتين الدولتين لإسبانيا إبَّان سعيهما لاقتسام مستعمراتها الواسعة. ففي منتصف القرن الثامن عشر استخدم المؤرِّخ الإنجليزي ويليام روبرتسون قصَّة فتح المكسيك مقدِّمة لقصَّة فتح أوروبي عالمي، بدأ بسيطرة إسبانيا على أميركا الوسطى والجنوبية واستكملته إنجلترا بغزوها لأميركا الشمالية.

بسبب المكانة الرفيعة التي حازتها قصَّة فتح أميركا لدى أمم غرب أوروبا، فإنَّ فهم الطريقة التي تساهم بها القصَّة في اصطناعِ مكانةٍ رفيعةٍ لأمم الغرب يَتطلَّب النظر في مصادرها التي مثلما اصطنعت للأوروبيين صورةَ أممٍ متفوِّقة عرقيَّاً وثقافياً وحضارياً، صاغت لشعوب العالم صورةَ شعوب متأخِّرة تتَّصف بميل طبيعي للخضوع إلى الأوروبيين، والاستسلام لسطوتهم. وكما يرى المؤرِّخ ماثيو رستال فإنَّ تبرير الأوروبيين للسيطرة الاستعمارية استند على:

"أسطورة التفوُّق الإسباني التي تمثِّل جزءاً من الأسطورة الأكبر حول الامتياز الأوروبي، وتشكِّل نواة الأيديولوجيات العرقيَّة التي أسَّست للتوسُّع الاستعماري منذ أواخر القرن الخامس عشر وحتى القرن العشرين"[8].

اكتسبت التصوُّرات السالبة عن شعوب العالم قبولاً في المعرفة الحديثة لأنَّ الروايات التي كتبها الأوروبيون عن غزو بلاد تلك الشعوب، طُبعت بطابع الحقيقة التاريخية، وكان أول ما ثبَّت هذا النوع من التصوُّرات هو التاريخ المدهش الذي كُتِب عن غزو أميركا، وقد صوَّره المؤرخون حدثاً عظيماً نادر المثال. فهل يتضمَّن تاريخ ذلك الغزو بالفعل أحداثاً عظيمة وفريدة؟ أم هو مجرَّد قصَّة صاغتها مخيِّلة أُمّة تتوهَّم تفوُّقاً عرقيَّاً؟ إنَّ الإجابة عن هذا السؤال الذي يشكِّل موضوع الكتاب تقتضي البدء بشرح الظروف التي ظهرت فيها القصَّة.

في أول أبريل سنة 1520م، وصلت رسالة إلى ملك إسبانيا كارلوس الخامس (Charles V: 1500–1558) المقيم آنذاك بمدينة بلد الوليد بإسبانيا، من ضابط إسباني لم يكن يُعرَف عنه شيء حتى تلك اللحظة، اسمه هرناندو كورتس (Hernando Cortés: 1485–1547)، يُخبِر فيها الملك بأنَّه اكتشف في سنة 1519م بأميركا بلداً سمَّاه: إسبانيا الجديدة، وكان أهله يسمَّونه:

---

8 المرجع السابق، ص xix.

المكسيك[9]. حينها كانت قد مضت ثمان وعشرون سنة فقط على وصول كريستوفر كولمبوس (Christopher Columbus: 1451–1506) إلى أميركا، التي نزل أرضها لأول مرة في سنة 1492م. وبوصول كولمبوس إليها صارت القارَّة، حسب اعتقاد الأوروبيين آنذاك، مملوكة لإسبانيا بموجب براءة بابوية (Papal bull)، أصدرها في سنة 1493م البابا الكسندر السادس (Alexander VI: 1431–1503)، فقد كان بابوات الكنيسة الكاثوليكية في ذلك الوقت يُوزِّعون أراضي شعوب العالم على ملوك أوروبا[10].

بعد تلك الرسالة، وصلت إلى إسبانيا رسالة ثانية من كورتس في أغسطس 1521م، يُخبر فيها الملك بأنَّه تمكَّن من فتح عاصمة المكسيك واستطاع إخضاع شعبها لإسبانيا. وذاع الخبر في أوروبا بسرعة فائقة؛ فحتى تلك اللحظة لم يكن الأوروبيون يعلمون بوجود بلاد واسعة تحكمها ممالك كبرى في أميركا سوى بعض جزر البحر الكاريبي، مثل كوبا وهاييتي والبهاما، أما القارَّة الأم التي تضم ممالك الأزتك والإنكا والمايا وغيرها من الشعوب، فلم يعرف الأوروبيون عنها شيئاً.

مع الرسائل التي حكى فيها كورتس لملك إسبانيا قصَّة فتحه مملكة المكسيك التي يحكمها الأزتك، أرسل أيضاً مقادير من الذهب والفضة بوصفها خِراج المملكة، فأجازه الملك حاكماً على المكسيك في سنة 1522م. وبتلك السنوات الثلاث، الواقعة بين 1519 و1521م، تغيَّرت أوضاع أميركا كلها ثم تغيَّرت

---

9 كان كورتس، الذي يرد اسمه الأول في المصادر الإنجليزية: هرناندو، وفي الإسبانية: إرنان (Hernán)، قد أرسل رسالته في العاشر من يوليو سنة 1519م، ووجَّهها إلى الملكة خوانا الأولى وابنها تشارلس، فتأخرت الرسالة ووصلت في التاريخ المذكور (تُوِّج تشارلس الخامس باسم: كارلوس الأول، وهو المعروف في المصادر العربية باسم شارلكان). انظر:

Cortés, Hernán: *Letters from Mexico* (New Haven and London: Yale University Press, 1986). p. 3-46.

10 Pagden, Anthony: *Peoples and Empires*, (New York: The Modern Library, 2003). p.54.

أوضاع العالم بكامله؛ لأنَّ غزو أميركا كان المنفذ الذي اندفعت منه حملات غزوٍ أوروبي محمومٍ لجميع القارات الأخرى، استمرَّت من أواخر القرن الخامس عشر إلى بداية القرن العشرين. وكانت النتيجة في نهاية تلك الفترة أن صار حوالي 90% من أراضي العالم مسيطَراً عليها بواسطة أمم أوروبا الغربية، وخضعت شعوبها لحكم استند إلى العنف والإرهاب استمرَّ في معظم المناطق لأكثر من أربعمئة سنة.

بعد ذلك مباشرة حفَّزت قصَّة فتح المكسيك عدداً من المغامرين الإسبان، الطامحين إلى الحصول على مناصب كبيرة في قارَّة أميركا، على ابتكارِ قصص فتحٍ جديدة. بعد كورتس، أرسل غزاة آخرون إلى الملك عدة رسائل من أميركا تضمَّنت قصصاً مماثلة حول فتح ممالك مجاورة لمملكة المكسيك، فصيغت قصَّة فتح فرانسيسكو بيزارو (Francisco Pizarro: 1478- 1541) لمملكة بيرو، وكتب بدرو ألفارادو (Pedro de Alvarado: 1485-1541) قصَّة فتح مملكة غواتيمالا. فبمجرَّد سيطرة الإسبان على أية رقعة صغيرة داخل القارَّة، وإن كانت قليلة الأهمية، كانوا يصطنعون قصَّة فتح يذيعونها في إسبانيا لجذب المهاجرين والمتطلِّعين إلى المناصب الكبيرة في المستعمرات. وكانت السيطرة الفعلية على تلك المناطق تتحقَّق بعد ذيوع قصَّة الفتح؛ لأنَّ الأوروبيين كانوا يندفعون نحوها بأعداد كبيرة سعياً للثراء ويبدأون إبادة السكان وانتزاع الأراضي بقوة السلاح[11]. ورغم أنَّ النظرة الفاحصة تكشف أنَّ الأحداث كانت تجري على هذ النحو، فإنَّ نصوص المؤرِّخين الأوروبيين تزعم أنَّ نصراً فاصلاً على شعوب تلك المناطق قد حقَّقه الإسبان بعددٍ قليلٍ من الرجال الشجعان، ودُوِّنت هذه المزاعم في سجلَّات التاريخ الأوروبي والأميركي الحديث بوصفها فتوحات بالغة العظمة.

---

11 عرّفت الأمم المتحدة الإبادة الجماعية بأنَّها "الاستهداف المقصود لجماعة معينة بالمحو والإزالة (extermination) الكلية أو الجزئية لجماعة قومية أو إثنية أو دينية". انظر:
Bethencourt, Francisco: *Racism: from the Crusades to the Twentieth Century,* (Princeton: Princeton University Press, 2013).

اعتماداً على رسائل كورتس ومذكِّرات بعض رفاقه الذين اعتُبروا فاتحين، وصفَ المؤرِّخون الأوروبيون غزو المكسيك بأنَّه أعظم أحداث التاريخ على الإطلاق، فكتب غُمارا:

"إنَّ فتح المكسيك وتحويل شعب إسبانيا الجديدة إلى المسيحية يمكن، ويجب أن يُضم إلى تاريخ العالم، ليس فقط لأنَّه جرى بطريقة متقنة، بل لأنَّه حدثٌ عظيمٌ بدرجةٍ بالغة. ولأنَّه كذلك؛ فإنَّني أكتب تاريخه مستقلّاً عن [التواريخ] الأخرى، ليكون نموذجاً لها"[12].

وكتب مؤرِّخ آخر، مادحاً ما قام به كورتس ورفاقه: "إنَّهم يستحقُّون التذكُّر إلى الأبد، فقلوبهم أعظم من أن تكون قلوب بشر"[13]. ووصف المؤرِّخ الإنجليزي وليام روبرتسون (William Robertson: 1721– 1793) الإخوة بيزارو، الذين يُنسَب إليهم فتح بيرو بأنَّهم: "رجال غير عاديين لأنَّهم هزموا واحدة من أعظم الممالك في العالم"[14]. وقبله بحوالي قرن من الزمان وصفَ المؤرِّخ الإسباني أنطونيو سوليس (Antonio de Solis: 1610–1669) فتح المكسيك وبيرو بأنَّه "أمر غير مسبوق في التاريخ، لا يرِد حتى في القصص الخياليَّة"[15]. بعد نيلها هذا القدر من التمجيد ستصبح قصَّة فتح المكسيك قالباً نموذجياً في أوروبا لقصَّة الفتح العظيم، يصبُّ فيه المؤرِّخون قصص الغزوات التي سيقوم بها من يُراد تعظيمه في التاريخ الأوروبي.

نتيجة لما أشاعه الإسبان من تقديرٍ عظيم لفتح المكسيك، برزت آنذاك ظاهرة سمَّاها المؤرِّخ ماثيو رستال نزعة عبادة كورتس (Cortés cult). فقد

12 Gómara, Franciso López; *Cortés: The Life of the Conqueror by his Secretary* (Berkely and Los Angles, University of California Press, 1966). P. 4.

13 Duran. Diego: *History of the Indies of New Spain*, (U. S. A.: Oklahoma University Press, 2009). p. 528.

14 Robertson, William; *The History of America,* Vol. III, (London: W. Strahan, 1739). p p. 3-5.

15 De Solis, Antonio; *History of the Conquest of Mexico by the Spaniards, Vol. 1,* (London: John Osborn, 1738). P. 457.

حظي هذا القائد لدى معظم الأوروبيين بما يشبه التقديس، وحسب رستال ”صار معجبو كورتس يسافرون إلى مقرِّ إقامته في إسبانيا كأنَّهم حُجَّاج ...“[16]. وبسبب ذيوع القصَّة اندفع الإسبان إلى المكسيك والبلاد المجاورة لها واجتاحت موجاتهم المناطق الداخلية للقارَّة. فكانت قصَّة الفتح هي التي اصطنعت لأميركا صورة جاذبة للغزاة ومكَّنتهم من تحويل مشروع غزو العالم، الذي كان مجرَّد فكرة في أذهان ملوك أوروبا وبابوات الكنيسة، إلى حقيقة. لذا يمكن قول إنَّه لولا قصَّة فتح المكسيك ما كان لإسبانيا أن تصبح أول دولة أوروبية تحتل أراضي أميركا، وما كانت بقية بلاد أوروبا الغربية ستندفع وراءها لتغزو العالم كله.

صارت رسائل كورتس بالنسبة إلى الأوروبيين وثيقة تثبت حقَّ إسبانيا في امتلاك قارَّة أميركا. ولأنَّ كورتس ادَّعى أنَّ مَلِك وزعماء المكسيك أقرُّوا بالخضوع لملك إسبانيا وبعد ذلك رفضوا دفع الخراج؛ قال إنَّ ذلك يجعل منهم متمردين يجب إخضاعهم بالقوة، وفقاً لما كان الأوروبيون يسمَّونه مبدأ ”الحرب العادلة“[17]. ليست قصَّة فتح أميركا حكاية تاريخية فقط، ولكنها وثيقة قانونية وسياسية أيضاً، فباستخدام رسائل كورتس سلبت إسبانيا شعوب أميركا حقَّ السيادة على أراضيها واستهلَّت تقليداً عُرِف في أوروبا الحديثة باسم ”التملُّك بحق الاكتشاف“. وهو تقليد تعود أصوله إلى القرارات التي بموجبها كان بابوات روما يوزِّعون أراضي العالم على ملوك أوروبا أثناء الحملات الصليبية. منذ ذلك الوقت أصبحت معظم بلاد العالم مِلكاً للأوروبيين، حسب اعتقادهم. فكان يكفي الدولة المعَّينة أن تقدِّم دليلاً على وصول بعض بحَّارتها إلى هذه أو

---

16 Restall, Matthew; *Seven...*,. P. 12.

17 حتى بداية القرن الثامن عشر ظلّ فلاسفة أوروبيون كبار يستندون إلى هذا المبدأ الذي يعود أصله إلى الرومان لتبرير غزو أراضي العالم واستعباد شعوبه. فقد برَّر به الفيلسوف الإنجليزي جون لوك العبودية، وميَّز بين ما سمَّاه ”العبودية الإنسانية“ و”العبودية غير الإنسانية“. للتوسُّع في هذا الموضوع، انظر الفصل المخصَّص للفيلسوف جون لوك في:

محمد عبد الرحمن حسن: **ذاتيات: فضُّ نظرة الفلسفة الأوروبية إلى الإنسان والمجتمع**، (الخرطوم: وقف، 2020).

تلك من أراضي العالم لتحصل عليها من البابا. فكانت الدول تقدِّم إليه طلبات منحها السيادة على قارَّة أو منطقة معينة مشفوعة بقصص اكتشاف أو فتح، باعتبار أنَّ القصَّة وثيقة تُثبِت وصول مواطني الدولة الأوروبية إلى القارَّة أو المنطقة المعيَّنة وبدء نشر المسيحية فيها. ويلتزم الحاكم الأوروبي الذي يُعيَّنُ حاكماً على المنطقة بأن يمنح نسبة معلومة من ثرواتها إلى الكنيسة. وفي الولايات المتَّحدة ما زال إلى اليوم امتلاك الأرض بناءً على ما يسمَّى "مبدأ الاكتشاف" (discovery doctorine) يمثِّل الأساس القانوني لامتلاك ذوي الأصول الأوروبية أراضي الشعوب الأصلية للقارَّة[18]. بعد غزو الإسبان لأميركا أصبح مواطنوها الأصليون، حسب القانون الأوروبي الذي فُرض بالقوة، غرباء في بلادهم يسكنون أرضاً يملكها ملوك أوروبا، الذين بدورهم منحوا رعاياهم حق اقتسامها. وبموجب ذلك تحوَّلت الوضعية القانونية لأهل القارَّة الأصليين من مواطنين يملكون أراضيهم إلى ما يشبه مستأجري أرض من غزاتهم.

إنَّ تملُّك الأوروبيين لأراضي الشعوب وفق ما يسمَّى "مبدأ الاكتشاف"، القائم إلى اليوم في القوانين الأميركية والقانون الدولي، هو استمرار للفكرة الدينية التي ادَّعى بها الأوروبيون في القرن الخامس عشر أنَّ البابا يملك حقَّ أن يقسِّم عليهم بلاد العالم، باعتباره نائب المسيح المتصرِّف في شؤون الأرض. كانت هذه الفكرة قد ابتكرتها عقلية حكَّام أوروبا انطلاقاً من عقيدتهم المسيحيَّة

---

18 بعد أن استقلَّ المستوطنون الأوروبيون عن الحكم البريطاني في الولايات المتحدة في يوليو 1776، قام توماس جيفرسون، الذي يعتبره الأميركيون أبرز رجال التنوير وأهم مؤسسي دولتهم، بنقل الحقوق المترتبة على "مبدأ الاكتشاف" من الدول الأوروبية إلى الولايات المتحدة في سنة 1792م. واستمرّ القانون الأميركي يفصل في نزاعات ملكية الأرض استناداً إلى ذلك المبدأ الجائر. وفي سنة 1823 أصدرت المحكمة العليا في الولايات المتحدة قراراً يُثبت شرعية المبدأ، وأشار القرار صراحة إلى أنَّ الأساس القانوني للمبدأ مصدره قرارات البابوية التي منحت غرب إفريقيا والشرق للبرتغال وأعطت قارَّة أميركا لإسبانيا، ونصّ القرار على أنَّ: "مبدأ الاكتشاف معترف به عالمياً". واليوم يُعد هذا المبدأ جزءاً من القانون الدولي وقوانين الولايات المتحدة. للاطلاع على مناقشة لهذا المبدأ، من وجهة نظر قانونيين ينتمون إلى قبائل أميركا الأصلية، توضِّح أبعاده العملية والقانونية في الأرض التي يحتلها الأوروبيون في كل من الولايات المتحدة وأستراليا وكندا، انظر:

Miller, Robert J. et al.: *Discovering Indigenous Lands: The Doctorine of Discovery in English Colonies,* (USA: Oxford University Press, 2012).

(Christiandom) المرتبطة بالسياسة والبعيدة الصلة بالمسيحيَّة من حيث هي ديانة سماويَّة، فالأديان تنزع سلطة التصرُّف في العالم من يد البشر لتضعها في يد خالقه. لقد سادت المسيحية في الشرق قبل أوروبا لكن مُعتنقيها وقادة كنائسها لم يعتقدوا أبداً أنَّها تمنحهم حق التصرُّف في العالم "نيابة عن المسيح والرب"، كما اعتقد الأوروبيون الذين طوَّروا في عهد الدولة الرومانية عقيدة مسيحويَّة تخدم سلطة الدولة.

من ناحية أخرى، أدّت التقارير والمعلومات التي نقلها غزاة أميركا دوراً بالغَ الأهمية في تزويد الدول الأوروبية بالمعلومات عن مصادر ثروات القارَّة وطبيعة أرضها ومناخها، وأوضاع وقدرات المجتمعات التي يمكن أن تُغزَى. وهذا النوع من عمليات جمع المعلومات وتحليلها هو الذي سيُمكِّن الأوروبيين، فيما بعد، من تطوير مؤسسات وأجهزة رسمية تزوِّدهم بمعرفة دقيقة عن الشعوب التي يُراد غزوها، من حيث قدرتها على المقاومة والأساليب المناسبة لإخضاعها. وكانت التقارير التي أرسلها فاتحو أميركا إلى إسبانيا أول أشكال جمع المعلومات وتنظيمها في أرشيفات يُستفاد منها في التخطيط للسيطرة على العالم. بعد تلقِّي تلك التقارير، ازدهرت في أوروبا مهنة رسم الخرائط، فظهرت الأطالس المتخصِّصة التي تحدِّد مواضع الثروات المعدنية والطبيعية، وتوضِّح التضاريس وظواهر السطح المانعة لحركة البشر أو التي تساعد عليها، وتصف طبيعة المناخ الذي قد يُعيق أو يُسهِّل التنقيب عن الثروات، فكانت الأطالس الجغرافية والنصوص ذات المحتوى الأنثربولوجي التي تصف طبائع الشعوب، أوَّل وأوسع المواعين المعرفيَّة التي طوَّرها الأوروبيون لجمع المعلومات[19]. وفي خضم الكم الهائل من المعلومات التي نقلها الرحَّالة والمستكشِفون والغزاة، كان القليل جداً منها يتضمَّن حقائق عن العالم وشعوبه، وكانت غالبيتها معارف ذات طبيعة خرافيَّة مستدعاة من العصور الوسطى، أُعيدت صياغتها لتحفِّز

19 Rabas, Jose; I*nventing America: Spanish Histriography and the Formation of Eurocenterism*, (Norman, Oklahoma: University of Oklahoma Press- 1994). P. 182.

جهود غزو العالم، وأدَّت بالفعل إلى السيطرة على معظم أجزائه. في هذا السياق، كان طبيعياً أن تتَّخذ الروايات التاريخية للفتوحات الإسبانية طبيعة أسطورية.

للتوصُّل إلى نوع المعرفة التاريخية التي زوّدت مؤرِّخي فتح أميركا بعناصر القصَّة التي صاغوها، لا بدَّ من رصد مختصر للمؤشِّرات التي تقود إلى مصادر القصة، وهي مؤشِّرات تتعلَّق بالأوضاع التي كانت سائدة في إسبانيا ومنطقة حوض البحر الأبيض المتوسِّط في الفترة التي كُتِب فيها تاريخ الفتح.

في سنة 1519 التي بدأ فيها كورتس غزو المكسيك، كان الأتراك العثمانيون قد وصلوا الجزء الغربي من ساحل المتوسِّط الجنوبي وسيطروا على الجزائر، فشكَّلوا خطراً جديداً على أوروبا، أعاد إلى ذاكرة أُممِها غزو المسلمين لشبه جزيرة إيبيريا وحكمهم لإسبانيا والبرتغال فترة طويلة جداً قاربت ثمانمئة سنة. هذا بجانب خوف الحكَّام الإسبان من مسلمي الأندلس الذين استمرُّوا يعيشون في إسبانيا بعد أن سقطت مملكتهم، ولم يخرجوا منها إلا في السنوات الواقعة بين 1609–1614م، بعد صدور قرار مَلكي وضعهم بين خيارين: إمَّا التخلِّي عن ديانتهم الإسلامية والتحوُّل إلى المسيحية، أو مغادرة الأراضي الإسبانية. وبسبب الفترة الطويلة من التعايش الأندلسي وتأثير المسلمين على ثقافة المسيحيين؛ استقرَّ لدى الإسبان إعجاب عميق بالحضارة الأندلسية، وأضفوا على تاريخ المسلمين بُعدَاً بطولياً، واستمرَّ ذلك إلى ما بعد فترة غزو أميركا. فالمؤرِّخ غُمارا الذي كتب قصَّة فتح كورتس لمملكة المكسيك، كان قبل ذلك قد وضع كتاباً عن النجاحات العظيمة لاثنين من معاصريه من القادة العسكريين المسلمين هما الأخوان باربروسا، اللذان حكما الجزائر باسم الأتراك العثمانيين في الفترة نفسها التي بدأ فيها الإسبان غزو أميركا.

الشيء الذي يؤكِّد اتِّصال فتح أميركا بلحظة مواجهة الإسبان للمسلمين، هو أنَّ كورتس بطل قصَّة فتح المكسيك وكاتبها غُمارا شاركا معاً في حملة إسبانية لغزو الجزائر قادها الملك بنفسه، لقيت الحملة فشلاً ذريعاً وكاد الجميع أن يهلكوا، ونجا الملك بأعجوبة. وقد سرد غُمارا بعض وقائع هذه الحملة التي يقول إنَّها جرت في سنة 1541م في كتابه عن فتح المكسيك، الذي قال فيه عن شجاعة كورتس وأعماله البطولية: "إنَّها لا تظهر في التاريخ إلا مع العظماء من أمثال بارباروسا"، مشبِّهاً ما جرى ببطولات قادة المسلمين في الحروب[20]. وبسبب هذا الحضور الواضح لتاريخ المسلمين في ذاكرة الإسبان آنذاك، ليس غريباً أن تظهر تأثيرات كثيرة لقصص فتوحاتهم على قصص غزو الإسبان لممالك أميركا.

إنَّ المَهمَّة التي يتصدَّى لها هذا الكتاب هي المساهمة في الكشف عن مصادر المعرفة الحديثة لدى الأوروبيين، خاصة تلك التي رسمت لهم صورة إيجابية عن ذات جماعية أوروبية متفوِّقة ومتميِّزة عن بقية البشر، وتوضيح أنَّ أهم مصادر تلك المعرفة هو تراث متعدِّد المصادر. لإثبات هذه الفرضية يُستخدَم هنا منهج مقارن بسيط يرصد العلاقات بين العناصر السردية الأساسية لتاريخ غزو أميركا الذي حدث في القرن السادس عشر الميلادي، وتاريخ غزو مسلمي شمال إفريقيا للأندلس، الذي جرى قبل فتح أميركا بزمن طويل يعود إلى بداية القرن الثامن الميلادي. والهدف هو إثبات أنَّه رغم القرون الثمانية التي تفصل بين لحظتي الحدثين؛ فإنَّ الأوروبيين استخدموا نمط المعرفة نفسها التي كان المسلمون يستخدمونها لكتابة تاريخهم، وأنَّ تلك المعرفة ما زالت مستخدمة إلى اليوم في كتابة تاريخ فتح أميركا وتواريخ عدد من فتوحات أوروبية في مناطق أخرى.

---

20 Gómara, p. 91.

تكمن أهمية دراسة فتح أميركا في جوانب عدَّة، فهو أول حدث كبير وقع على عاتق المؤرِّخين الأوروبيين الحديثين واجب التأريخ له، وبالتالي فهو يُعدُّ الحدث المؤسِّس للمعرفة التاريخية الغربية الحديثة، فيما يخص التاريخ العالمي. وهو أيضاً الحدث الذي أرسى تقاليد الغزو الحديث، فبعد سنة 1521م بدأ الاجتياح الأوروبي للعالم واستمر حتى منتصف القرن العشرين. والظاهرة المدمِّرة التي سمَّاها الأوروبيون (الاستعمار) ليست حدثاً عرضياً طرأ على تاريخ أوروبا الحديثة، وإنَّما هي الشرط النظامي لتطوُّرها المؤسَّس على مبادئ قانونية لها جذور دينية توافَقَ عليها الأوروبيون ودبَّروا لها التبريرات العقلية. لهذه الجوانب حضور قوي في المعرفة التاريخية الأوروبية وتمثِّل خطابات الفتوحات الساحة الواسعة التي تتقاطع فيها؛ لأنَّها صِيغت في الفترة التي شهدت مولد مشروع الغزو الأوروبي للعالم وتبلوَرت فيها أيديولوجياه بجوانبها المختلفة، الدينية والسياسية والفكرية.

لأنَّ دراسة خطاب الفتوحات الأوروبية تُساهم في معرفة الكيفية التي صارت بها بلاد الجنوب وشعوبها موضوعَ فحصٍ يستهدف السيطرة عليها؛ فهي توضح كيف نشأت وتطورت وأُدمِجت بنظام التعليم في المؤسَّسات والأكاديميات الغربية، وكيف وُظِّفت للتحكُّم بعقليَّات النخب الوطنية التي تدير دول الجنوب. فالمعرفة الغربية تُستخدَم حالياً للسيطرة على عقول الأمم والإمساك بمصائرها عبر تقنيات التحكُّم عن بعد، التي تخدمها التقنية المعاصرة أفضل ممَّا مضى.

بالنسبة إلى الأمم غير الأوروبية تتمثَّل أهميَّة قصص الفتوحات في أنَّها غرست وغذَّت ثقافة الخضوع لدى الشعوب التي احتُلَّت أراضيها. فقد زوَّدها التاريخ الذي كتبه الأوروبيون بصورة سالبة عن ذاتها جرى ترويجها وترسيخها عبر مؤسَّسات التعليم ونشر الثقافة الحديثة. فكثيرون من مثقَّفي أميركا الأصلية تبنَّوا الصورة المُهِينة التي اصطنعها المؤرِّخون الأوروبيون عن

خضوع أسلافهم للغزاة بطريقة طوعيَّة. وبدورهم، صاغ هؤلاء المثقَّفون في كتاباتهم عن ملوك بلادهم صورة حكَّامٍ عاجزين عن الدفاع عن أوطانهم اعتقدوا أنَّ الإسبان (آلهة) ذات قدرات خارقة، حسب الرواية التاريخية التي تلقَّاها أولئك المثقَّفون من الأوروبيين.

أما بالنسبة إلى شعوب منطقة شرق وجنوب المتوسِّط، أي الشعوب العربية والمسلمة، فإنَّ الكشف عن ارتباط قصَّة فتح أميركا بقصة فتح الأندلس له أهميةً خاصة. فقد أنشأت المخيِّلة الجماعية لهذه الشعوب صورة تاريخ أندلسي مجيد، ما زال يُلهبها بحنينٍ يعيق تحرُّرها من سلطة الماضي. وقد سمَّى أحد الباحثين هذه الحالة التي استغرقت الوعي العربي "الأعراض الأندلسية"، رائياً أنَّها ساهمت في صرف اهتمامه عن مواجهة قضايا الحاضر[21]. وبالفعل، ما زالت الأندلس تُصوَّر في الفكر العربي المعاصر كلحظة ذهبية قابلة لأن تُستعاد، في تجاهل تام لحقيقة أنَّه كان مشروع غزوٍ يصعب التعاطف معه إلا بتبنِّي فكرة "نشر الحضارة"، وهي ذات الفكرة التي برَّرت بها أوروبا غزو العالم في العصر الحديث، بما فيه البلاد العربية.

في هذا الوقت الذي تتضاعف فيه الحاجة إلى الخروج من أزمة العالم المعاصر المحكوم بعلاقات القوة، والذي تعاني فيه الشعوب العربية تدخُّلات تهدِّد استقلالها، يحتاج الفكر العربي أن يطوِّر نقداً للسيطرة يفضُّ بنيتها العميقة الموغلة في الماضي، والمشتركة بين جميع الأمم التي مارست التوسُّع العابر للقارات، وربطت نشر الحضارة بغزو بلاد الآخرين. وهذه مَهمَّة لا بدَّ أن تبدأ بمعرفة الكيفية التي صاغت بها خطابات الغزو والفتح وعي تلك الأمم، وزوَّدتها

21 Louayene, Atef; Pathologies of Moorishness: Al-Andalus, Narrative, and “Worldly Humanism”, *Journal of East-West Thought*, vol. 1, no. 3, (March 2013), 31-44. pp. 35-6.

بتصوُّرات زائفة عن نفسها وعن ماضيها أضفت شرعية على نزعات الهيمنة، وما زالت تلهمها اليوم سلوكها التوسُّعي[22].

حسب النصوص التاريخية الأوروبية، يُعدُّ فتح أميركا أضخم ملحمة في تاريخ البشرية على الإطلاق. فقد فُتحت القارَّة كلها بغزو خمسمئة جندي إسباني لمملكة الأزتك في المكسيك وحصار مئتين من الإسبان لمملكة الإنكا في بيرو، ومهاجمة مئتين آخرين لمملكة المايا في غواتيمالا. وباختصار شديد، تقول القصَّة إنَّ تسعمئة جندي إسباني فقط سيطروا في عدة سنوات على ثلاث ممالك ضخمة من دون معرفة بطرقها وسطحها ومناخها ولغاتها ومصادر الغذاء فيها، فاعتقلوا ملوكها وسط جنودهم الذين بلغ عددهم حوالي نصف مليون مقاتل هم مجموع جيوش الممالك الثلاث، وفرضوا على أولئك الملوك فديات ضخمة جمعوا منها ثروات عظيمة. حسب الرواية الإسبانية، حاصر ذلك العدد المحدود من الجنود عواصم تلك الممالك الواسعة شهوراً طويلة ونجحوا، بشجاعةٍ نادرةٍ وتضحياتٍ بطولية، في هزيمتها وإخضاع معظم القارَّة لإسبانيا.

صوَّرت قصص الفتوحات الأوروبية شعوب أميركا على هيئة مجتمعات ساذجة متخلِّفة، بينما صوَّرت الأوروبيين متقدِّمين حضارياً وتقنياً وعقلياً، رغم أنَّه لم يكن هناك فرق حضاري كبير بين الطرفين عند حدوث المواجهة بينهما. كان تأخُّر أوروبا الاقتصادي هو الذي دفعها للخروج إلى العالم غازية له، وفي ذلك الوقت لم تكن للسلاح الناري فاعلية بسبب بدائيته واعتماده على تحميل

22 تعكس نصوص الأدب العربي القديم والمعاصر هذه الحالة الذهنية بوضوح كبير، وللاطلاع على دراسة مقارنة جيدة بين صورة الأندلس في السرديات الأدبية العربية والسرديات الإسبانية المعاصرة، انظر:

Civantos, Christina; *The Afterlife of Al-Andalus: Muslim Iberia in Contemporary Arab and Hispanic Narratives,* (Albany: State University of New York Press, 2017).

الطلقات يدوياً، وأيضاً بسبب بُعد الإسبان عن مصادر البارود وصعوبة التزوُّد به، فاعتمدوا على الأسلحة البيضاء في جميع غزواتهم حسب ما تؤكد نصوص مؤرِّخيهم ورسائل فاتحي ممالك أميركا أنفسهم، فهي لا تشير إلى أي دور مؤثِّر للسلاح الناري، بل أنَّها لتؤكِّد شجاعة الإسبان، تشدِّد على أنَّ براعتهم في استخدام السيوف والرماح وركوب الخيل هي التي حسمت الحرب. لقد كانت الفتوحات الأوروبية في أميركا حروباً تقليدية في معظم جوانبها، سواء من حيث الأسلحة المستخدمة أو التاكتيكات المتَّبعة أو العقلية التي أدارتها، ولذا، لا غرابة أنَّ المؤرِّخين الذين صاغوا رواياتها اتَّبعوا تقاليد تاريخية لم تفارق نمط التدوين الذي ساد العصور الوسطى وتأثر بالثقافة الأندلسية.

إنَّ الثقافة الجماهيرية الغربية المعاصرة وأدب الترفيه والألعاب الإلكترونية والرسوم المتحركة والأفلام السينمائية التي تصوِّر الإنسان الأوروبي صاحب قدرات خارقة يحمي الإنسانية من المتوحِّشين الذين يسكنون الغابات، والأشرار القادمين من الفضاء، إنَّما تتغذَّى على نمط المخيِّلة التي صاغتها قصص الفتوحات، فهي تصوِّر الإنسان الأوروبي كائناً متفوِّقاً يقهر الأشرار لنشر الخير. والبطولات التي يُشاع أنَّ عدداً قليلاً من الرجال استطاع تحقيقها في فتح أميركا، هي التي زوَّدت الغرب بتصوُّرٍ عن ذات استعلائية من حقِّها استخدام العنف الكاسح ضد الآخرين. وألهمت قادة مثل جيمس كوك ونابليون بونابرت وسيسل رودس وتشارلس غردون وغيرهم، سلوكهم العنيف المحتفَى به اليوم في تاريخ أوروبا. وهي التي تلهم حالياً جماعات النازيِّين الجُدد واليمين المتطرِّف ومنظمات استعلاء البِيض (white supremacists) في أوروبا وأميركا نزعاتهم العنصرية والعرقية. ولا شك أنَّ الكشف عن مصادر المعرفة القائمة وراء قصص الفتوحات الأوروبية، وتوضيح أنَّها تستعير تراثاً حكائياً من العصور الوسطى متنوِّع المصادر ولا ينتمي لأوروبا، سيُساهم في فضِّ أوهام التفوُّق والامتياز التي أشاعتها المعرفة التاريخية في أوساط الأمم الغربية.

يبدأ تحليل خطاب فتح أميركا بدراسة قصَّة فتح مملكة الأزتك في المكسيك. وتنقسم نصوص المؤرِّخين الإسبان الذين صاغوا القصَّة إلى ثلاثة أصناف: أولها، النصوص التي كتبها موظَّفو البلاط الإسباني الذين تم تعيينهم لإدارة مستعمرات أميركا وما كتبه الفاتحون من رسائل في صورة تقارير (accounts) أُرسلت إلى ملك إسبانيا. والصنف الثاني كتبه المبشِّرون وأصحاب المناصب الكنسيَّة عن شعوب أميركا لتزويد العاملين في مجال نشر المسيحية بالمعلومات. أما الصنف الثالث فكتبه مؤرِّخون محترفون لأغراض مِهنيَّة تخصّ وظائفهم وكسب عيشهم، خاصة أنَّ بعضهم كان يقوم بأعمال السكرتارية للفاتحين وحكّام بعض بلاد أميركا. وتتَّفق هذه الأصناف الثلاثة من النصوص التاريخية إلى حد كبير حول مضمون القصة، وتتَّفق أيضاً على الصورة الإيجابية التي صاغتها للفاتحين والصورة السلبية التي صاغتها لشعوب أميركا. وهذه المصادر الثلاثة هي التي سيُعتمد عليها هنا في استخلاص المعالم الرئيسية لقصَّة فتح أميركا.

أما قصَّة فتح الأندلس فتُستخلَص في الأساس من النصوص العربية التي كُتِبت في الفترة التي تلت الفتح، والتي تمثِّل المصادر الرئيسية والموثوقة لدى المؤرِّخين العرب المعاصرين، بجانب استفادة محدودة من بعض النصوص الإسبانية التي أوردت ما فُقِد من النصوص العربية القديمة المُهمَّة، وقليل من النصوص التي كُتِبت في فترة متأخِّرة[23].

23 رغم كثرة النصوص العربية التي تناولت تاريخ الأندلس، تقلّص عددها كثيراً بعد سقوط غرناطة بسبب حادثتي حرق. الأولى قام بها الكاردينال الإسباني خمينيث سيسنرو (Francisco Jiménez de Cesniro) في سنة 1499م وأباد فيها حوالي ثمانين ألف مجلّد. والثانية حادثة حريق مكتبة الأسكوريَل في سنة 1671م. وهي المكتبة التي كان الملك فيليب الثاني قد جمع فيها كل ما وجد في إسبانيا من كتب عربية. وأهم ما فُقد من النصوص التاريخية العربية ما كتبه موسى الرازي (ت. 344هـ/955م)، خاصة كتابه (أخبار ملوك الأندلس)، الذي نَقَلَت عنه معظم المصادر العربية المعتمَد عليها حالياً في التأريخ للفتح. حول الأوضاع الحالية للمصادر العربية الخاصة بتاريخ الأندلس، انظر مقدمة الكتاب التالي:
Ṭāha, Abdulwāḥid Dhanūn; *The Muslim Conquest and Settlement of North Africa and Spain,* (New York: Routledge, 2016). p p. 2-5.

من حيث هيكله، يضم الكتاب ثلاثة أقسام بكل منها أربعة فصول. يقارن القسم الأول بين المراحل الأساسية لقصة فتح المكسيك وما يقابلها في فتح الأندلس. أما القسم الثاني فيتتبَّع خارطة انتشار خطاب فتح أميركا في أوروبا وتحوُّله إلى صيغة نموذجية لكتابة تاريخ فتوحاتها الحديثة. يستخلص الفصل الأول القالب السردي الذي أرَّخ به الإسبان لفتوحاتهم في بقية ممالك أميركا مركِّزاً على فتح بيرو وغواتيمالا، وينتقل الفصل الثاني إلى إنجلترا ليرصد كيفية توظيف نفس القالب السردي في التأريخ لوصول جيمس كوك إلى المحيط الهادئ وتدبير قصَّة (اكتشاف) جزر هاواي ونيوزيلانده وأستراليا. ويعرض الفصل الثالث غزو نابليون لمصر الذي كُتب على أنَّه (فتح) للشرق يماثل فتح كورتس للمكسيك، ويعقبه فصل رابع يتناول غزو محمَّد علي باشا للسودان فيما سُمِّي (فتح) إفريقيا موضِّحاً كيف استفاد من خطاب فتح أميركا. أمَّا القسم الثالث فيبيِّن أنَّ مصادر خطاب الفتوحات الأوروبية والعربية تتشظَّى منتشرة في التاريخ القديم، وتوضِّح بعض فصوله كيف ساهمت المعرفة التاريخية في استدامة السيطرة الأوروبية على شعوب العالم بتوظِّيف خطاب الفتوحات للتحكُّم بوعيها. وينتهي الكتاب بخاتمة تورد النتائج المُهمَّة.

في القسم التالي، تُقارَن قصَّتا فتح المكسيك وفتح الأندلس اعتماداً على ما يمكن وصفه بأنَّه سرديَّة شاملة ومثالية لكل منهما، تُجمَع عناصرها من مؤلَّفات المؤرِّخين الأساسيين لكل فتح. تُستَخلَص قصَّة فتح المكسيك من الذين شهدوا الفتح، مثل كورتس قائد الحملة الذي كتب للملك رسائل تصف مراحل الفتح، والجندي برنال دياز (Bernal Diaz del Castillo: 1492-1584)، والمؤرِّخين الذين جمعوا معلوماتهم من بعض الغزاة والفاتحين، مثل غُمارا الذي كان يعمل سكرتيراً لكورتس ونقل عنه القصة، وأيضاً المؤرِّخين الذين عاشوا في المكسيك قرب زمن الفتح وتلقَّوا معلوماتهم من مصادر محليّة متعدِّدة،

مثل الأب برناردينو ساهاجون (Bernardino de Sahagún: 1500–1590) والأب دييغو دوران (Diego Durán: 1537–1588) ومنهم أيضاً الأب خوسيه أكوستا (José de Acosta: 1540–1600). وتُضاف إليهم نصوص مؤرِّخين كتبوا عن الفتح في القرنين التاليين، أبرزهم المؤرِّخ الإسباني أنطونيو سوليس والأسكتلندي وليام روبرتسون (William Robertson: 1721–1793) والأميركي وليام برسكوت (William H. Prescott: 1796–1859).

أما المصادر العربية حول تاريخ فتح الأندلس المعتمدة هنا فهي نصوص ابن عبد الحكم (أبو القاسم بن عبد الله، ت. 257هـ/871م) وابن حبيب (أبو مروان بن عبد الملك، ت. 238هـ/853م) وابن القُوطِيَّة (أبو بكر محمَّد بن عمر، ت. 367هـ/977م) والرقِيق (أبو إسحاق إبراهيم بن القاسم، ت. 420هـ/1092م) وابن عِذاري (أبو العباس أحمد بن محمد، المتوفَّى بين نهاية القرن الثامن الهجري وبداية القرن التاسع تقريباً) والحِميَري (محمد بن عبد المنعم، ت. 900هـ/1495م) والمُقرِّي (شهاب الدين أبو العباس، 1041هـ/1631م)[24]. إضافة إلى نصٍّ منسوب إلى مؤرِّخ مجهول يضمُّ أخباراً جُمِعت من كتب موثوقة لدى المؤرِّخين العرب، القدامى والمعاصرين.

24 المُقرِّي هو الوحيد بين المؤرِّخين المعتمدين هنا الذي كتب عن فتح الأندلس بعد فتح أميركا، فلأن نصوصه تنقل عن بعض الكتب التاريخية العربية التي فُقدت نسخها في الوقت الحالي؛ يُعتبر نصه لا يختلف عن نصوص من كتبوا قبل فتح أميركا.

القسم الأوَّل

بين فتح المكسيك وفتح الأندلس

التمهيد للغزو: تمرُّد وتحالفات

يقارن هذا القسم بين تاريخَي فتح المكسيك وفتح الأندلس في أربعة فصول متتالية. ولأنَّ قصَّة فتح المكسيك هي المراد تفسيرها، ستُورَد أحداثها أولاً ثم يَرِدُ ما يوازيها من أحداث فتح الأندلس، الذي جرى قبلها بأكثر من ثمانية قرون. ففي عام 711م الموافق 92 هـ، غزا مسلمو شمال إفريقيا شبه جزيرة إيبيريا التي كانت معروفة لديهم باسم الأندلس، وتوسَّعوا فيها خلال السنوات التالية، وحكموا كل منطقة إسبانيا والبرتغال الحاليتين وبعض المناطق الواقعة في جنوب فرنسا. وثبتَ حكمهم زمناً طويلاً حتى بدأ مسيحيُّو الأندلس في القرنين الثاني عشر والثالث عشر يستعيدون بعضاً من المدن الكبيرة، مثل قرطبة وإشبيلية ولشبونة. امتدَّت المواجهة بين الطرفين ثلاثة قرون قويت فيها شوكة المسيحيين شيئاً فشيئاً، ونشأت مملكتا أراغون وقشتالة اللتان اتَّحدتا بزاوج ملكيهما فرديناند وإيزابيلَّا. وفي نهاية سنة 1491م حاصرت جيوشهما سلطنة غرناطة التي كانت قد ضعفت تماماً، فاستسلم لهما الملك أبو عبد الله في يناير من سنة 1492م، ودخلت جيوشهما غرناطة عاصمة آخر ممالك الأندلس، وبذلك انتهى حكم المسلمين ووُلدت إسبانيا الحديثة.

بعد شهورٍ من تسلُّمهما مدينة غرناطة وقَّع ملكا إسبانيا اتِّفاقاً مع البحّار الإيطالي كريستوفر كولمبوس لتسيير رحلة من سواحل إسبانيا عبر المحيط الأطلنطي إلى الهند، وبدء تجارة معها تساعد إسبانيا على الاستغناء عن تجارة

المتوسِّط التي كان يسيطر عليها المسلمون، ويجلبون بها سلع الشرق إلى بلاد أوروبا الغربية، فقد كان استمرار تلقِّي الإسبان لسلع الشرق بواسطة المسلمين، كما كان الحال في عهد الأندلسيين، يعطي المسلمين فرصة الضغط على الدولة الإسبانية حديثة الاستقلال. وبصدفة محضة، وصل كولمبوس جزيرة صغيرة في البحر الكاريبي اعتَقَدَ أنَّها من جزر الهند، وكانت هي جزيرة البهاما. وهناك عَلِم كولمبوس من المواطنين بوجود أرض كبيرة قريبة، فاستيقن أنَّه وصل إلى جزر الهند وأنَّ الأرض الكبيرة القريبة هي قارَّة آسيا، وبقي على اعتقاده ذاك طوال حياته. وبعده عرف الإسبان أنَّ تلك القارَّة ليست آسيا وإنَّما قارَّة أخرى لم تكن معلومة لهم، فسموها بأسماء مثل: "العالم الجديد" و"الهند الغربية"، وفيما بعد سُمِّيت أميركا.

بعد خمس وعشرين سنة من وصول كولمبوس إلى جزر الكاريبي، وصل الإسبان إلى الجزء الذي يربط قارتي أميركا الشمالية والجنوبية في منطقة المكسيك الحالية وفُتِح في منتصف أغسطس سنة 1521م، وتبع ذلك فتح بيرو ثم غواتيمالا وهندوراس وتشيلي في فترات أطول مما استغرقه فتح المكسيك. وبذلك تحقَّق للإسبان ما يسمِّيه المؤرِّخون الغربيون اليوم "فتح أميركا". ولأنَّ فتوحات كل تلك البلاد بدأت بفتح المكسيك، فإنَّ تعبير فتح أميركا يُستخدم لتلك البلاد مجتمعة بجانب المكسيك، وبهذا المعنى الشامل يُستخدم تعبير "فتح أميركا" في هذا الكتاب، الذي تقارن صفحاته التالية بين عناصر القصَّتين.

تبدأ قصَّة فتح المكسيك بأنَّ أحد القادة العسكريين الإسبان الذين شاركوا في إسقاط غرناطة، واسمه دييغو فيلاسكيز، كلَّفَه الملك بغزو جزيرة كوبا في سنة 1511م واستطاع فتحها وإخضاعها لإسبانيا، فعُيِّن حاكماً عليها. وكان بين قوات الغزو جندي اسمه هرناندو كورتس، أقامه فيلاسكيز حاكماً على مدينة سانتياغو، الواقعة على ساحل كوبا، وجعله على رأس قوة عسكرية صغيرة. ثم

طلب فيلاسكيز إذناً من البلاط الإسباني بغزو المناطق الداخلية لقارَّة أميركا، الواقعة مقابل كوبا والتي سمع أنَّ بها مملكة غنية جداً. تأكد فيلاسكيز من ثراء المملكة عن طريق إرسال حملة استكشافية قادها إسباني اسمه خوان غريهالفا (Juan de Grijalva) في سنة 1518م. مرَّت الحملة بجزيرة اسمها (كوزمل) (Cozumel) وجزء من ساحل القارَّة وعادت بكمية من الذهب وأخبار تؤكِّد وجود مملكة غنية في الأرض الداخلية اسمها يوكاتان، وتُسمَّى أيضاً المكسيك[1]. فأصدر الحاكم فيلاسكيز توجيهاً لكورتس، قائد حامية سانتياغو، بإعداد حملة للإبحار نحوها لاستكشاف أوضاعها والتعرُّف على إمكانية إقامة علاقات تجارية معها. لكن كورتس تمكَّن وحده من تجهيز ست سفن، وأقلع متوجِّهاً صوب تلك المملكة من دون إذن حاكم كوبا فيلاسكيز، مستهدفاً فتحها[2]. تقول وثائق الحملة إنَّ كورتس وفَّر ثلثي تكاليف الحملة، بما فيها السفن والسلاح والغذاء، من مال دفعه له تجارٌ إسبان، وبمساهمة منه أيضاً[3]. رست سفن كورتس على ساحل "يوكاتان" أو المكسيك، يصحبه جنود يتراوح عددهم بين أربعمئة وخمسمئة في يوم 21 أبريل سنة 1519م، وهو اليوم الذي يُؤرَّخ به لبدء غزو المكسيك، وأميركا عامة، وهذا العدد المحدود من الجنود، الذي وصفه المؤرِّخ الأميركي برسكوت بأنَّه "حفنة من الرجال"، هو الذي سيُنسب إليه فتح مملكة المكسيك العظيمة وهزيمة محاربيها الذين فاق عددهم مئتي ألف.

قبل حوالي ثمانمئة عامٍ من غزو المكسيك كان قد حدث أمر مماثل في أوروبا، فعندما كان القوط يحكمون شبه جزيرة إيبيريا، غزاها مواطنو شمال

---

1 ضلَّت سفن غريهالفا طريقها ولكن بدرو الفارادو الذي كان برفقته عاد إلى كوبا حاملاً أخبار مملكة يوكاتان. ومن أجل تعريف مختصر بالحملة، انظر:

Seaman, Rebacca M.; *Conflict in the Early Americas: An Encyclopedia of the Spanish Empire's Aztec, Incan and Mayan Conquests*, (Santa Barbara, Denver, Oxford: ABC-ALIO, 2013). pp. 157- 158.

2 Diaz, Bernal: *The Conquest of New Spain,* (England, Penguin, 1963). P. 55.

3 Cortés, p. 11.

إفريقيا بعد أن اعتنق بعضهم الإسلام. وتُفتتح قصَّة الغزو بأحداث مماثلة لما يقول مؤرِّخو فتح المكسيك إنَّها جرت بين فيلاسكيز حاكم كوبا وكورتس[4].

حسب الرواية العربية، أمر خليفة المسلمين المقيم في دمشق موسى بن نُصير بغزو بلاد المغرب، فتمكَّن من فتحها، وقام الخليفة بتنصيبه حاكماً عليها. وكان في جيش الفتح قائد اسمه طارق بن زياد، أقامه موسى على رأس حامية مدينة طنجة المُطلَّة على سواحل البحر الأبيض المتوسِّط، فكتب ابن كثير عن ذلك، نقلاً عن الذهبي: "كان طارق بن زياد أمير طنجة، وهي أقصى بلاد المغرب، وكان نائباً لمولاه موسى بن نُصَير"[5]. ثم طلب موسى إذناً من خليفة المسلمين بأن يغزو مملكة واقعة على الساحل المقابل لبلاد المغرب، يسمِّيها أهل المغرب: الأندلس، وهي مملكة عُرِف عنها أنَّها غنيَّة بالثروات، فأذن له الخليفة بذلك شرط أن يستكشفها ويختبر قوَّتها أولاً. أرسل موسى قائداً اسمه طريف على رأس حملة استكشافية تضمُّ ما بين أربعمئة وخمسمئة جندي، فعادت بغنائم وافرة أكدت ثراء الأندلس وقابليتها للفتح. يقول الحميري:

> **"حينما كتب موسى للوليد بن يزيد يستأذنه في الفتح أمره بأن يختبر الأندلس بالسرايا، فبعث بطريف بن ملُّك المُعافري، يكنَّى أبو زرعة، في أربعمائة رجل فعبر بهم، ونزل في الجزيرة المنسوبة إليه، ثم أغار على الجزيرة الخضراء ونواحيها فأصاب سبياً لم يرَ موسى فيما أصابه مثله حسناً، وأصاب مالاً جسيماً وأمتعةً، وذلك في رمضان سنة 91هـ"[6].**

---

4 القوط من القبائل الجرمانية التي غزت روما في بداية القرن الخامس الميلادي وقضت على الإمبراطورية الرومانية الغربية التي كانت متهالكة في ذلك الوقت. وفي عام 409م تمكنوا من غزو الأندلس، فحكمتها ثلاث جماعات منهم، كان بينهم الواندال (Vandal)، وهم الذين عرفهم العرب باسم "أندلس"، ونزلوا المقاطعات الجنوبية المسماة "باطيقا" (La Bática). لمزيد من التفاصيل حول تلك الجماعات، انظر: **سلمى الخضراء الجيوسي: الحضارة ...**، ص 57.

5 ابن كثير (إسماعيل بن عمرو): **البداية والنهاية**، ج 12 (بيروت: عالم الكتب، 2003). ص 436.

6 الحميري (أبي عبد الله محمَّد بن عبد الله): **صفة جزيرة الأندلس**، تحقيق إ. لافي بروفنصال (د. ن.، د. ت.). ص 8. وانظر أيضاً: ابن عذاري المراكشي: **البيان المغرب في تاريخ الأندلس والمغرب، ج 2** (بيروت: دار الثقافة، 1980م). ص 5.

حين علم الحاكم موسى بقابلية الأندلس للغزو قرَّر فتحها، وأمر طارق بالاستعداد لذلك، لكنّ طارقاً قرَّر أن يستبِق موسى، ودون أن يستأذنه اتَّفق مع تاجر من القوط اسمه "يوليان" كما تسمِّيه المصادر العربية (وهو جوليان في المصادر الأوروبية)، وطلب منه أن يزوِّده بسفن يعبر بها البحر، فأعانه بها. وأقلع طارق دون إذن موسى، قائده المُباشر، فوصلت سفنه ساحل الأندلس في سنة 711م/ 92 هـ. وحسب قول المؤرِّخ أبو اسحاق الرقيق: "... جاز طارق إلى الأندلس في مراكب يُليان، وموسى بن نصير بإفريقية لا يعلم شيئاً من هذا"[7].

تقول بعض النصوص العربيَّة إنَّ عدد جنود حملة طارق أيضاً كان خمسمئة جندي، ويقول بعضها إنَّهم كانوا ألفاً وسبعمئة[8]. ويرى مؤرِّخون أنَّ فتح الأندلس بدأ بغزو طريف لها بجنوده الخمسمئة وأنَّه هو الذي تحالف مع يوليان حاكم سبتة، وليس طارق. وسواء نُسِب الفتح إلى طارق أو إلى طريف، فالمهم أنَّه بدأ بعدد قليل جداً من الرجال لا يتجاوز الخمسمئة. كتب المقرِّي عن هذا الأمر:

> **"وذكر الحجاري وابن حيّان وغيرهما أنَّ أوَّل من دخل جزيرة الأندلس من المسلمين برسم الجهاد طريف البربري مولى موسى بن نُصير الذي تُنسب إليه جزيرة طريف التي على المجاز. غزاها بمعونة صاحب سبتة يُليان النصراني، لحقده على لذريق صاحب الأندلس، وكان في مائة فارس وأربعمائة راجل، جاز البحر في أربعة مراكب، في شهر رمضان سنة إحدى**

---

7 الرقيق (أبو إسحاق إبراهيم بن القاسم): **تاريخ إفريقية والمغرب**، تحقيق عبدالله الزيدان وعزالدين عمر موسى، (بيروت: دار الغرب الاسلامي، 1990). ص 53.

8 من النصوص الأوروبية التي قدرت جنود حملة طارق بخمسمئة جندي:
Condé, Juan Antonio: *History of the Dominion of the Arabs in Spain* (London: George Bell and Sons, 1900). p. 53.
ومن النصوص العربية: ابن حبيب (عبد الملك بن حبيب السلمي، ت هـ238/ 853م): **التاريخ**، (بيروت: المكتبة العصرية، 2008). ص 143.

وتسعين وانصرف بغنيمة جليلة، فعقد موسى بن نصير صاحب المغرب لمولاه طارق بن زياد على الأندلس، ووجهه مع يُليان صاحب سبتة"[9].

إنَّ تشابُه مقدِّمتَي قصَّتَي الفتحين يمهِّد لتماثُل الأحداث التي ستتلوهما، ففي المقدِّمتين يرسل أحد الملوك جيشاً ليفتح أرضاً بعيدة ويقوم بتعيين قائد جيشه حاكماً عليها، وبدوره يقوم الحاكم بوضع أحد رجاله على رأس حامية لمدينة ساحليَّة، تُرى منها على الساحل المقابل أرض مملكة أُشتُهِرت بثرواتها. ثم يوجِّه الحاكم حملة استكشافية إلى تلك الأرض للتأكُّد من ثرائها وقابليتها للفتح، وتعود الحملة بأخبار تؤكِّد ثراء المملكة، فيأمر الحاكم قائد الحامية بالاستعداد لتسيير حملة إليها، لكن القائد يستبق صدور أمر الإبحار ويقلع دون إذن الحاكم بسفن يساعده على إعدادها بعض التجَّار، ويغزو المملكة بعدد قليل من الرجال، يقول بعض مؤرِّخي الفتحين إنَّه خمسمئة جندي فقط.

ترسم هذه التماثلات الابتدائية الحدث الأساسي الذي سيؤطِّر قصَّتَي فتح الأندلس وفتح أميركا؛ وهو تمرُّد قائد حملة فتح المملكة على الحاكم، رئيسه المباشر. وربما يكون تشابُه تصرُّفات الحاكمين موسى وفيلاسكيز من جهة، وتدابير القائدين طارق وكورتس من جهة أخرى، رغم فارق القرون الثمانية التي تفصل بين زمنيهما؛ هو الذي أغرى المؤرِّخين الإسبان بإمكانية تشبيه فتح المكسيك بفتح المسلمين للأندلس، بهدف اصطناع تاريخٍ مجيد لإسبانيا يوازي التاريخ العظيم لفاتحيها المسلمين. لقد غزا الإسبان المكسيك بعد سبع وعشرين سنة فقط من سقوط مملكة غرناطة على أيديهم في سنة 1492م، وفي تلك الفترة كانوا في حاجة ماسَّة إلى تاريخ إيجابي يدعم بناء أُمَّتهم الوليدة، يردُّون به على التاريخ القديم الذي انهزموا فيه أمام المسلمين وخضعوا لحكمهم

---

9 المقري (أبو العباس أحمد، ت. 1041هـ/1631م، تقريباً): **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب،** (بيروت: دار صادر، 1968). ص. 230-231.

الطويل، ويعدُّون به أنفسهم لمواجهة مسلمين جُدد، هم الأتراك العثمانيون الذين كانوا يتوسَّعون في أوروبا بسرعة كبيرة آنذاك، ويهدِّدون إسبانيا مرة أخرى بتزايد سيطرتهم على مياه البحر الأبيض المتوسِّط[10].

عوداً إلى أحداث فتح المكسيك: بمجرَّد أن هبط كورتس ساحل المملكة بدأ ببناء قلعة قرب الساحل يحتمي فيها جنوده، وأقامها قرب جبل اسمه جبل النجم، وسمَّى كورتس قلعته: فيرا كروز (Veracruz)، وتعني بالإسبانية الصليب الحقّ[11]. لكن بعض جنود الحملة الذين كان لهم ولاء لحاكم كوبا، ثاروا على كورتس لأنَّه يتصرَّف كقائد يقوم بمَهمَّة عسكرية، وهو ما لم يفوِّضه فيه قائده فيلاسكيز، وعندها قام كورتس بتخريب سفن الحملة حتى لا يفكِّر المتمرِّدون في الرجوع إلى كوبا، وبذلك أجبرهم على البقاء معه في المكسيك والمشاركة في الحرب[12]. كتب كورتس في رسالته إلى ملك إسبانيا، شارحاً ما فعله عندما تمرَّد جنوده:

> **"... لاعتقادي بأنَّ السفن إذا بقيت هناك فإنَّ ثورة ستنشب، وأنَّه بمجرَّد إقلاع الراغبين في الرجوع فإنَّني سأبقى وحيداً، وأنَّ كل ما تحقَّق، باسم الله وباسمكم، سيكون عرضة للزوال؛ ابتكرت خطة أعلنتُ بموجبها عدم صلاحية السفن للإبحار وقمت بدفعها إلى الأرض (grounded them)، ففقدوا كل أمل في الهرب، وتقدَّمتُ آمناً، غير خائف من أن يتخلَّى عني الذين تركتهم خلفي"[13].**

10 حول علاقة تاريخ إسبانيا الحديثة وبلاد غرب أوروبا بتاريخ الأندلس، بعد خروج مسلميها منها، انظر:
Fuchs, Barbara; *Mimesis and Empire: the new world, Islam, And European Identities,* (Cambridge, Cambridge University press, 2001).

11 Prescott, William H.: *History of the Conquest of Mexico, Vol 1,* (Paris, Baudry's European Library, 1844). P. 332.

12 Diaz, P. 130.

13 Cortés, p. 52.

في ترجمة إنجليزية أخرى لرسائله، كتب كورتس عن سفنه أنَّه أعطبها وتركها على الساحل[14]. وتضيف نصوص إسبانية أخرى، منها ما كتبه سرفانتس سالازار في سنة 1546م، أنَّ كورتس أحرق سفنه. وبعده بسنوات كتب المؤرِّخ خوسيه أكوستا أيضاً أنَّ كورتس قام بعمل بطولي نادر وأحرق سفنه، وأغلق المنافذ على نفسه وسط أعدائه، واضعاً جيشه أمام خيارين: إمّا النصر أو الموت[15]. وأورد برنال دياز، وهو أحد الإسبان الذين شاركوا في حملة الفتح والمُحارِب الوحيد الذي كتب عنها كتاباً، أنَّ كورتس بعد أن دمَّر السفن خطب في جنوده قائلاً:

"إنَّنا قليلو العدد، وليس لنا أن ننتظر أملاً ولا عوناً إلا من الله، فلا سفن لنا يمكن أن تعيدنا إلى كوبا، ولا مفرّ لنا من أن نعتمد على سيوفنا وصلابة قلوبنا"[16].

يقول دياز إنَّ الجنود المتمرِّدين تخلَّوا عن الرجوع إلى كوبا بعد سماع تلك الخطبة، وقويت عزيمتهم على التوجُّه إلى عاصمة المكسيك وتحقيق الفتح، ويقول غُمارا الشيء نفسه.

من جهتها، تقول النصوص العربية إنَّ حملة فتح الأندلس سارت بنفس هذه الخطوات. فبعد أن نزل طارق ساحل الأندلس جمعَ قواته على سفح جبلٍ فيه سُمِّي فيما بعد "جبل طارق"، وبنى قلعة قرب الجبل لحماية قواته من خطر جيش المملكة، وسمَّى تلك القلعة "سور العرب"[17]. وهنا تقول القصَّة إنَّ بعض جنود جيش طارق تمرَّدوا عليه، وكانوا من العرب الموالين للحاكم موسى بن

14 Charles J. Folsom; *The Dispatches of Hernando Cortés,* (New York, Wiley and Putnam, 1843). p. 41.

15 De Acosta, Joseph. *The Natural & Moral History of the Indies: Vol II, the moral History,* (London: The Hakluyt Society, 1880). P. 520.

16 Diaz, p. 131.

17 ابن عذاري المراكشي: **البيان...**، ص 9.

نُصير، لأنَّ طارقاً تصرَّف دون تفويضٍ من موسى، قائده المباشر، واعتقد بعضهم أنَّه قد يتركهم بالأندلس بين الأعداء ويعود إلى المغرب، فلم يأمنوه. وليتجنَّب طارق رجوع المتمرِّدين من أنصار موسى؛ حرق كل سفن الحملة[18]. أورد ذلك عدد من المؤرِّخين، منهم ابن حبيب الذي ذكر أنَّ رسولاً أتى رودريك ملك القوط ونقل له خبر نزول المسلمين بساحل الأندلس، فقال محذِّراً:

> **"قد جاءك منهم من لا يريد إلا الموت أو إصابة ما تحت قدميك، قد حرقوا مراكبهم إياساً لأنفسهم من التعلُّق بها، وصُفُّوا في السهل موطِّنين أنفسهم على الثبات إذ ليس لهم في أرضنا مكان مهرب"[19].**

وأورد الإدريسي خبر حرق السفن بلفظٍ آخر في سياق التعريف بجبل طارق، حيث كتب:

> **"وإنَّما سُمِّي بجبل طارق لأنَّ طارق بن عبد الله بن ونموا الزناتي لما جاز بمن معه من البرابر وتحصَّنوا بالجبل، أحسَّ في نفسه أنَّ العرب لا تثق به، فأراد أن يزيح ذلك عنه فأمر بإحراق المراكب التي جاز عليها، فتبرّأ بذلك عما اتُّهِم به"[20].**

وذكر حادثة الحرق عددٌ من المؤرِّخين الآخرين، منهم ابن الكردبوس وابن الكلبي والحِميري[21]. وتقول المصادر العربية إنَّ طارقاً بعد أن حرق السفن

---

18 يقول عبد الحليم عويس: إنَّ القول بحرق طارق لسفنه لم يرد عند مؤرِّخي الفترة الأولى، أي ابن القوطيَّة وصاحب الأخبار المجموعة وابن عبد الحكم، وهو يظهر فقط عند الإدريسي:
عبد الحليم عويس: **قضية إحراق طارق بن زياد للسفن بين الأسطورة والتاريخ**، (القاهرة: دار الصحوة للنشر، 1987). ص 7.

19 المقري: **نفح ...**، ص 258.

20 الإدريسي (محمد بن محمَّد بن عبد الله، ت: 559هـ/1165م): **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ج 2** (القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، 2002). ص 540. وقد اختلف المؤرِّخون في بقية اسم طارق، فالغالبية تقول "بن زياد" بينما يقول الإدريسي "ابن عبد الله بن ونموا"، ويقول ابن بشكوال "ابن عمرو". انظر: المقري: **نفح ...**، ص 230.

21 انظر: الحميري: **صفة...**، ص 75.

خطب في جنوده خُطبة بليغة حثَّهم فيها على مواجهة الجيش الأندلسي واضعاً إيَّاهم أمام خيارين فقط: إمَّا النصر أو الموت. فقال:

"أيها الناس، أين المفر؟ البحر من ورائكم، والعدو أمامكم، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر [...] ولا وزَرَ لكم إلا سيوفكم، ولا أقوات إلا ما تستخلصونه من أيدي عدوكم..."[22].

يقول المُقرِّي، إنَّ المتمرِّدين بعد أن سمعوا خُطبة طارق تخلَّوا عن الرجوع وقالوا له "إنَّا معك وبين يديك"، فقويت عزيمة الجيش وسار لمواجهة ملك الأندلس[23].

لقد لاحظ عدد من المؤرِّخين العرب الحديثين تشابه حادثتَي حرق السفن عند كل من طارق وكورتس، لكنهم لم يلاحظوا تشابه بقية العناصر، ومنها الخُطبة التي تكاد أن تكرِّر نفس المضمون، خاصة إشارة كورتس إلى أنَّه لا شيء يُعتَمد عليه لتحقيق النجاة إلا السيوف والشجاعة، وهو نفس ما قاله طارق، ومنها أيضاً تشابُه رد فعل متمرِّدي الجيشين[24].

هنا تُحاكي نصوص مؤرِّخي فتح المكسيك نصوص فتح الأندلس محاكاة تامة. ففي القصَّتَين يبدأ الغزاة بمجرَّد وصولهم بناء قلعة قرب جبل على ساحل المملكة التي يغزونها، فيتمرَّد على القائد بعض جنود الحملة الموالين للحاكم، ويفكر القائد في عمل شجاع يتضمَّن مخاطرة عظيمة، فيقوم بتخريب

---

22 المقري: **نفح** ...، ص 241. وأيضاً: ابن حبيب: **التاريخ**، ص 144.

23 المرجع السابق، ص 242.

24 من الكتب العربية التي أشارت إلى تشابه حرق السفن عند كورتس وطارق:عبد الحليم عويس: **احراق طارق بن زياد للسفن: أسطورة ... لا تاريخ**، (القاهرة: دار الصحوة، 1995). ص 19. ومحمد عبد الله عنان: **دولة الإسلام في الأندلس: من الفتح إلى عهد الناصر** (القاهرة: مكتبة الخانجي، 1988). ص 49. وذكر عويس أنَّ أحمد مختار العبادي أيضاً أشار إلى تطابق الحادثتين، وكذلك محمود علي مكي، الذي لم أعثر على نصه الذي يتضمن إشارته المذكورة. وهذه النصوص تقف عند حادثة الحرق دون أن تلاحظ أنَّ تطابق العنصر المفرد لا يعني شيئاً، لأنَّه يظهر في روايات التاريخ العربي المختلفة، وأنَّ المهم هو تكامل وظائف عناصر عدة ضمن ما سميناه "الثيمة العنقودية".

السفن. وتقول نصوص بعض مؤرِّخي القصَّتين إنَّه حرقها، فييأس المتمرِّدون من إمكانيَّة الرجوع، ثم يخطب فيهم القائد لرفع روحهم المعنوية مبيِّناً أنَّه لم يعد أمامهم سبيل إلى النجاة سوى النصر، ويدفعهم إلى التمسُّك بقتال العدو، فيتوحَّدون ويسيرون إلى عاصمة المملكة عازمين على تحقيق الفتح.

بعد أن تمكَّن كورتس من القضاء على التمرُّد وأعاد توحيد قواته، بدأ الإسبان التوغُّل في أرض المكسيك. وجمعوا أعداداً كبيرة من الحلفاء، أبرزهم قبائل سمبوالا التي كانت تتعرَّض لظلم مستمر من ملك المكسيك موكتِزوما (Moctezuma)[25]. وفي البداية دخل كورتس في حرب معهم استمرَّت ثلاثة أيام متَّصلة، وبجنوده الذين لا يتجاوزون الخمسمئة، إضافة إلى أربعمئة من أصدقائه السمبوالا، حارب مئة وخمسين ألف جندي من قبائل تلاكسكالا، وحسب رسالته إلى ملك إسبانيا، قال إنَّه انتصر عليهم دون أن يخسر جندياً واحداً. وبعد هزيمتها أخبرته قبائل تلاكسكالا أنَّها ستتحالف معه لأنَّها تتعرَّض دائماً إلى ظلم موكتِزوما ملك المكسيك. ويؤكِّد المؤرِّخون الإسبان أنَّ هؤلاء الحلفاء من القبائل ذات الإثنيات المختلفة، لعبوا دوراً حاسماً في فتح المكسيك.

من جانبها، أوردت نصوص فتح الأندلس أيضاً أنَّ طارقاً بدأ الفتح بهزيمة بعض المجموعات الأندلسية قرب الساحل، ثم انضمَّت إليه مجموعات مختلفة من السكان المحليِّين الذين كانوا يتعرَّضون لظلم رودريك ملك القوط، الذي كان يحكم الأندلس وقت نزول المسلمين بها[26]. يقول مؤرِّخ عربي "إنَّ لذريق لما استوثق مُلك الأندلس أفسدَ سنن من تقدَّمه مِن الملوك، وبدَّل سيرتهم وجارَ

---

25 في النصوص الغربية يُكتَب اسم هذا الملك بطرق متعددة، فهو أحياناً "موتكزوما" (Moteczuma) وأحياناً أخرى "مونتزوما" (Montezuma)، وهو أيضاً "موكتزوما" (Moctezuma). وهذا الكتاب يأخذ بهذه الصيغة الأخيرة؛ لأنَّها هي المستخدمة عند أهل المكسيك.

26 كان حكام الأندلس آنذاك من الفيزيقوط (Visigoth)، ;قد سماهم المؤرِّخون المسلمون "القوط"، ورغم عدم صحته فهو اللفظ الذي سيستخدم هنا، بما أنَّ النصوص التي نقلت قصَّة فتح الأندلس هي النصوص العربية.

وعسَفَ"[27]. وقد تركَّز ظُلم القوط على يهود الأندلس، وحيثما فُتِحت مدينة أندلسية كان المسلمون يتركون لليهود إدارة شؤونها بجانب بعض المسلمين. ووصف أحد المؤرِّخين ما كان يقوم به المسلمون عقب فتحهم مدن الأندلس بأنَّهم: "كانوا إذا ألفوا اليهود ببلدة ضمُّوهم إلى مدينة البلد، وتركوا معهم من المسلمين طائفة"[28].

لحق التاجر يوليان حاكم مدينة سبتة بحلفاء طارق ومعه جيش كبير. ويقول عن ذلك أحد مؤرِّخي الأندلس: "فتوافى المسلمون بالأندلس عند طارق اثنا عشر ألفاً وقد أصابوا سبياً كثيراً ورفيعاً، ومعهم يُليان في جماعة من أهل البلد يدلهم على العورات ويتحسَّس لهم الأخبار"[29]. أما المؤرِّخ ابن القوطيَّة فقد أضاف إلى حلفاء طارق جنوداً موالين لآل غيطشة، وقال عنهم "فلما أصبحوا انحاشوا بمن معهم إلى طارق فكانوا سبب الفتح"[30]. وآل غيطشة هم أبناء الملك الذي استولى رودريك على مُلكه، ولهذا تحالفوا مع طارق ضد رودريك[31]. ويقول الحميري: "فلما التقى الجمعان انحاز هذان الغلامان إلى طارق، فكان ذلك سبب الفتح"[32].

---

27 مؤلف مجهول: **ذِكر بلاد الأندلس**، تحقيق وترجمة لويس مولينا، (مدريد: المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، 1983). ص 93. .

28 مؤلف مجهول: **أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمراءها رحمهم الله والحروب الواقعة بها بينهم**، (مجريط،: مطبعة ربندنير، 1867م). ص 12.

29 مؤلف مجهول: **تاريخ الأندلس**، تحقيق عبد القادر بوباية (بيروت: دار الكتب العلمية، 2007). ص 151.

30 ابن القوطيَّة (أبو بكر محمَّد بن عمر، ت. 367): **تاريخ افتتاح الأندلس**، تحقيق محمَّد الأبياري (القاهرة: دار الكتاب، بيروت: دار الكتاب اللبناني، 1988). ص 30.

31 تسمِّي بعض النصوص العربية هذا الملك "وتيزا"، وتعطيه بعض النصوص العربية اسماً ثالثاً هو "وقلة"، وتورده النصوص الإسبانية باسم أشيلا أو أخيلا. ويختلف المؤرِّخون العرب في عدد أبنائه، فبعضهم يقول إنَّهم ثلاثة وبعضهم يقول إنَّهم اثنان. انظر: السيد عبد العزيز سالم: تاريخ...، ص 67.

32 الحميري: **صفة...**، ص 10.

في هذه المرحلة التي تمهِّد لوقوع الفتح، لا يُقتصر التشابه بين القصَّتين على تماثُل سلوك الحلفاء الذين كانوا يعانون من الظلم، وهم التلاكسكالا في المكسيك واليهود في الأندلس؛ فهناك نصيرٌ ثانٍ يَنسب له المؤرِّخون الإسبان دوراً حاسماً في فتح المكسيك، لا يقلّ دوره عن المجموعات الإثنية التي تحالفت مع الغزاة، وهي امرأة مكسيكية على قدر كبير من الجمال والذكاء لا تذكر النصوص اسمها المكسيكي، ويسميها المؤرِّخون الإسبان مارينا. ولمعرفتها بلغة شعب المكسيك ولغة شعب المايا؛ عملت مارينا مترجمة للإسبان وجمعت لهم المعلومات المُهمَّة، بالتجسُّس على شعبها. وساهمت أيضاً في تأكيد اعتقادٍ ساد بين المكسيكيين مضمونه أنَّ الإسبان يملكون قُدرات تفوق قُدرات البشر، وبهذا كانت مارينا ضمن القوى الحليفة الأساسية التي أعانت الإسبان على تحقيق الفتح[33].

تقول المصادر الإسبانية إنَّ هذه المرأة كانت في طفولتها ابنة حاكم مقاطعة كبيرة توفِّي وهي صغيرة جداً، فتعلَّقت أمها بحاكم مقاطعة أخرى تزوَّجها وأنجب منها ولداً، وحكما المقاطعتين معاً. وطلب الزوج من أم مارينا أن تتخلَّص من ابنتها حتى لا تُنازِع ولدهما حكم مقاطعة أبيها؛ فأشاعا أنَّها ماتت ودُفنت ليلاً، لكنهما في الحقيقة كانا قد منحاها لسكَّان منطقة بعيدة بدعوى أنَّها ابنةُ عبدٍ لهما مات وتركها وحيدة. نشأت الطفلة في بيت زعيم تلك الأرض البعيدة إلى أن وصلها الإسبان وتحالفت القبيلة معهم، فقدَّمها ذلك الزعيم إلى كورتس ليوطد علاقته بالإسبان. ولجمال الفتاة وذكائها، وشخصيتها القوية، وإلمامها بلغات المنطقة، صارت مترجمة ومستشارة لكورتس، ثم تطورت العلاقة بينهما فاتَّخذها عشيقة. وبعد أن أنجب منها ولداً، زوَّجها لقائد في الحملة اسمه خوان خاراميُّو (Juan Jaramillo)، فبقيت معه حتى بعد الفتح[34]. ولمعرفتها بالبلد

33 Prescott, vol. 1, P. 395.

34 Diaz, P. 85.

وأهله لم تكتفِ مارينا بمَهمَّة الترجمة، فكانت تجمع للإسبان المعلومات عن حركة المكسيكيين، وتُشارِك في تعديل خطط الإسبان الحربية، فصارت جزءاً من حملة الغزو. هكذا أورد برنال دياز قصَّة مارينا، وأوردها برسكوت بطريقة قريبة مما نُقِل هنا عن دياز[35]، أما غُمارا فيقول إنَّ والد مارينا كان تاجراً كبيراً في المكسيك، وليس حاكماً[36]. وقد سارت بعض نصوص القرن الثامن عشر والتاسع عشر على قوله هذا[37].

تُجمِعُ النصوص العربية أيضاً على أنَّ امرأة جميلة من نساء الأندلس ساهمت في ترجيح كفَّة الصراع لصالح المسلمين وتحقيق الفتح. ويقولون إنَّها ابنة يوليان حاكم مدينة سبتة، التي تعرَّضت للاغتصاب بواسطة رودريك ملك الأندلس، وحين علم بذلك أبوها تحالف مع طارق وساعده على غزو الأندلس. كتب ابن عبد الحكم عن ذلك:

"... كان يُليان يؤدي الطاعة إلى لذريق [رودريك] صاحب الأندلس، وكان لذريق يسكن طليطلة فراسل طارق يُليان ولاطفه حتى تهاديا، وكان يُليان قد بعث بابنة له إلى لذريق صاحب الأندلس ليؤدِّبها ويعلِّمها فأحبلَها، فبلغ ذلك يُليان فقال لا أرى له عقوبة ولا مكافأة إلَّا أن أُدخِل عليه العرب..."[38].

حسب رواية ابن عبد الحكم، ويوافقه عليها كل مؤرِّخي فتح الأندلس تقريباً، دعا يوليان طارقاً إلى غزو الأندلس، وحارب بقواته إلى جانبه. وحين تحقَّق الفتح، تزوَّجت ابنتُه من أحد قادة جيش المسلمين.

---

35 Prescott; vol. 1, p. 293.

36 Gómara, p. 57.

37 Campe, J. H; *Cortez, or the Conquest of Mexico*, (London: C. Cradock and W, Joy, 1811). P. 45.

38 Ibn Abd-El-Hakam : *History of the Conquest of Spain*, (Gottenberg, London: John Harris Jones, 1858). P. 2..

في القصَّتين توجد ثلاثة عناصر متماثلة في ما يمكن تسميته: ثيمة المرأة الخائنة، أولها: إنَّ المرأتين من أصل مَلكي نبيل تعرَّضتا لظلم وقع عليهما من حكَّام المملكتين اللتين عاشتا فيهما، فابنة يوليان اعتدى على شرفها ملك القوط رودريك، أما مارينا فاعتدى على حقِّها في الحكم ملكٌ مكسيكي تزوَّج بأمِّها. وثانيها أنَّ المرأتين شكَّلتا قوة داعمة للغزاة وصارتا سبب نجاح الفتحَين وتمكين الغزاة من بلدَيْهما، ففي الأندلس تسبَّبت ابنة يوليان في انحياز أبيها إلى صفوف الفاتحين بجيشه ووفَّر للمسلمين المترجمين والجواسيس. وفي المكسيك قامت مارينا باستقطاب الحلفاء للإسبان ولعبت أيضاً دور المترجم والجاسوس. وثالث التشابهات أنَّ المرأتين أصبحتا زوجتين لقائدين في جيش الغزاة، فمارينا تزوجت القائد الإسباني خاراميّو، وابنة يوليان تزوَّجت قائداً مسلماً لا تذكر النصوص اسمه.

هكذا، لعبت المرأتان دوراً واحداً في قصَّتين حدثتا في مكانين يبعدان كثيراً عن بعضهما وزمانين تفصل بينهما فترة طويلة جداً. وبسبب هذا التماثل في الأدوار، لقيت المرأتان مصيراً واحداً في تاريخَي بلديهما، فقد صارت ابنة يوليان في الذاكرة الجماعية للإسبان رمزاً لخيانة الوطن وسُمِّيت: العاهرة، واستخدَمَ لها الإسبان اللفظ العربي المهين (القَحبَة)، وكتبوه (La Caba)[39]. وذكر مؤرِّخ أنَّ الباب الذي خرجت منه ابنة يوليان من مدينة مالقا، تاركة الأندلس وراءها ومتوجِّهة إلى مدينة سبتة، سُمِّي "باب القحبة" (Puerta de la Cava)[40]. ومن جهة أخرى، يقول مؤرِّخون إسبان إنَّ المكسيكيين أطلقوا على مارينا الوصف العربي المُهين ذاته (القحبة)، وكتبوه أيضاً (La Cava). ولأنَّ المكسيكيين لا

39 كان المؤرِّخ الإسباني ميغويل لونا (Miguel de Luna) هو الذي ردّ اللفظ الإسباني إلى الأصل العربي. انظر: السيد عبد العزيز سالم: **تاريخ...**، ص 68.

40 Irwing, Washington: *Legends of the Conquest of Spain,* (London: John Murray, 1886). P. 77.

صلة لهم باللغة العربية، فإنَّ استخدامهم للفظ العربي، يؤكِّد أنَّهم تلقَّوا الاسم عن قصَّة فتح الأندلس بوساطة التاريخ الإسباني[41].

الشيء الذي يرجِّح أنَّ قصَّة خائنة المكسيك وثيقة الصلة بخائنة الأندلس؛ هو أنَّ قصص الجميلات الخائنات شاعت في الأندلس منذ وقت مبكِّر، واستمرَّت متداولة في ثقافات جماعاتها المختلفة، ليس لدى مسلمِيها ومسيحيِّيها وحدهم وإنَّما لدى جماعات أخرى أيضاً، فقد كان ليهود الأندلس (قحبة) تخصهم أورد قصَّتها مؤرِّخون إسبان في وقت ليس بعيداً من وقت فتح المكسيك. وبطلة هذه القصَّة ابنة تاجر أيضاً، وزعيم له مكانة كبيرة بين يهود إسبانيا الذين عُرفوا باسم (المارانوس) (Marranos)، اسمه دييغو. وتُروى القصَّة مختصرة على النحو التالي:

في اليوم السابع عشر من سبتمبر سنة 1480م، أقرَّت السلطات الإسبانية إنشاء محكمة تفتيش في مدينة إشبيلية لمحاكمة اليهود والمسلمين الذين يُشتبه في أنَّهم يشكِّلون خطراً على المسيحيين. وقرَّر اليهود مقاومة إنشاء المحكمة، فانضمَّ دييغو إلى مجموعة تُخطِّط لإشعال الثورة في مدينة إشبيلية ومعه يهود آخرون كانوا يتظاهرون باعتناق المسيحية، وبدأوا يدبِّرون مؤامرة في كنيسة "سان سلفادور" بإشبيلية. ولكن، حسب قول الرواة:

"في اللحظة الأخيرة تم إفشاء السر، فقد كان لدييغو ابنة تلقَّب (سوزانا)، أتاح لها جمالها النادر أن تُعرَف في إشبيلية كلها باسم المرأة الجميلة،

41 في القرن التاسع عشر أوضح المؤرِّخ الإسباني خوان أنطونيو كوندى أنَّ قصَّة (القحبة) وردت في كتاب "التاريخ العام" الذي وضعه مؤرِّخون إسبان في القرن الثالث عشر بتكليف من الملك ألفونسو العاشر (1252-1284م)، المعروف بألفونسو الحكيم (Alfonso the Wise). وهو كتاب جمع فيه ألفونسو ما ورد في كتب التاريخ العربية عن غزو الأندلس، وأضاف إليها نصوص أخرى. وذكر كوندى أنَّ القصَّة متداولة في الشعر الشعبي العربي الأندلسي (الأراجيز) والشعر الشعبي لدى مسيحيي الأندلس (ballads). انظر:

Condé, Juan Antonio: *History* ..., p. 51.

وكان لها علاقة مع شاب مسيحي أفضت له في لحظة ضعف عاطفي بالسرِّ. فأُجرِيت سلسلة اعتقالات وأُدِين كثيرون بالإعدام"[42].

وكان من بين الذين أُعدِموا دييغو نفسه، والد سوزانا الجميلة. وبعد أن كانت الفتاة ذات مكانة رفيعة بين قومها انتهت عقب خيانتها لهم إلى عاهرة قضت حياتها تتنقَّل من رجل إلى آخر، إلى أن تُوفيت في بيت رجل بأحد الأحياء الفقيرة.

كما في قصَّتَي ابنة يوليان ومارينا، وظَّف اليهود خيانة سوزانا لتفسير الاضطهاد الذي تعرَّضوا له على يد مسيحيِّي إسبانيا. وفي القصص الثلاث تُتَّهم امرأة جميلة بخيانة الجماعة التي تنتمي إليها وبالفساد الخُلقي، وتصبح مسؤولة عن الدمار الذي يلقاه شعبها على يد الأعداء، وتنتهي كل منهن إلى أن تُلقَّب بالعاهرة. وكون أنَّ القصَّة ترِد عند ثلاث جماعات مختلفة، لها ديانات مختلفة، ويجمع بينها فقط أنَّها عاشت مع بعضها في الأندلس، ففي هذا ما يؤكِّد أنَّ قصَّة مارينا "خائنة المكسيك" لها صلة وثيقة بالتقاليد التاريخية للجماعات الأندلسية التي شكَّلت الثقافة العربية القاسم المشترك الأكبر بين تراثاتها باختلاف دياناتها، المسيحية واليهودية والإسلامية.

ملخَّص ما سبق إيراده عن حلفاء الإسبان في فتح المكسيك، أنَّهم فئتان تعرَّضتا إلى نوعين من الظلم، مارسه عليهم حكام المكسيك الذين لم يكونوا من أهلها الأصليين. الأول: ظلم جماعي وقع على مجموعات إثنية، أبرزها التلاكسكالا، والثاني: ظلم شخصي وقع على فتاة جميلة، هي مارينا، التي اغتُصِب مُلكها. وبالمقابل، يوجد في فتح الأندلس أيضاً حلفاء يؤدُّون هذين الدورين. فالمجموعة الإثنية هي اليهود الذين تعرَّضوا إلى ظلم ملوك القوط،

42 Roth,Cecil: *Spanish Inquisition,* (New York: The Norton Library, 1964). pp. 46-47.

والفتاة الجميلة التي تعرَّضت إلى ظلم شخصي هي ابنة يوليان، التي اغتصَبَ شرفها الملك رودريك[43].

إلى جانب الجماعات الحليفة والمرأة الخائنة، تُعطي قصَّة فتح المكسيك دوراً مؤثراً إلى نوع ثالث من المواطنين، أدَّوا دوراً مُهمَّاً في تزويد الغزاة بالمعلومات. وهؤلاء يصعب تصنيفهم ضمن الحلفاء؛ لأنَّهم أُجبِروا على أداء ذلك الدور ولم يتطوَّعوا بأدائه، وهم الذين كان الإسبان يقبضون عليهم ليحصلوا منهم على معلومات حول عناصر قوة وضعف المكسيكيين. وفي قصَّة فتح الأندلس تُحدِّثنا النصوص العربية عن مواطنين أدّوا هذا الدور بالطريقة نفسها، سماهم المؤرِّخون "الأدِلّاء". ويعتبر الأدلاء من العناصر المُهمَّة في كثير من قصص الفتوحات في التاريخ العربي، لأنَّهم يشكِّلون مصدراً للمعلومات عن قوة العدو ونقاط ضعفه وتحصينات المدن والمناطق المُراد مهاجمتها. ومن ذلك ما فعله المسلمون في الأندلس حين توجَّهوا إلى حصار قرطبة، فكان أول ما فعله القائد مغيث الرومي، الذي وجَّهه طارق إلى حصارها، أنَّه "بعث من معه من أدلَّائه فاقتنصوا له راعي غنم فأوردوه عليه..."، وترجم الأدِلَّاء لمغيث أقوال الراعي، بعد أن طلب منه مغيث أن يدلَّه على حال الحصن، فأفاده الراعي بعدد الجنود ومتانة سور الحصن، ودلّه على ثغرة في السور يمكن الدخول منها إليه[44].

تتضمَّن نصوص فتح المكسيك أحداثاً مماثلة كثيرة، فيها يقبض كورتس على بعض مواطني المكسيك قبل أن يشنَّ هجومه ويتلقَّى منهم المعلومات عن قوة أعدائه. ومن الواضح أنَّه كان لمعظم الغزاة الإسبان معرفة مسبقة بتقليد القبض على موطني البلد المراد غزوه، والاستدلال بهم على مواطن ضعفه.

43 لم تورد النصوص العربية اسم ابنة يوليان، أما النصوص الإسبانية فتذكر أنَّ اسمها "فلورندا".

44 مجهول المؤلف: **أخبار ...**، ص 21.

ويبيِّن تاريخ فتح الأندلس أنَّ هذا التقليد الحربي قديم في الثقافة الإيبيريَّة قِدم بقية عناصر قصَّة الفتح، وهو يظهر منذ وقت مبكِّر مع من سُمُّوا مكتشفين، سواء لدى الإسبان أو البرتغاليين[45].

تمضي قصَّة فتح المكسيك لتقول إنَّه في أثناء جمع الإسبان للحلفاء وتوغُّلهم في أرض المكسيك، بدأوا يستفسرون عن تاريخ شعبها، فعلموا من رواياتهم الشفاهية أنَّه عاش بينهم في الزمان القديم جماعة من العمالقة، حاربهم أسلافهم وقضوا عليهم. وقد نقل برنال دياز عن الروايات الشفاهية للمكسيكيين ما يلي:

> **"قالوا إنَّ أسلافهم أخبروهم بأنَّ رجالاً ونساءً طوالاً جداً ولهم هياكل ضخمة عاشوا بينهم في زمان سابق، ولكن لأنَّهم كانوا سيِّئين ولهم عادات رديئة فقد حاربوهم وقتلوهم، ومن بقي منهم مات واندثر. وليُعلمونا بوجود أولئك العمالقة، أحضروا لنا عظم ساق أحدهم، فكان سميكاً جداً، وفي طول رجل عادي، وكان عظم فخذ من الجذع إلى الركبة، وقمت بقياسه على نفسي فكان بطولي، مع أنَّ طولي في الحد المعقول... لقد دُهشنا جميعاً عند رؤية تلك العظام وتأكَّدنا أنَّ العمالقة عاشوا في هذه الأرض"[46].**

حول التاريخ القديم للمكسيك أوردت نصوص الفتح حكاية أخرى تداولها المكسيكيون تقول: إنَّ قوماً عمالقة عاشوا في الماضي على أرض المكسيك وأسَّسوا حضارتها، يقول دوران: "لا يمكن إنكار، ولا أستطيع أن أُنكر، وجود عمالقة في هذا البلد ويمكنني تأكيد ذلك لأنَّني رأيتهم، لقد التقيت هنا رجالاً

---

45 يرى ماثيو رستال أنَّ القبض على الأدلاء كان سلوكاً تقليدياً للغزاة الإسبان في أميركا، ويقول إنَّه قبل كورتس قبض كولمبوس على ستة مواطنين في رحلته الأولى، وأخذهم إلى إسبانيا ليتعلموا الإسبانية ثم أعيدوا ليعملوا مترجمين ومخبرين للإسبان في أميركا، فمات خمسة منهم في إسبانيا، ورجع اثنان مع كولمبوس في رحلته الثانية. وبعد كولمبوس كرّر هرنانديز القرطبي في رحلته الاستكشافية للمكسيك نفس السلوك، فقبض على اثنين من المواطنين في سنة 1517م. انظر: Restall, Matthew; *Seven* ..., P. 24

46 Diaz, p. 181

لهم أجسام هائلة"[47]. ويقول مؤرِّخون آخرون إنَّ أولئك العمالقة الذين كانوا قد نزلوا أرض مملكة المكسيك هجروها بعد ذلك بسبب موجة جفاف شديد أجدبت أرضها وأصابت مواطنيها بالأمراض، فرجعوا إلى المكان الذي كانوا قد جاءوا منه[48].

تُورد النصوص العربية معلومات مماثلة عن تاريخ مواطني الأندلس، وتقول: إنَّ قوماً عمالقة نزلوها في زمن قديم، وأسَّسوا حضارتها وعلَّموا شعبها الزراعة وفنون العمارة. ويشير المؤرِّخون الأندلسيون إلى أنَّ المدن الأندلسية الكبيرة أنشأها غزاةٌ قدماء جاءوا من سواحل إفريقيا، فالحميري يقول عن طليطلة إنَّها "مدينة أوَّليَّة من بناء العمالقة"[49]. ويؤكِّد آخرون أنَّه أصاب بلاد الأفارقة قحط في زمن قديم، وتسبَّب ذلك في أن يعبرَ بعضهم البحر الأبيض المتوسِّط متَّجهين إلى ناحية الشمال حتى نزلوا ساحل "إفرنجة"، فعرف ملكها خبرهم ووجَّههم إلى الأندلس فنزلوها وبنوا بعض مدنها، وكانوا أول من عمَّرَها[50]. وأشارت نصوص عربية إلى أدلَّة أثرية تؤكِّد أنَّ قوماً من العمالقة كانوا قد عاشوا في الأندلس قبل وصول المسلمين، وكتب أحد المؤرخين أنَّه وُجد في غار بمدينة لوشة الأندلسية هياكل عظميَّة لأربعة عمالقة طول الواحد منهم اثنا عشر شبراً[51].

الخلاصة، أنَّه في نهاية هذه المرحلة من المقارنة بين قصَّتي فتح أميركا وفتح الأندلس تنزل أرض المملكة أُمّة قادمة من مكان بعيد تنتمي أصولها إلى

---

47 Duran, p. 9.

48 Chevaller, Michel; *Mexico: Before and After the Conquest,* (Philadelphia: Carey and Hart, 1846). P. 51.

49 الحميري: **صفة...**، ص 130.

50 مؤلف مجهول: **تاريخ ...**، ص 141.

51 المرجع السابق، ص 68. وفي نسخة لويس مولينا: ص 25.

جنس العمالقة، فتساهم في تأسيس حضارة البلد وتعمِّر أرضه ثم ترحل عنه، أو تُباد بحرب يقودها بعض المواطنين ضدها، وتبقى آثارها في أرض المملكة[52].

عُولِجت في هذا الفصل عناصر المرحلة الأولى من قصَّة فتح المكسيك التي بدأت بإعداد حملة الغزو، وانتهت بوصولها إلى المملكة واستقطاب الحلفاء. وفيه قورنت سبعة عناصر أساسية في القصَّتين، هي: إقلاع القائد دون إذن الحاكم، وبناء القلعة الساحلية، ثم ظهور التمرُّد وتخريب السفن، وجمع الحلفاء، والمرأة الخائنة، والأدلَّاء، وأخيراً، دور العمالقة في بناء المملكة. وتوصَّل الفصل إلى وجود تماثُل واضح بين هذه المكوِّنات السرديَّة السبعة، التي هي عناصر أساسية في قصَّتي الفتحين، تخدم جميعها وظيفة التهيئة للفتح من خلال حشد قوة الغزاة. ويتابع الفصل التالي المقارنة متناولاً ما جرى في مملكة المكسيك قُبيل وصول الإسبان، وما ظهر من إرهاصات بقرب غزوها.

52 في بعض الروايات التاريخية للفتحين ترتبط حركة مؤسِّسي الحضارة بحدوث قحط. ويأتي الاختلاف في أنَّ القحط في قصَّة فتح الأندلس يكون سبب وصول مؤسسي الحضارة إليها، بينما في قصَّة فتح المكسيك يكون القحط سبب رحيل مؤسسي الحضارة عنها، وهذا الاختلاف في اتجاه الحركتين لا يؤثر على مقدار تماثلهما. إنَّ اختلافات آراء مؤرِّخي الفتحين لا تقلِّل من تماثلاتهما في غالب الأحيان، بل قد تؤكدها؛ فالأحداث التي تختلف حولها النصوص العربية كثيراً ما تختلف حولها النصوص الإسبانية أيضاً، وبهذا يصبح الاختلاف نفسه موضع تشابه بين عمليَّتي التأريخ لأحداث الفتحين، ويدعم تشابههما. فكون أنَّ بعض نصوص فتح الأندلس ذكرت حادثة حرق السفن ولم تذكرها نصوص أخرى، فإنَّ هذا لا يمنع أخذ ثيمة الحرق وجهَ شبهٍ مع قصَّة فتح المكسيك التي اختلفت نصوصها أيضاً حول حادثة حرق كورتس لسفنه، فبعض المؤرِّخين الإسبان يُنكرون الحرق، وبعضهم يثبته. وكما تكرَّرت ثيمة الحرق في النصوص العربية مع قائدَين مسلمَين هما طارق بن زياد وأسد بن الفرات، تكرَّرت الحادثة أيضاً في نصوص فتح أميركا لدى قائدين هما كورتس وغونزالو بادخوز (Gonzalo de Badajoz). ففي غزو الإسبان لنيكاراغوا الذي قاده بادخوز، تمرَّد عليه عدد من الجنود، فدمَّر سفنه ليمنع هروبهم ويجبرهم على البقاء معه. انظر:
Thomas, Hugh; *Conquest: Montezuma, Cortés, and the Fall of Old Mexico,* (New York: Thomas and Schuster, 2005). P. 223.

قُبَيل الغزو: بِشاراتٌ ونُذُر شؤم

منذ اللحظات الأولى لهبوط الإسبان على ساحل المكسيك، تلقَّوا إشارات فسَّروها بأنَّها بشارات نصر. وتورد نصوص مؤرخيهم أنَّه سادت لدى المكسيكيين نبوءة متوارثة من زمن قديم تقول إنَّه سيأتيهم رجال من بلاد بعيدة تقع في الشرق، يغزون مملكتهم ويفتحونها، وإنَّ المكسيكيين اعتقدوا أنَّ الإسبان هم الغزاة المنتظَرون. يقول برنال دياز إنَّ الإسبان حينما نزلوا ساحل المكسيك أخبرهم المواطنون بنبوءة سائدة لدى أسلافهم مضمونها "أنَّ رجالاً ملتحين سيأتون من الجهة التي تشرق منها الشمس، ويحكمون البلاد"[1]. وذكر كورتس في واحد من خطاباته إلى ملك إسبانيا أنَّه عندما التقى بملك المكسيك موكتزوما، جمع الملك رجاله وخاطبهم مذكِّراً بالروايات المنقولة عن أسلافهم، والتي تقول إن الأزتك ليسوا مواطني المملكة الأصليين، وإن لها حاكماً كان قد جاء من جهة الشرق وأسَّس حضارتها في زمن قديم ورجع إلى بلده، لكنه وعد بأنَّه سيعود يوماً، هو أو بعض أبنائه، لاسترداد حكم المملكة. وقد حكى ملك المكسيك موكتزوما قصَّة ذلك الملك القديم لكورتس، حتى ختم بقوله:

"لقد آمنا جميعاً بأنَّ بعضاً من سلالته سيعودون ويفتحون هذه الأرض ويُخضِعوننا، لنكون رعاياهم. ولأنَّك تقول إنك قادم من تلك الجهة، من حيث تشرق الشمس، حيث الملك العظيم الذي أخبرتنا أنَّه أرسلك إلى هنا، نصدِّق بأنَّه هو سيدنا، خاصة أنَّك تقول إنَّه يعرفنا منذ زمن"[2].

---

1 Diaz, p. 35.

2 Cortés, p. 86.

من جانبه، ذكر المؤرِّخ الإسباني أكوستا أنَّه "شاع لدى الهنود اعتقاد بأنَّ أميراً عظيماً غادرهم في الماضي كان قد وعد بأنَّه سيعود"، وأنَّهم ظلّوا زمناً طويلاً يتوقَّعون وصوله[3]. أما وليام برسكوت فيذكر أنَّ المكسيكيين قدّسوا ذلك الملك أو الأمير ورفعوه إلى مكانة الإله، وسمّوه كواتزالكواتل، ويقول إنَّهم تطلَّعوا إلى عودته وتعلَّقوا بها مثلما تعلَّق اليهود بعودة المسيح، فاعتبروه من سيخلِّصهم من جور الحكام[4].

عندما سمع ملك المكسيك بوصول الإسبان بعث بمن يستطلعون أمر الساحل، وينقلون له أخبارهم. وعندما التقى هؤلاء الرسل بكورتس، قائد الحملة الإسبانية، لاحظ أحدهم علامة عليه أكَّدت له أنَّه الفاتح المُنتَظَر، الموصوف في النبوءات القديمة. كانت تلك العلامة خوذة يلبسها كورتس، شبيهة بقُبَّعة الإله كواتزالكواتل التي تركها أسلاف الأزتك علامة على النبوءة القائلة بعودتهم. وحسب قول دياز، فإنَّ أحد رُسل موكتزوما تحدَّث إلى كورتس بشأن الخوذة:

> **"فقال إنه يرغب أن يراها بما أنَّها تشبه واحدة يملكونها تركها لهم أسلاف العرق الذي ينحدرون منه، وأنَّها وُضِعت على رأس إلهِهم هوتشيلبوس [هويتزيلبوشتلي]، وأنَّ ملكهم مونتزوما [موكتزوما] يريد أن يرى تلك الخوذة، فأُعطِيت له"[5].**

عندما رجع الرُسُل إلى قصر موكتزوما أكّدوا له بالأوصاف التي نقلوها عن الإسبان، وبالخوذة التي حملوها معهم، أنَّهم الفاتحون المنتظر وصولهم

---

3 De Acosta, Joseph ; *The Natural* …, Vol. II, p. 514.

4 Prescott,vol. 1, p. 508

5 Diaz, p.91.

وانظر أيضاً:

Diaz, Bernal, The True History of the Conquest of New Spain, in; Schwartz, Stuart (ed.): Victors and Vanquished: Spanish and Nahua Views of the Conquest of Mexico, (U.S.A.: Palgrave Mackmilan, 2000). p. 88.

من سلالة الملك المقدس كواتزالكواتل[6]. هكذا كانت القصَّة المتوارثة حول عودة الحكَّام القدامى من وراء البحر، ونبوءة الأمير الذي سيأتي من الشرق، والعلامة المميزة على رأس كورتس، إشارات يقول المؤرِّخون إنَّها هيَّأت شعب وملك المكسيك للاستسلام للإسبان، والقبول بهم حُكَّاماً دون مقاومة.

على الطرف الآخر، تذكر نصوص فتح الأندلس أنَّ بشارات انتصار المسلمين ظهرت لهم بمجرَّد نزولهم ساحل الأندلس، فقد وجدوا أهلها يتوقَّعون وصول غزاة أفارقة. فكتب المسعودي أنَّ أمر عودة أهل شمال إفريقيا لحكم الأندلس ظل هاجساً يشغل الأندلسيين زمناً طويلاً؛ لأنَّهم بجانب معرفتهم أنَّ أهل شمال إفريقيا هم الذين عمَّروا الأندلس وصنعوا حضارتها، كانوا يعرفون أنَّهم استمرُّوا يغزونها كل فترة من الزمان. ونقل المقرِّي في نفح الطيب نصَّاً نسبَ فيه تعمير الأندلس وإنشاء حضارتها إلى مواطني شمال إفريقيا، وأنَّه بعد ذلك تداول حكمها بنو طوبال، والأندلش (الأندلسيين)، والروم، حتى انتهى أمرها إلى القوط، الذين غزاهم المسلمون[7]. ويضيف المقرِّي:

> **"كان أهل المغرب الأقصى يضرّون بأهل الأندلس، لاتِّصال الأرض، ويلقَون منهم الجهد الجهيد في كل وقت إلى أن اجتاز بهم الأسكندر، فشكوا حالهم إليه"[8].**

ورغم أنَّ الإسكندر حاول منع أهل شمال إفريقيا من غزو الأندلس بأن فصلَ ساحلها عن ساحل المغرب بقناة أوصلت مياه المتوسِّط بمياه الأطلنطي، حسب رواية المقرِّي؛ إلا أنَّ الأندلسيين ظلوا يتوقَّعون عودة الغزاة الأفارقة. وجاء في

---

6 ذكر مونوز كامارغو (Monoz Camrgo) أيضاً، في تاريخه الذي يتضمن روايات نسبها إلى المكسيكيين، إنهم اعتقدوا أنَّ رجالاً تميزهم أغطية على رؤوسهم، سيأتون من الشرق لفتح المكسيك. انظر:

Todorov, Tzventan; *The Morals of History,* (Minneapolis, London: University of Minnesota Press, 1995). P. 19.

7 المقري: **نفح ...**، ص. 224.

8 المرجع السابق، الصفحة السابقة.

تاريخ ابن حبيب أنَّ نبوءات قرب غزو الأفارقة للأندلس كانت شائعة فيها ومتداولة بين مواطنيها منذ زمن قديم، وقد علم بها المسلمون قبيل توجههم إلى الأندلس. يقول ابن حبيب إنَّ طارق بن زياد لقي رجلاً من الروم صاحب معرفة فسأله:

> ”**هل تعرف في علمك من يفتح الأندلس؟ قال: يفتحها معكم قوم، يُقال لهم البربر، وهم على دينكم. فكتب طارق بذلك إلى موسى بن نصير، فحشد البربر وبعث إليه منهم ألف رجل...**“[9].

تواصلت بشارات الفتح عند نزول المسلمين ساحل الأندلس، فالتقى طارق بامرأة من أهل الأندلس، كبيرة السن، نقلت له خبر نبوءة قديمة تناقلها قدماء أهل الأندلس تقول: إنَّ غزاة يأتون من وراء البحر يقودهم أمير سيغزون الأندلس ويحكمونها. يورد الحميري تفاصيل هذا اللقاء بقوله:

> ”**أصاب طارق عجوزاً من أهل الجزيرة، فقالت له: كان لي زوج عالم بالحدثان وكان يُحدِّث عن أمير يدخل بلدنا هذا، ويصفه ضخم الهامة، وأنت كذلك! ومنها أنَّه بكتفه الأيسر شامة عليها شعر، فإن كانت بك هذه الشامة فأنت هو، فكشف طارق ثوبه فإذا بالشامة على كتفه، كما ذكرت العجوز، فاستبشر بذلك هو ومن معه**“[10].

كانت نبوءة الرجل الرومي بأنَّ (البربر) هم الذين سيفتحون الأندلس، والعلامة التي لاحظتها المرأة العجوز على رأس طارق، وهي ضخامة حجمه، دليل على أنَّه هو الأمير الفاتح الذي تشير إليه النبوءة الأندلسية المتوارثة[11].

---

9 ابن حبيب: **التاريخ**،... ص 143.

10 الحميري: **صفة**...، ص 9.

11 ورد في لسان العرب: الهامة أعلى الرأس، ووسط الرأس ومعظمه. انظر:
ابن منظور (أبو الفضل جمل الدين أحمد بن مكرم): **لسان العرب**، ج 15، (بيروت: دار صادر، 2003). ص 112.

وهذا يماثل ما نسبه مؤرِّخو فتح المكسيك إلى أهلها حول أنَّه سادت لديهم نبوءة، قبل وصول الإسبان، تقول: إنَّ غزاة سيأتون لفتح مملكتهم من شمال إفريقيا، من حيث كان قد جاء غزاتها القدماء. وأنَّ علامةً على رأس قائد الغزاة الإسبان، أكَّدت لأهل المكسيك أنَّه الأمير الفاتح، المذكور في النبوءة المتوارثة.

إلى جانب هذه الإشارات التي تجلَّت للإسبان واعتبروها بشائر نصر، ظهرت للمكسيكيين إشارات أخرى فسَّروها بأنَّها علامات شؤم تُنذِر بغزو مملكتهم وخرابها. فالقصَّة تتضمَّن نوعين من العلامات تشكِّلان رسالتين تتوجَّه إحداهما إلى الغزاة مبشِّرةً بنصر قريب، وتتوجَّه الثانية إلى أهل المملكة منذرةً بقرب سقوطها.

قبيل وصول الإسبان، ظهرت للمكسيكيين علامات غريبة أثارت خوفهم. كان أولها، حسبما ذكر المؤرِّخ برناردينو ساهاجون، اشتعال أجسام في السماء بدت كأنَّها تنزف ناراً، ثم اشتعلت حرائق في عدد من المعابد رغم أنَّ اليوم كان ممطراً ولا رعد فيه. وبعدها تدفَّقت حِمم نارية من السماء في النهار، مرّت من جهة الشرق متَّجهة إلى الغرب، فأثارت الرعب في المواطنين[12]. وبعدها هبَّت رياح عنيفة أثارت مياه بحيرة مكسيكو بما يشبه الغليان، فضربت أمواجها المرتفعة كلَّ ناحية من الأرض المحيطة. وأخيراً، شوهد في منطقة تلاكسكالا إعصار عنيف ظل يدور حتى بلغ السماء، رافقه اشتعال ضوء قوي في السماء، من جهة الشرق.

فسَّر المؤرِّخ أكوستا هذه العلامات السماوية التي شاهدها المكسيكيون بأنَّها علامات غضب سماوي تنذر بقرب زوال حكم الملك موكتزوما، لأنَّه كان يضطهد شعبه. وحين علم الملك بظهور تلك العلامات حزن حزناً شديداً،

12 Lochart, James: *We People here: Nahuatl Accounts of the Conquest of Mexico, Repertorium Colimbianum Vol. 1,* (Berkeley and Los Angeles: Univerity of California Press, 1994). pp. 50-54.

وأصابه يأس تسبَّب في اضطراب تصرُّفاته[13]. وأورد المؤرِّخ دييغو دوران، أنَّ الكاهن "زوكوزتلي" شاهد علامة أخرى، هي اندفاع مذنّب هائل من جهة الشرق باتجاه مكسيكو، عاصمة مملكة المكسيك. وفسَّر الكاهن للملك المكسيكي ظهور ذلك المذنَّب بقوله:

"في جميع أراضينا وفي كل مقاطعاتنا ستقع كثير من المآسي والآلام، ولن يبقى شيء على حاله، وسيعم الموت كل الأرض، وسنفقد كل ما نملك، وسيكون ذلك كله بإرادة سيِّد الأعالي، سيِّد النهار والليل والريح، وستكون شاهد هذه الأحداث لأنَّها ستقع في عهدك"[14].

اعتبر هذا الكاهن ما سيقع من خراب قدراً إلهياً أنذرت به السماء. وأكَّد غُمارا أنَّ مواطني المكسيك تنبَّأوا بزوال عرش موكتزوما على يد غزاة غرباء، فكتب:

"وقالوا أيضاً إنَّ موكتزوما سمع نبوءة من آلهته عدة مرات، تقول إنَّ أباطرة المكسيك سينتهون به، ولن يعتلي العرش أحدٌ من أبنائه، وأنَّه سيفقد عرشه بعد ثماني سنوات. لذا، لم يعد راغباً أبداً في محاربة الإسبان، واعتقد أنَّهم سيستولون على عرشه، رغم أنَّه كان يشك أحياناً في ذلك لأنَّه استمر حاكماً سبع عشرة سنة"[15].

في نصوص مؤرِّخي فتح الأندلس أيضاً يظهر هذا النوع من العلامات، حاملاً نُذُر شؤم لأهل المملكة قبل وصول المسلمين بفترة قليلة. وفسَّرها الكهنة الأندلسيون أيضاً بأنَّها علامات غضب سماوي تُنذر بقرب زوال حكم الملك رودريك لأنَّه كان يظلم شعبه. ومن تلك العلامات أنَّه ظهرت للملك أجسام ملتهبة تتساقط من السماء بأشكال مختلفة. فبينما كان واقفاً أمام معبد كبير؛

13 De Acosta, Vol. II, p. 510.

14 Duran, Diego; *History of the Indies of New Spain,* (U. S. A.: University of Oklahoma Press, 1994). p. 462.

15 Gómara, p. 185.

اشتعل برجه فجأة حين حطَّ على قمَّته العالية نسر هائل نزل فجأة من السماء[16]. ثم تساقطت أجسام حارقة من الفضاء وهي تنثر رماداً على الملك وحرسه، فكان الرماد بمجرَّد أن يلامس أجسادهم يتحوَّل إلى ما يشبه بُقَع دماء. وتقول القصَّة: إنَّ كل من ظهرت عليه تلك البُقَع من رجال رودريك وجدوه بين قتلى المعركة التي دارت، لاحقاً، بين جيش الأندلس والغزاة المسلمين[17].

كان من علامات الشؤم أيضاً، نزول أعدادٍ هائلة من طيور سوداء صغيرة من السماء مندفعة باتِّجاه الأرض وهي ترفرف بأجنحتها بقوة، فأثارت هواءً تحوَّل إلى رياح عاتية، حتى أصاب رودريك وجنوده اضطراب وهلع شديدان. ولأنَّ هذه النوازل كانت عبارة عن رسائل خاطبت بها السماء أرض الأندلس، دون أراضي البلاد الأخرى، فسَّرها الكهنة والحكماء بأنَّها تنذر بغضب إلهي، وقالوا إنَّ عقاباً وشيكاً سيطال رودريك وأهل الأندلس لا محالة. هذه هي جملة العلامات التي ظهرت لملك وشعب الأندلس قُبَيل وصول المسلمين، ويُلاحظ أنَّها تماثل ما ظهر في المكسيك من نذر شؤم.

في قصَّتَي الفتحين جمعت علامات الشؤم التي تخاطب ملك وشعب المملكة بين ثلاثة أشياء، هي: السماء والنار وأماكن العبادة. فهي في الغالب أجسام تهبط من السماء إلى الأرض: مذنَّبات وحجارة وطيور وأعاصير، وتكون مشتعلة، أو تحمل بقايا أجسام مشتعلة. وهي تظهر في أماكن العبادة أو لشخصيَّات لها صفة مقدَّسة عند أهل المملكة، فتظهر في معبد أو يشاهدها كاهن أو راهب. وهذه العلامات فسَّرها أهل الأندلس بالطريقة نفسها التي يقول

16 أوردها واشنطن إرفنغ نقلًا عن مؤرِّخ إسباني قديم كان ينقل بدوره عن مؤرِّخين عرب من بينهم الرازي الذي فُقد نصه. ورغم أنَّ إرفنغ لقي انتقادات عديدة بخصوص الطابع الرومانسي لقصَّة غزو المسلمين لإسبانيا؛ فإنَّ المادة التي أوردها موجودة في النصوص الإسبانية، التي كان مدركاً لطابعها المصطنع. واتصال هذه المادة بالنصوص العربية هو ما يهمنا وليس صدقها التاريخي. انظر:

Irving, Washington: *Legends of the Conquest of Spain*, (London: John Murray, 1886). P. 64.

17 المرجع السابق، الصفحة السابقة.

المؤرِّخون الإسبان إنَّ أهل المكسيك فسَّروا بها العلامات التي أرسلتها السماء إلى أرض مملكتهم.

يقول المؤرِّخون الإسبان إنَّ حال ملك المكسيك تغيَّر بعد ظهور علامات الشؤم تلك. فبعد أن كان معروفاً بالشجاعة والحكمة والوقار، صار يتصرَّف كأنَّه مضطرب العقل، فانقلب من زعيم مُهاب إلى شخص ضعيف الإرادة، يسكنه الرعب. وهذا تحوُّلٌ يُماثل ما أوردته نصوص مؤرِّخي فتح الأندلس حول ما أصاب ملك القوط من رعب واضطراب، بعد تلقِّيه أخبار علامات الشؤم التي ظهرت في مملكته وتفسير الكهنة لها.

هنا يجب الإنتباه إلى فرق بين القصَّتين، فمؤرِّخو فتح المكسيك يبالغون في تضخيم التحوُّل الذي طرأ على الملك موكتزوما. فهو يبدأ بمعاقبة الناس على رؤيتهم لعلامات الشؤم وتفسيرهم لها، ويبلغ اضطرابه حد أنَّه يقرِّر قتل من يحلمون أحلاماً تشير إلى قرب وقوع الغزو، أما رجال الدين الذين لا يفسِّرون له النبوءات بطريقة ترضيه فيعاقبهم بعنف ويخرِّب منازلهم ويقتل نساءهم وأطفالهم. وبخلاف نصوص فتح الأندلس التي ترسم لروذريك صورة وهو في حال تماسك رغم شعوره بالرعب من علامات الشؤم، فيعدّ العدة لمواجهة المسلمين؛ فإنَّ نصوص فتح المكسيك تركِّز على اضطراب عقل موكتزوما، فتصوِّره هائجاً أحياناً، ومرتجفاً باكياً دونما سبب أحياناً أخرى. إنَّ قصَّة فتح المكسيك تستهدف تحويل صورة ملكها من رمز للإرادة الوطنية واستقلالها، إلى رجل جبان، مفرغ الشخصية بسبب عقليته الساذجة وثقافته الخرافية، يستسلم للإسبان دون أدنى مقاومة. وهذا فرق مهم؛ لأنَّ المؤرِّخين الإسبان يعمِّمون صورة الملك السالبة على شعبه أيضاً، فيصوِّرونه شعباً عاجزاً ليس له شعور بذاته، بخلاف قصَّة فتح الأندلس التي لا تقلِّل من مكانة الأندلسيين إلى حد أنَّها تستبعدهم من نطاق الإنسانية.

يتواتر تماثُل نُذر الشؤم في القصَّتين، فقد نقل دييغو دوران حادثة وقعت لرجل مكسيكي، بدت له أقرب إلى حلم. فبينما كان الرجل يعمل في حقله رأى نسراً له أجنحة ضخمة يهبط عليه ثم يحمله إلى أعلى، ويطمئنه بألَّا يخاف. وهناك في الأعالي، خاطبه صوت سماوي مخبراً إياه بقرب نهاية حياة الملك موكتزوما؛ لأنَّه استبدَّ وأفسد كثيراً. وبعدها أدخل النسرُ الرجلَ مكاناً يشبه الكهف، وجد فيه الملك موكتزوما مستلقياً على ظهره كأنَّما هو في غيبوبة. وسمع الرجل صوت الرسول السماوي يخبره بأنَّه مكلَّفٌ بحمل رسالة إلى الملك موكتزوما، قائلاً:

"أخبره أنَّه قد أثار غضب الرب خالق كل شيء، وأنَّه جلب لنفسه السوء الذي سيحلُّ به، فقد أوشك حكمه على الزوال. دعه يستمتع بالقليل ممّا بقي له منه، وليصبر على مصابه، بما أنَّه كان سبب هلاك نفسه"[18].

ويقول المؤرخ دوران إنَّ الرجل نفَّذ أمر السماء وأخبر الملك موكتزوما بما جرى، فازدادت روحه المعنوية انهياراً وعجز عن تدبير أمر الدفاع عن مملكته وحماية عرشه.

قبيل فتح الأندلس، جرت لرجل إسباني حادثة مماثلة رَوَتها نصوصٌ عربيةٌ عديدةٌ منها (تاريخ الرازي) الذي فُقِد نصُّه، لكن نصوصاً إسبانية موجودة اليوم تناقلت تلك الرواية العربية وأوصلتها إلينا. ففي كتابه حول فتح المسلمين للأندلس نقل المؤرِّخ الأميركي واشنطن إرفنغ عن مؤرِّخي العصور الوسطى الإسبان، الذين نقلوا بدورهم عن مؤرِّخين عرب، أنَّ رجلاً أندلسياً كان عائداً من الحج استلقى تحت شجرة ليأخذ قسطاً من الراحة وينام قليلاً؛ لكنه استيقظ على صوت يخاطبه، فرأى مخلوقاً يملك جناحين عظيمين، أخبره بألَّا يخاف لأنَّه ملاك يحمل رسالة من السماء لأهل الأندلس. قال المخلوق صاحب الجناحين:

18 Duran, p. 484.

"لا تخف ... إنني ملاك مُرسل من السماء لأكشف لك عن مصير بلدك، لقد عُرِضت خطايا رودريك على الرب، فاشتعل غضبه عليه وقضى بأن يُجتاح ويُدمَّر"[19].

وقام الرجل الأندلسي بتنفيذ الأوامر السماوية، وأخبر قادة جيش الأندلس بأن نهاية ملكهم رودريك قد حانت، فانهارت روحهم المعنوية مثل الملك وتهيَّأوا لتلقِّي الهزيمة على يد الغزاة الغرباء.

في قصَّتَي الفتحين يتلقَّى رجل من أهل المملكة تكليفاً إلهيَّاً عبر وسيط له أجنحة يهبط من السماء، ويأمر الرجل بنقل رسالة إلى المملكة تُخبِر بقُرب زوال حكم الملك بسبب خطاياه وظلمه لرعيَّته، وتنذرهم بقرب وصول الغزاة. فتتسبَّب تلك الرسالة في إضعاف الروح المعنوية لأهل المملكتين، ويُيسِّر ذلك على الغزاة اجتياحهما. وهذا وجه آخر من وجوه تطابق القصَّتَين.

بجانب علامات الفأل الحسن التي تلقَّاها الغزاة ورفعت روحهم المعنوية، وعلامات الشؤم التي شاهدها الملك ومواطنو المملكة وأضعفت روحهم المعنوية؛ أورد مؤرِّخو الفتحين نبوءة أخرى فريدة من نوعها ظهرت في هيئة صورة، وأسهمت كثيراً في تهيئة الملك وشعبه لتلقِّي الهزيمة وإشاعة اليأس بينهم. يقول مؤرِّخو فتح المكسيك إنَّ بعضاً من كهنة المملكة كانوا قد أخفوا بتكتُّم تام صورة قديمة توارثوها سراً عن أسلافهم القدماء، جيلاً بعد جيل. وحينما علم بأمرها الملك موكتزوما اشتدَّ في طلب الاطِّلاع عليها. وعندما كُشف له عنها، رأى فيها رسماً يصوِّر الغزاة الإسبان تصويراً دقيقاً، يظهرون فيه ببشرتهم البيضاء ولِحاهم وأغطية رؤوسهم وسيوفهم، وهم يركبون على الخيول. وربَّما كان المؤرِّخ غُمارا أول من مهَّد السبيل لظهور قصَّة الصورة، التي لا نجد لها أثراً في رسائل

---

19 Irving, Washington: *Legends* ..., pp. 74-75.

كورتس، وذلك عندما ربط ظهور الأجسام النارية السماوية بظهور صورة الغزاة، حيث كتب:

"قبل فترة قليلة من وصول هرنان كورتس إلى إسبانيا الجديدة، التمع ضوء عظيم لعدة ليال فوق البحر في المنطقة التي سترسو فيها سفنه، بدأ قبل ساعتين من الفجر وارتفع نحو السماء ثم تلاشى. وفي الوقت ذاته شاهد أهل مكسيكو لهباً يظهر من جهة الشرق، من ناحية فيرا كروز، وأخافتهم سحابة كثيفة من الدخان كادت تبلغ السماء خوفاً شديداً، ورأوا في السماء رجالاً يتقاتلون. وكان ذلك شيئاً جديداً ومدهشاً بالنسبة لهم، أثار فكرهم وشغلهم كثيراً؛ لأنَّه كان قد شاع بينهم أنَّ رجالاً بيضاً، ذوي لحى، سيأتون لغزو البلد والاستيلاء عليه في حياة موكتزوما"[20].

أمَّا عند المؤرِّخ أكوستا، وكذلك ساهاجون، فإنَّ صورة الغزاة لا تظهر لمواطني المكسيك وإنَّما تظهر لملكها نفسه، قبل وصول السفن إلى أرض المملكة. فذات صباح قبض صيادون يعملون ببحيرة مكسيكو على طائر رمادي اللون، بالغ الغرابة، له دائرة في أعلى رأسه كأنَّها تاج مصقول، أو كأنَّها مرآة تنعكس عليها صورة السماء، فحملوه إلى الملك موكتزوما. يقول أكوستا، إنَّ الملك حين نظر في تلك الدائرة اللامعة "رأى بشراً قادمين من جهة الشرق يحملون أسلحة ويقاتلون"[21].

من جهته، نقل المؤرِّخ دييغو دوران خبر صورةٍ مرسومة يقول إنَّها هي التي أكَّدت للملك موكتزوما حتميَّة سقوط مملكة المكسيك وزوال حكمِه. فبعد أن أقلقه تواتُر علامات الشؤم، وسمع من رعيته نبأ ظهور سفن الإسبان على سواحل المملكة، بعث موكتزوما برُسُله ليزوِّدوه بمعلومات واقعية حول ما يجرى

---

20 Gómara, P. 294.

21 De Acosta, Vol. II, P. 511.

على الساحل، فنقل له أحد رسَّاميه الماهرين رسماً دقيقاً لسفن الإسبان وخيولهم وسلاحهم وجميع ملامحهم. وحين تأكَّد له وصول الإسبان ازداد قلقه، فبدأ يبحث عن كهنة المملكة الذين لهم دراية بالنبوءات القديمة، ليخبروه بما يعرفونه عن مستقبل مُلكه. يقول دروان إنَّ موكتزوما أرسل إلى كاهن عُرف عنه أنَّه مؤتَمن على رسومات قديمة دوَّن فيها قدماء كهنة المكسيك نبوءاتهم حول مستقبل المملكة. جاء الكاهن وأخبر الملك أنَّ غزاة غرباء سيدخلون أرضه "ويتملّكون البلد ويقيمون في كل مدنه وسيتكاثرون..."، ويضيف دوران إنَّ الكاهن خاطب موكتزوما بقوله:

"لكي تعلم أنَّ ما أقوله هو الحقيقة ... انظر إليه مرسوماً هنا، لقد ورثت هذه الصورة عن أسلافي. ثم أخرج صورة قديمة جداً رُسِمت عليها سفن بها رجال يلبسون على ذات الطريقة التي رآهم بها الملك في الرسم الذي صنعه له رسَّامه. فرأى رجالاً على ظهور خيلهم ... جميعهم بملابس مختلفة الألوان مرتدين قُبَّعاتهم وحاملين سيوفهم"[22].

علَّق دوران على الحادثة بأنَّ موكتزوما عندما شاهد الصورة وسمع قول الكاهن فقَدَ صوابه وأُغمي عليه.

أما الذي تضمَّنته نصوص فتح الأندلس عن صورة الغزاة القديمة المتوارثة، فيخص بناءً في طليطلة سمَّاه بعض المؤرِّخين "بيت الصورة"، وسمَّاه آخرون "بيت الأقفال". كان هذا البيتُ غرفةً توارث كهنة الأندلس حراستها بحرص تام مئات السنوات، وكان كل ملك يضع على بابها قفلاً عند تولِّيه الحكم إمعاناً في الحفاظ على سرِّية ما بداخلها، فصار ذلك تقليداً ملكياً مُلزِماً. لكن رودريك بدلاً من أن يضع قفلاً على باب الغرفة ألحّ على فتحه ومعرفة ما فيها، فاجتهد الكهنة في إثنائه عن عزمه، لكن الملك لم يتنازل عن قراره، فمنحوه مفاتيح

22 Duran, 505

الأقفال مُكرَهين. وكان ابن عبد الحكم أوَّل من نقل ذلك من مؤرِّخي المسلمين، فكتب:

"وكان بالأندلس، كما حدثنا أبو عبد الله بن عبد الحكم وهشام بن إسحاق، بيت عليه أقفال لا يلي ملك منهم [أي القوط] إلا زاد عليه قفلاً من عنده، حتى كان الملك الذي دخل عليه المسلمون، فإنَّهم أرادوه أن يجعل عليه قفلاً كما كانت تصنع الملوك قبله، فأبى وقال ما كنت لأضع عليه شيئاً حتى أعرف ما فيه، فأمر بفتحه فإذا فيه صور العرب وفيه كتاب: إذا فُتح هذا الباب دخل هؤلاء القوم هذا البلد"[23].

تَرِد حكاية الصورة في نصوص بعض المؤرِّخين المتأخِّرين بألفاظ مغايرة وتفاصيل أكثر دقَّة، فالحميري يقول:

"وكانت طُليطلة دار المملكة بالأندلس حينئذٍ، وكان بها بيت مغلق متحامي الفتح يلزمه من ثُقاة القوط قوم وقد وُكلوا به لئلا يُفتَح، قد عهد الأول في ذلك إلى الآخر، كلما مَلك منهم ملِك زاد على البيت قفلاً، فلما وُلّي لذريق عزم على فتح الباب والاطِّلاع على ما في البيت. فأعظم ذلك أكابرهم، وتضرعوا إليه في الكف فأبى، وظن أنَّه بيت مال، ففضّ الأقفال عنه ودخله فأصابه فارغاً لا شيء فيه إلّا تابوت عليه قفل. فأمر بفتحه فألفاه أيضاً فارغاً ليس فيه إلا شقّة مدَرجّة قد صُوِّرت فيها صور العرب على الخيول، وعليهم العمائم متقلِّدي السيوف متنكِّبي القِسِيّ، رافعي الرايات على الرماح. وفي أعلاها كتابة بالأعجمية فقُرِئت فإذا هي: إذا كُسِرت هذه الأقفال من هذا البيت وفُتِح التابوت، فظهر ما فيه من هذه الصور، فإنَّ الأمة المصوَّرة فيه تغلِب على الأندلس وتملكها. فوجم لذريق وعَظُم غمُّه وغمُّ العجم، وأمر بردِّ الأقفال وإقرار الحَرَس على حالهم"[24].

---

23 Ibn Abd-El-Hakam, p. 3.

24 الحميري: **صفة...**، ص 6 - 7.

وردت القصَّة نفسها عند معظم مؤرِّخي الأندلس الموثوقين، بطرق متباينة. فنقلها ابن القوطيَّة بلفظ قريب مما أورده الحميري[25]، وألحق بها صاحب الأخبار المجموعة تفاصيل أكثر دقة[26]، أمَّا ابن حبيب فأوردها بطريقة مختصرة[27]. وعند المؤرِّخين العرب اعتُبِرت الصورة النبوئية التي رآها ملك الأندلس عنصراً مهماً تسبب في بلبلة فكره، ونتج عنها تدهور الروح المعنوية لقادة جيشه، فلحقت بهم الهزيمة على المستوى النفسي قبل التقائهم بجيوش المسلمين.

كما هو واضح، جاءت حكاية صورة الغزاة عند مؤرِّخي فتح المكسيك بالعناصر نفسها التي جاءت بها نصوص فتح الأندلس. ويتطابق نص دوران إلى حد كبير مع نص الحميري: فهناك الصورة القديمة المتوارثة سراً، والكهنة الأمناء عليها، وملامح الغزاة بلحاهم وأغطية رؤوسهم والخيول والسيوف، ثم التفسير اللفظي للصورة الذي يفيد بأنَّ الذين رُسِموا فيها سيغزون البلد ويفتحونه. ويبلغ التطابق بين هذين الجزئين من القصَّتين حدَّاً مدهشاً حين يسلك ملك المكسيك تجاه الكاهن الذي يحتفظ بصورة الغزاة الإسبان، نفس سلوك ملك الأندلس مع الكهنة الذين كانوا يحتفظون بصورة الغزاة المسلمين. فالنصوص العربية تقول إنَّ تغيُّراً مفاجئاً حدث في سلوك رودريك عندما رأى صورة الغزاة، فبعد أن كان قاسياً مع الحرس الذين رجوه عدم فتح باب الغرفة، يقول الحميري إنَّه "أمر برَدِّ الأقفال وإقرار الحرس على حالهم". وكذلك فعل موكتزوما حسب نص دوران؛ فبخلاف العنف الذي لاقى به من نقلوا إليه أخبار علامات الشؤم، رضي عن الكاهن الذي أطلعه على الصورة وأرسله إلى أهله آمناً.

في تاريخَي الفتحين تتَّخذ قصَّة الصورة مكانة خاصة من حيث وظيفتها بين نذر الشؤم الأخرى، التي لُوحظ تطابقها سابقاً. فهي العلامة الوحيدة التي

25 ابن القوطيَّة: **تاريخ...**، ص 33.

26 مؤرِّخ مجهول: **أخبار...**، ص 152.

27 السيد عبد العزيز سالم: **تاريخ...**، ص. 222.

يتلقَّاها الملك بنفسه وتزوِّده بنبوءة ذات طابع محسوس يضمُّ صورةً ونصَّاً. وبلغة اليوم، فهي العلامة الوحيدة المتلقَّاة عبر وسيط اتِّصال سمعي – بصري (audio-visual).

كيف يمكن أن تتطابق مجموعة من الأحداث إلى هذا الحد، رغم أنَّها تدور في مكانين بعيدين جداً عن بعضهما، وفترتين زمنيتين تفصلهما ثمانمئة سنة؟ والأكثر إثارة للدهشة، وما يمتنع معه أن يكون التطابق محض صدفة، أنَّ تلك الأحداث تقع مرتين للأمة نفسها دون كل أمم العالم، وهي الأمة الإسبانية: مرَّة في الأندلس في سنة 711م، ومرَّة ثانية في المكسيك في سنة 1520م. هذا هو السؤال الذي سيستمر يُطرح هنا حول جميع تماثلات القصَّتين.

إن كانت نبوءات الفأل الحسن التي ظهرت للفاتحين ونذر الشؤم التي ظهرت لأهل المملكة مألوفة في بعض تواريخ الروم القديمة؛ فإنَّ قصَّة الصورة المتوارثة التي تتنبِّئ بقدوم الغزاة واحتلال المملكة لها جذور عميقة في خطاب فتوحات المسلمين. فقد ركزّت معظم النصوص العربية التي أرّخت لفتوحات الموجة الأولى على الدور النبوئي للصور على وجه الخصوص. وعند قدامى العرب كان يندرج تحت لفظ "صورة" كل ما يحاكي الهيئة المرئية للشيء، سواء كان رسماً أو تمثالاً، فلم يقتصر المعنى على الصورة ذات البعدين فقط، كما يُفهَم من اللفظ اليوم. وربما لحساسية المسلمين تجاه الفنون التجسيمية، التفت مؤرِّخوهم إلى تواصل المسيحيين مع الأيقونات المصوَّرة أثناء تعبُّدهم، واعتقدوا أنَّها مصدر نبوءات رجال الدين المسيحيين حول حياتهم وما سيقع في المستقبل. ومثال عناية المسلمين بالصور المسيحية ما يرد عند ابن الرستة؛ الذي يعتقد بأنَّ أيقونات كنائس الروم وتماثيلها تختزن كثيراً من النبوءات حول مستقبل بلادهم[28].

---

28 ابن الرستة (أبي علي أحمد بن عمر): **الأعلاق النفيسة** (بيروت، دار صادر، دار بريل، 1893). ص 108 - 109.

يظهر عمق الاعتقاد بالقوة النبوئية للصُوَرِ عند المسلمين في عدد من قصص فتوحهم. فقد أورد ابن كثير عن هشام بن العاص الأموي قصَّة إرساله، برفقة رجل آخر، إلى هرقل ملك الروم، وكان ذلك في عهد الخليفة أبي بكر الصديق، لتعريف ملك الروم بالإسلام وتخييره بين الإيمان به أو غزو المسلمين لبلاده. يقول هشام بن العاص: إنَّهما حين دخلا على ملك الروم وحدَّثاه بما بُعِثَا لأجله، وجدَا أمامه صندوقاً مُذهَّباً فيه بيوت لها أبواب؛ ففتح منها غرفةً أخرج منها صورة عرضها عليهما فلم يعرفاها، فأخبرهما بأنَّها صورة آدم. ثم فتح أخرى وأخرج صورة لم يعرفاها، فقال: إنَّه نوح. ثم فتح غيرها وأخرج صورة ثالثة لم يعرفا صاحبها أيضاً، فأخبرهم بأنَّه إبراهيم. وبعدها يقول ابن العاص، حسب رواية ابن كثير:

"ثم فتح باباً آخر فإذا فيه صورة بيضاء، وإذا والله رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: أتعرفون هذا؟ قلنا: نعم هذا محمَّد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبكينا... وقال [ملك الروم]: والله إنَّه لهو..."[29].

وحين سألا الملك عن مصدر الصور، أخبرهما أنَّه ورثها عن أسلافه، الذين حفظوها منذ زمن قديم مقفَلة في الغرف الصغيرة التي رأوه يستخرجها منها. وهنا تظهر قصَّة صورة الغزاة المتوارثة والمقفلة في بيت، كما في قصَّة فتح الأندلس، التي سيستخدمها الإسبان لاحقاً في قصَّة فتح المكسيك.

إلى جانب علامات نذر الشؤم، وصورة الغزاة المتوارثة في قصَّتي الفتحين، تتطابق عناصر أخرى تمهِّد لانتصار الغزاة، أبرزها أنَّ مواطني المملكتين اعتبروا الفاتحين آلهة، فساهم ذلك الاعتقاد في أن يستسلموا لهم دون مقاومة. فقد اتفقت جميع نصوص المؤرِّخين الإسبان والأوروبيين، على أنَّ شعوب

29 وردت القصَّة في تفسير ابن كثير للآية 57 من سورة الأعراف. انظر: إسماعيل بن عمر بن كثير: تفسير القرآن العظيم، الجزء الثالث (دار طيبة، 2002) االصفحات 484 - 487.

أميركا في المكسيك وبيرو وغواتيمالا وكوبا وجمايكا وكل بلاد أميركا، اعتقدوا أنَّ للإسبان طبيعة فوق بشرية، فاعتبروهم من نسل الإله كويتزالكواتل؛ أو أنَّهم هبطوا من السماء، أو غير ذلك من اعتقادات تنسب إلى الإسبان طبيعة مقدَّسة. والإشارات إلى ذلك متعدِّدة في النصوص الأوروبية. فغُمارا يكرِّر في مواضع كثيرة من نصوصه، أنَّ اعتقاد المكسيكيين بألوهيَّة الإسبان تجلَّى في تصديقهم بخلود الجنود الإسبان وعدم قابليتهم للفناء[30]. وركَّز دياز ودوران كثيراً على هذه النقطة، معتبرين أنَّ هذا الاعتقاد كان له الأثر الحاسم في منح النصر للإسبان[31]. ومن الطبيعي أنَّ الشخص الذي يحارب معتقداً أنَّ عدُوَّه لا يموت، يخلق في نفسه استعداداً للانهزام منذ البداية.

كانت النصوص العربية أيضاً قد أكَّدت أنَّ الإسبان اعتبروا المسلمين كائنات مقدَّسة، وأنَّ ذلك الاعتقاد صار سبب فتح المسلمين لبعض المناطق. فحينما حاصر موسى بن نُصير القوط الأندلسيين في حصن إشبيلية، خرج بعضهم للتفاوض معه على الصلح، فلم يستجب لشروطهم، ورأوه شيخاً هرِماً أبيض اللحية. وفي الليلة نفسها صدّوا هجوماً شنَّه المسلمون على الحصن، فخرجوا إلى موسى في صباح اليوم الثاني ظانِّين أنَّه يجيبهم إلى الصلح بعد أن ردّوا جيشه؛ ولأنَّه كان صباح اليوم الذي يسبق العيد وجدوا موسى قد خَضَّب لحيته، فرأوها حمراء اللون بعد أن كانت بيضاء بالأمس، ويقول مؤرِّخ عربي:

> **"فعجبوا، وقال قائلهم أظنه يأكل ولد آدم، أوَما هذا الذي رأيناه بالأمس؟ ثم خرجوا إليه [بعدها] فإذا اللحية سوداء، فرجعوا إلى أهل مدينتهم، فقالوا: يا حمقاء إنَّما تقاتلون أنبياء يتخلَّقون، كيف شاءوا يتشبَّبون، قد صار ملِكهم حدثاً بعد أن كان شيخاً، اذهبوا فأعطوه ما سأل، فصالحوه..."**[32].

---

30 Gómara, p. 77.

31 Diaz, pp. 150, 187, 258, and: Duran, pp. 498, 515.

32 مؤلف مجهول: **أخبار...**، ص 26.

حسب هذه القصَّة، تنسب نصوص المسلمين انهزام أهل الأندلس إلى اعتقادهم أنَّ احمرار لحية موسى يدلُّ على أنَّه يأكل البشر، وأنَّه يملك قدرة أن يعيد خلق نفسه فيعود شاباً بعد أن كان شيخاً، فاعتقدوا أنَّ له قدرات تفوق البشر وأنَّ ذلك يعود إلى أنَّه كائن مقدس، وعمَّموا تلك الصفة على جميع المسلمين، فحسب النص المقتبس سابقاً قالوا لبعضهم "إنَّما تقاتلون أنبياء".

بالمثل، زعمت نصوص مؤرِّخي فتح المكسيك أنَّ مواطنيها، بجانب اعتقادهم بقُدسيَّة الإسبان، اعتقدوا أيضاً أنَّهم يأكلون البشر ويشربون دماءهم. فبعد أن تدهورت الروح المعنوية للملك موكتزوما بسبب تواتر النبوءات ونذر الشؤم، فكّر في الإسراع بكسب رضا الإسبان بمجرد هبوطهم الساحل ظنَّاً منه أنَّهم أبناء الإله كويتزالكواتل، فرأى أن يتلقَّاهم بطقوس التقديس ليتخلُّوا عن فكرة انتزاع مُلكِه. يقول دوران: إنَّ موكتزوما أصدر أوامره بذبح عشرة من الرجال المستعبَدين عنده، وأمر بشقِّ صدورهم وتقديم قلوبهم إلى قائد الإسبان، معتقداً أنَّه إله يأكل البشر[33]. وأمرَ الذين أرسلهم بأن يسمحوا لكورتس بأكل من يختاره منهم، إن رغب في ذلك، فبعد أن حمَّل موكتزوما الرسل بالهدايا والطعام، طلب منهم أن يبلِّغوا كورتس ما يلي:

> **"أخبروه أيضاً [...] إنَّني أرجوه أن ينتظر موتي، أن يتفضَّل عليَّ بهذا، ثم يأتي لأخذ مملكته لأنَّها من حقه. فنحن نعلم أنَّه تركها ليحرسها له أسلافي، ولقد اعتبرت دائماً أنَّها أُعيرت لي. [...] لا تذهبوا خائفين ولا قلقين، ولا تهابوا الموت على يديه، فأنا أقسم لكم، وأعدكم، أنَّني سأكرِّم أطفالكم وأهبهم ثروات طائلة وأرضاً ومنازل، وسأُلحِقهم ببلاطي. وإن لم يرغب في الطعام الذي تحملونه له، ووجدتموه يريد التهام البشر، فاسمحوا له بأكلكم، وأؤكِّد لكم أنَّني سأوفي بعهودي تجاه زوجاتكم وأطفالكم وأهلكم"[34].**

---

33 Duran, p. 512.

34 المرجع السابق، ص 498.

أوضح ساهاجون في بقية القصَّة أنَّ الكهنة حين وصلوا إلى حيث نزل الإسبان أعدُّوا وليمة فخمة، وذبحوا بعض الأسرى وسكبوا دماءهم على الطعام تعظيماً للإسبان، وقدَّموه لهم، فرفضه هؤلاء واكتفوا من تلك الوليمة بشيء من لحم السلاحف وبيضها[35].

هكذا ربط المؤرِّخون الإسبان، على طريقة المؤرِّخين العرب نفسها، بين اعتقاد مواطني المملكة بألوهيَّة الغزاة واعتقادهم بأنَّهم يأكلون البشر ويشربون دماءهم. ومثلما قالت نصوص فتح المكسيك إنَّ المواطنين اعتبروا الإسبان شاربي دماء، أوردت النصوص العربية عن الأفارقة غزاة الأندلس، أنَّهم يشربون الدم. فحسب بعض تلك النصوص عندما وصل القائد عقبة بن نافع إلى شمال إفريقيا بدأ يجمع المعلومات عن أهل المغرب الذين أُرسِل لفتح بلدهم، فيقول المؤرِّخ أبو إسحاق الرقيق عن ما لقيه عقبة في طريقه:

"ثم رحل حتى دخل طنجة، فلقيه رجل من الروم يقال له إليان... فسأله عن حال البربر والروم. فقال له قد تركت الروم خلفك، وما قدَّامك إلا البربر وفرسانهم. قال له: وأين موضعهم؟ قال: في السوس الأدنى، وهم قوم ليس لهم دين ولم يدخلوا النصرانية، يأكلون الميتة ويشربون الدم من أنعامهم"[36].

فيما بعد طوَّرت النصوص العربية صورة أهل شمال إفريقيا بوصفهم شاربي دماء، وانتقلت معهم تلك الصورة إلى الأندلس حيث سيظن القوط أنَّ جميع المسلمين يشربون الدم ويأكلون البشر، بحسب قول النصوص العربية. وهذا يطابق ما سينسبه المؤرِّخون الإسبان إلى المكسيكيين من اعتقاد بأنَّ الغزاة الإسبان آلهة يشربون الدمَّ ويأكلون البشر.

---

35 Leon- Portilla, Miguel; *The Broken Spears: The Aztec Account of the Conquest of Mexico,* (Beacon Press, 1992. P. 33).

36 الرقيق: **تاريخ ...**، ص 14.

ملخَّص الصفحات السابقة، أنَّ العناصر التي رُصِدت تماثلاتها تشترك في وظيفة التمهيد لوقوع الفتح بعدد قليل من الغزاة، وذلك بطريقتين: الأولى تأكيد انحطاط الروح المعنوية لأهل البلد، والثانية رفع معنويات الغزاة بتأكيد تفوقهم. ويمكن تلخيص هذه المرحلة من القصَّتين كما يلي:

في مملكة يحكمها ملكٌ مستبد تظهر أجسام غريبة مشتعلة في السماء، تُفسَّر بأنَّها علامات غضب إلهي تنذر بقرب زوال عرش الملك على يد غزاة غرباء يجتاحون المملكة، فتنهار الروح المعنوية لأهلها ويتهيأون لتلقِّي الهزيمة. وتظهر للملك صورة قديمة يتوارثها كهنة المملكة رُسِم فيها الغزاة بعدَّة الحرب، مشفوعة بنبوءة لفظية تقول إنَّ الذين يظهرون في الصورة سيحكمون البلد. ومن جانبهم يتلقَّى الغزاة علامات تُفسَّر بأنَّها بشارات نصر تنبِّئ بفتحهم للمملكة، أبرزها علامة على رأس قائدهم. وعند وصولهم إلى أرض المملكة ينتشر اعتقاد لدى مواطنيها بأنَّ الغزاة كائنات مقدَّسة، وأنَّهم يأكلون البشر.

هذه هي جملة التوازيات بين العناصر السردية الست التي قورنت هنا، وهي: نبوءات النصر، ونذر الشؤم السماوية، والكائن المجنَّح المرسل من السماء، وصورة الغزاة المتوارثة، وقدسيَّة الغزاة، والاعتقاد بأنَّهم يأكلون البشر. وجميع هذه العناصر السردية تُساهم في تهيئة المسرح لاستقبال الغزاة بوصفهم كائنات ذات قدرات فائقة، تمهيداً للمرحلة الثانية من القصَّة التي يبدأ فيها الفتح، والتي يتناولها الفصل التالي.

بداية الغزو: تملُّكٌ رمزي

في المرحلة الأولى مهّدت قصَّة فتح المكسيك، حسبما رواها المؤرِّخون الإسبان، لوقوع المواجهة بين الغزاة وجيش المملكة. وأوضحت ضعف الروح المعنوية للمكسيكيين بسبب تواتر ظهور علامات الشؤم، والنبوءة التي تقول إنَّ غزاة آتين من الشرق سينتصرون على جيش مملكتهم ويحكمونها. بالمقابل، أكَّدت القصَّة ارتفاع الروح المعنوية للغزاة الإسبان نتيجة تلقِّيهم نبوءات اعتبروها بشارات الانتصار، وأيضاً بسبب تحالف أفراد وجماعات مكسيكية معهم. وفي هذا الفصل من القسم الأول، تنتقل القصَّة إلى المرحلة الثانية التي تشهد بدء أحداث الفتح، وتتميَّز بأنَّها تضمُّ مجموعة أفعال ذات طبيعة رمزية تترتَّب عليها نتائج عملية تتيح للغزاة سيطرة جزئية على البلد، تقود في النهاية إلى فتحه. وكان الفصل السابق قد انتهى بتقدُّم الإسبان من ساحل المكسيك نحو المناطق الداخلية، وانضمَّت إليهم بعض القبائل التي كانت تعاني من ظلم الملك موكتزوما، وتوجَّهت المسيرة إلى العاصمة رغم عدم رضا الملك موكتزوما. وتبدأ المرحلة الثانية، التي يتناولها هذا الفصل، بوصول الإسبان إلى العاصمة مكسيكو، والتي كانت تسمَّى عند المكسيكيين "تنوتشتيتلان" (Tenochtitlan)، حيث استقبلهم الملك موكتزوما وأحسن ضيافتهم وأقامهم في أحد قصوره، ووفَّر لهم من مستلزمات الراحة ما يليق بضيوف كبار، لم يسبق أن تلقَّت المملكة من هم في مكانتهم.

تقول النصوص الإسبانية: إنَّ معظم زعماء المناطق المكسيكية لم يفكِّروا في الدفاع عن بلدهم لاعتقادهم أنَّ غُزاته لا يريدون الاستقرار فيه، وأنَّهم سيعودون إلى وطنهم مُكتَفين بالحصول على الغنائم والذهب. ولأنَّه لم يكن للذهب قيمة كبيرة عند المكسيكيين، لم يشغلهم كثيراً أمر رغبة الإسبان فيه، أو حصولهم على أكبر قدر منه. وحسب القصَّة، كان سوء الفهم هذا من أبرز أسباب انتصار الإسبان، لأنَّه تسبَّب في إبقاء قوة كبيرة من المكسيكيين خارج نطاق المواجهة مع الغزاة، والدفاع عن بلدهم. ويقول المؤرِّخون إنَّ كورتس انتبه إلى هذا منذ البداية، فعمل على دعم الاعتقاد السائد لدى المكسيكيين بعدم رغبته في الاستيلاء على حكم المملكة. بحسب ما أورد دوران كان كورتس يُخبر المكسيكيين وجيرانهم بأنَّه جاء ليدفع عنهم ظلم موكتزوما وأنَّه سيعود بعد ذلك إلى بلاده، فكان يضلّلهم بذلك حتى لا يتَّحدوا ضده. ونتج عن ذلك أنَّ قوة المكسيكيين بقيت مشتَّتة، ولم يفكِّروا أبداً في مواجهة الإسبان. كتب دوران عن خداع كورتس لزعماء المكسيك وقبائله التي تسكن مدن تاكوبا وتلاتلولكو وتشالكو:

> **"خاطب [كورتس] تلك المدن قائلاً إنَّه جاء ليحرِّرهم من استبداد مكسيكو-تنوتشتيتلان والاضطهاد الذي عاشوا فيه، وحينما أضاف أنَّ صداقتهم مع الأزتك لم تكن باختيارهم وإنَّما فُرِضت عليهم بالقوة، قرَّروا أن يكونوا أصدقاء الإسبان ويتخلَّوا عن معاداتهم. فقد اعتقدوا جميعاً أنَّهم سينالون حريتهم ويتحرَّرون من استعباد تنوتشتيتلان لهم"[1].**

في قصَّة فتح الأندلس كانت النصوص العربية قد نسبت التصرُّف نفسه إلى نبلاء القوط الذين كانوا يشكِّلون طبقة القادة العسكريين والحكام الأندلسيين. وتقول إنَّ من أسباب انتصار المسلمين اعتقاد معظم الزعماء المحلِّيين أنَّ طارقاً لا يريد الاستيلاء على الحكم وظنُّوا أنَّه سيفعل فعل طريف المعافري

1 Duran, p. 548.

قائد الحملة الاستكشافية التي أرسلها موسى، والذي اكتفى بالغنائم وعاد إلى حيث أتى. ولم يدركوا أنَّ رجوع طريف كان بسبب أنَّه أُرسِل لاختبار حصانة الأندلس ونقل أخبارها إلى حاكم المغرب موسى بن نُصير، تمهيداً لقدوم طارق. ولاعتقادهم بعدم رغبة طارق في البقاء في بلدهم، لم يفكِّر نبلاء القوط في مساندة ملكهم رودريك في حربه ضد جيش المسلمين[2].

من جهته، كان طارق قد أدرك أهمية تثبيت اعتقاد القوط بأنَّه سيرجع إلى حيث أتى، فظل يطمئنهم بأنَّه سيعود إلى إفريقيا بعد أن يُعينهم على التخلُّص من ظلم رودريك، فتخلَّى الكثيرون منهم عن مساندة ملِكِهم وتحالفوا مع طارق. كتب ابن عذاري عن خذلان نبلاء القوط لملكهم "فلما دخلت العرب والبربر مع طارق، أسلمَته [يعني رودريك] النصرانيَّة، وانهزمت عنه"[3]. ويفسِّر المقرِّي ذلك الموقف؛ بأنَّ انصراف القوط عن مساندة رودريك كان بسبب اغتصابه حكم الأندلس، رغم عدم انتمائه إلى أصل ملَكي أو نبيل. ويورد ما دار بين نبلاء القوط عند دخول جيش المسلمين على الوجه التالي:

> **"فقال بعضهم لبعض هذا ابن الخبيثة قد غلب على سلطاننا وليس من أهله، وإنَّما كان من سفالنا، وهؤلاء قوم لا حاجة لهم بإيطان بلدنا، إنَّما يريدون أن يملأوا أيديهم ثم يخرجوا عنا، فانهزم بنا عن ابن الخبيثة إذا لقينا القوم"**[4].

يؤكِّد المقرِّي أنَّ عدم مشاركة زعماء الأندلس في الدفاع عن بلدهم كان بتخطيط مسبق، دبَّروه فيما بينهم عندما علموا بوصول الغزاة، معتقدين أنَّهم سيغادرون عائدين إلى وطنهم مثلما سيعتقد الأزتك عن الإسبان، فلم يحارب لا هؤلاء ولا أولئك، وكان هذا الاعتقاد الخاطئ سبب انتصار الغزاة في الأندلس والمكسيك.

---

2 المؤلف المجهول: **أخبار...**، ص 19.

3 ابن عذاري: **البيان...**، ص 3.

4 عبد العزيز السيد سالم: **تاريخ...**، ص 78.

بعد دخول الإسبان العاصمة مكسيكو، بدأوا البحث عن كنوز قيل إن موكتزوما كان يخبِّئها في مكان ما. تظهر حكاية الكنز المخبَّأ لأول مرَّة عند غُمارا، وهي غير موجودة في رسائل كورتس التي لا تتضمَّن إشارة إلى كنز إلّا في سطور قليلة تتعلَّق بعثور بعض الجنود الإسبان على ذهب مدفون، ذكره كورتس عرَضاً حين كتب: "بينما كنت حاضراً، فتح بعض الإسبان قبراً كان يحوي ذهباً ومشغولاتٍ بقيمة تزيد عن ألف وخمسمئة من العملة القشتالية"[5]. لكن غُمارا أورد قصَّة العثور على كنز هائل عندما ذكر أنَّ كورتس بعد أن توصَّل إلى ضرورة أن يقوم بأسر الملك موكتزوما بدأ يتمشَّى ليلاً في القصر، لشعوره بالقلق من خطر المَهمَّة التي أخذ على عاتقه أن يقوم بتنفيذها، فكتب عن كورتس:

"بينما كان يتحرك لاحظ أنَّ أحد الحوائط أكثر بياضاً من غيره، وحين اقترب منه رأى أنَّه طُلي بطلاء أبيض حديث، وأنَّه كان باباً قبل أن يُسد بالحجر والطين. فنادى خادمَين (وكان البقية نائمين؛ لأنَّ الوقت متأخِّر جدًّاً) وفتحاه، فدخل ووجد عدَّة غرف، في عدد منها أصنام ومشغولات من الريش وجواهر وحجارة كريمة وفضة وكمية مذهلة من الذهب، وكثيراً جداً من الأشياء الجميلة التي أدهشته. فخرج وأغلق الباب بقدر استطاعته، دون أن يلمس أي شيء حتى لا يلفت انتباه موكتزوما فيؤثر ذلك على اعتقاله، هذا بجانب أنَّ الكنز كان آمناً في المكان الذي وُجد فيه"[6].

لكن برنال دياز، الذي كان جنديَّاً في الحملة وحرص على إعطاء الجنود دور الشركاء في تحقيق الفتح، لا ينسِب العثور على الكنز إلى كورتس، وإنَّما ينسبه إلى الجنود الإسبان. فكتب عن الفترة التي كانوا يخطِّطون فيها لأسر موكتزوما وهم يتجوَّلون في قصره:

---

5 Cortés, p. 251.

6 Gómara, p. 169.

"لفت انتباه اثنين من رجالنا، أحدهم نجّار هو ألونسو يانيز، علامات على أحد الجدران دلَّت على أنَّه كان فيه باب يمكن المرور عبره، وقد جرى إغلاقه وطلاؤه. ولأنَّنا كنا قد سمعنا من قبل أنَّ مونتزوما [موكتزوما] كان يحفظ كنزه في هذه الغرفة [...] استدعينا كورتس، فنجح في فتح الباب، ودخل أولاً يرافقه بعض القادة، وحينما رأوا كمية الأشياء الذهبية والمجوهرات والصِّحاف الموجودة في تلك الغرفة صُعقوا تماماً، ولم يعرفوا ما يفعلونه بتلك الثروة"[7].

ليوضِّح دياز ضخامة الكنز يقول إنَّه اعتقد بسبب يفاعة سِنِّه آنذاك، أنَّ جميع كنوز الأرض لو جُمِعَتْ في مكان واحد ما ساوت ذلك الكنز. أما المؤرِّخ دوران الذي عاش في المكسيك، وكان بحسب قوله يستقي معلوماته من المكسيكيين ويتحرَّى صدق روايات الفاتحين بإجراء مقابلات مع الأحياء منهم، فيروي قصَّة كنز موكتزوما المخبَّأ نقلاً عن راهب إسباني كان يعمل مع الإسبان أثناء الغزو. يقول دوران: إنَّ كورتس وجنوده لم يعثروا على الكنز صدفة، لأنَّهم كانوا يبحثون منذ زمن طويل عن كنوز موكتزوما التي سمعوا أنَّها مخبَّأة في مكان ما في قصوره، فكتب:

"في يوم ما، قاد تطلُّع الإسبان ونهمهم للذهب إلى ما بدا لهم وكأنَّه باب صغير منخفض أغلِق حديثاً، وبإغراء من غموضه قاموا بفتحه، وعند عبورهم الباب وجدوا غرفة واسعة في وسطها كومة من ذهب ومجوهرات وحجارة كريمة، كانت بارتفاع أقصى طول ممكن لرجل"[8].

وعندما أضاف الإسبان هذا الكنز إلى الغنائم التي جمعوها من حملاتهم على المقاطعات المكسيكية، شكَّل الكنزان ثروة الفتح التي ستسمَّى: كنز المكسيك[9].

---

7 Diaz, p. 242.

8 Duran, p. 532.

9 محمَّد عبد الرحمن حسن: المصادر التاريخية العربية للأسطورة المؤسسة للهوية الغربية: بين تاريخي فتح أميركا وفتح الأندلس، **أسطور**، العدد 10 (وليو 2019)، 87-101. ص 95.

في فتح الأندلس حصل المسلمون على كنزَين مماثلَين: أولهما الغنائم التي جمعها طارق في بداية الغزو، والثاني كنز مخبَّأ عثر عليه موسى بطريقة تُماثل العثور على كنز المكسيك. لخَّص المؤرِّخ ابن عبد الحكم خبر كنز موسى بقوله:

"حدَّثنا عبد الملك بن مسلمة حدثنا الليث بن سعد، قال: لما فُتحت الأندلس جاء إنسان إلى موسى بن نصير، فقال ابعثوا معي أدلُّكم على كنز، فبعث معه. فقال لهم الرجل: انزعوا ها هنا فنزعوا، قال فسال عليهم من الزبرجد والياقوت شيء لم يروا مثله قط، فلما رأوا تهيَّبوه، وقالوا لا يصدقنا موسى بن نُصير، فأرسلوا إليه حتى جاء ونظر إليه..."[10].

لا يشير ابن عبد الحكم إلى ما كان يخفي الكنز وقام جنود موسى بنزعه، لكن الذهبي، الذي نقل عن رواية الليث بن سعد نفسها، يفصح عن ذلك حين يقول:

"بعث موسى ابنه مروان على الجيش [...]، ودلَّه رجل على كنز بالأندلس، فنزعوا بابه فسال عليهم من الياقوت والزبرجد ما بهرهم"[11].

فالذهبي يوضِّح ما أهمله ابن عبد الحكم من رواية الليث، وهو أنَّ الكنز كان وراء باب خفي. ويجب أيضاً ملاحظة أنَّ ابن عبد الحكم قال إنَّ جنود موسى اعتقدوا أنَّه لن يصدِّق بوجود الكنز، فأرسلوا إليه وحضر بنفسه وتأكَّد من ضخامته. وهذا يطابق ما أورده دوران حول كنز المكسيك المخبَّأ، إذ قال إنَّ الجنود الإسبان خافوا ألّا يصدِّقهم كورتس فأرسلوا له عينة من محتوياته ليتأكَّد من ضخامته[12]. أما باقي كنز الأندلس، والذي وجده طارق بمدينة طليطلة أثناء تقدُّمه للقاء رودريك؛ فيعدِّد الحميري ما وُجد ضمن محتوياته قائلاً:

---

10 Ibn Abd-El-Hakam: p. 6.

11 الذهبي (محمد بن أحمد بن عثمان) : **سير أعلام النبلاء**، ج 4 (بيروت: مؤسسة الرسالة، 2001م). ص 498.

12 Duran, p. 532.

"... فمنها مائة وسبعون تاجاً مرصعة بالدُرِّ وأصناف الحجارة الثمينة، ووجدوا فيها ألف سيف مجوهر ملوكي ووجدوا فيها من الدر والياقوت أكيالاً وأوساقاً، ومن آنية الذهب والفضة وأنواعها ما لا يحيط به وصف، ووجد بها مائدة سليمان ابن داؤود ..."[13].

ويزوِّدنا المقرِّي بتفاصيل أكثر عن المكان الذي وجد فيه طارق كنز طليطلة، وعن حجمه، فيقول:

"ووجد طارق بطليطلة ذخائر عظيمة، منها مائة وسبعون تاجاً من الدر والياقوت والأحجار النفيسة، وإيوان ممتلئ من أواني الذهب والفضة. وهو كبير، حتى قيل: إن الخيل تُلعِّب فيه فرساناً برماحهم، لوسعه"[14].

والإيوان هو الغرفة الواسعة المخصَّصة لمجلس الملك في قصره، وهذا يعني أنَّ كنز الأندلس وُجِدَ في غرفة ملكيَّة واسعة، كما هو حال كنز المكسيك الذي وجده كورتس في غرفة واسعة من غرف القصر. وقد أكَّدت النصوص العربية أنَّ محتويات الكنز كانت تخصُّ ملوك الأندلس الذين سبقوا رودريك، وعدَّت استيلاء المسلمين عليه دلالة على اكتمال فتحهم للمملكة، فبما أنَّهم امتلكوا ثروات ملوكها، فإنَّ حكمها الذي كان لملوكها يصبح حقَّاً للمسلمين[15].

ليست هذه هي المرَّة الأولى التي تربط فيها النصوص العربية الغنائم الملكيَّة بالاستيلاء على الحكم. فقد سبق أن ربطت استيلاء طارق على كرسي العرش

---

13 الحميري: **صفة...**، ص 131.

14 المقرى: **نفح ...**، ص 161.

15 في نصوص المؤرِّخين المسلمين، الخاصة بالفتوح، يتخذ تحديد صاحب الكنز مكانة مهمة، لأنَّ ما يخص الملوك منها يعتبر رمزاً لاستقلال البلد. وكان مآل كنوزهم إلى المسلمين، خاصة سلاحهم، يعني انتهاء المقاومة واستقرار مُلك المسلمين. فكان المؤرِّخون يهتمون بإثبات الحصول على سيف الملك، والملوك السابقين، وإيرادها ضمن الغنائم؛ لأنَّها ترمز لانكسار شوكة العدو. ومثال ذلك: قصَّة فتح فارس التي تركز على أنَّ المسلمين وجدوا سيف كسرى ودروعه ضمن ما أخذوا من غنائم قصره التي ضمت سلاحه وزينته. فروى الطبري أنَّ القعقاع بن عمرو عثر على دروع وأسياف، بينها درع وسيف كسرى، وسيوف أخرى لملوك الفرس القدماء مثل: هرمز وهرقل. انظر: الطبري: **تاريخ...**، ج4، ص 17 - 18.

الخاص برودريك، والذي لضخامة حجمه وُصِف بأنَّه "سرير" وليس كرسياً، ربطته النصوص العربية باكتمال الفتح. فابن كثير يقول عن موت رودريك في المعركة الفاصلة "فقاتله طارق فهزمه، وغنم ما في معسكره، فكان من جملة ذلك السرير، وتملَّك بلاد الأندلس بكمالها"[16]. ولأنَّ النصوص العربية اتَّخذت استيلاء طارق على كرسي رودريك وزينة الملوك التي كان يتزَّين بها علامة على بدء فتح الأندلس، كانت أيلولة كنوز ملوكها السابقين، التي تضم ثرواتهم وتيجانهم وأسلحتهم، تعني اكتمال الفتح. فحسب قول ابن حبيب، الذي نسب العثور على كنز ملوك الأندلس إلى موسى وليس إلى طارق، كان الأندلسيون يعتبرون كنز طليطلة سجلاًّ وشاهداً على تاريخ ملوك الأندلس، يوثِّق لفترات حكمهم. كتب ابن حبيب عن دخول موسى مدينة طليطة:

> **"فوجد فيها بيتاً يُقال له بيت الملوك، ففتحه فوجد فيه خمسة وعشرين تاجاً مكلَّلة بالدُرِّ والياقوت، وهي على عدد الملوك الذين وُلّوا الأندلس: كلما هلك منهم ملك جُعِل تاجه في ذلك البيت وكُتِب على التاج اسم صاحبه وكم أتى عليه من الدهر إلى يوم مات، وكم لبث في ملكه..."**[17].

لقد فسَّرَ مؤرِّخو فتح المكسيك العثور على كنز ملوكها بنفس الطريقة التي فسَّرت بها النصوص العربية العثور على كنز الأندلس. فالمؤرِّخ دييغو دوران يزوِّدنا بمعلومات مُهمَّة عن أصحاب الكنز الذي وجده كورتس في الغرفة الواسعة بالقصر الملكي، فيقول إنَّه كان يحتوي بالإضافة إلى ثروة الملك موكتزوما:

> **"كل الكنوز التي كان يملكها جميع الملوك الذين كانوا أسلافاً له، والتي أُودِعت في تلك الغرفة، ولم يكن من حق الحاكم التالي استعمالها. فحين**

16 ابن كثير: **البداية...**، ص 436.

17 ابن حبيب: **التاريخ...**، ص 145.

يموت الملك كانت كل ثروته من الذهب والسلاح وزيِّه الحربي تُوضع يوم وفاته في تلك الغرفة وتُحرَس كأنَّها أشياء مقدَّسة أو ذات قيمة دينية. وعلى الملك الذي سيحكم أن يبدأ حيازة ثروته حتى لا يُقال إنَّه كان يستخدم كنوز أسلافه. وبهذا كانت الكنوز تُحرَس بوصفها شاهداً على عظمة المكسيك"[18].

إذاً، كان الكنز الذي عثر عليه الإسبان يضم ثروات وأسلحة ملوك المكسيك السابقين، التي كانت تُوضع في غرفة معيَّنة لتكون سجلّاً لتاريخ المملكة. وبهذا يتطابق تماماً وصف النصوص الإسبانية لكنز المكسيك مع وصف النصوص العربية لكنز الأندلس، ليس فقط في المكان الذي أُخفِي خلفه وهو الباب السرِّي، أو في موضعه وهو الغرفة الملكية الواسعة، وإنَّما أيضاً في محتوياته المكوَّنة من المعدنَين الثمينَين والحجارة الكريمة وسلاح الملوك وأزيائهم، وفي وظيفته بكونه سجلّاً للتاريخ الملكي، وفي دلالته الرمزية بالنسبة إلى الغزاة كونه علامة الاستيلاء على حكم المملكة[19].

للكشف عن مزيد من التماثُل بين كنزَي المكسيك والأندلس نبقى مع المؤرِّخ دوران، الذي لم يبخل حتى الآن بما يؤكد تماثُل الفتحين في معظم تفاصيلهما. حين يعدِّد دوران قِطع الكنز يذكر أنَّ الإسبان عثروا بينها على تحفة رباعية مميَّزة حُظِيت بانتباههم وإعجابهم، فيقول عن محتويات الكنز:

"... وكان أميزها أربع صحاف كبيرة، صُنعت على هيئة نوافير، وباختصار، احتوت تلك الغرفة أكثر الثروات إثارة للدهشة فيما شوهد على الإطلاق، وقد أخذ الإسبان المذهولون الصحاف لتكون دليلاً على وجود تلك الثروات العظيمة"[20].

18 Duran, p.532

19 محمَّد عبد الرحمن حسن: المصادر ...، ص 95.

20 Duran, p.532

وصف دوران قطعة الكنز الأكثر تميُّزاً بأنَّها رباعية الصِّحاف، وهذا يماثل قطعة فريدة بكنز الأندلس وجدها المسلمون وسمَّوها: مائدة سليمان؛ لأنها كانت رباعية الأقدام وذات صحاف أيضاً، فلجمالها ودِقَّة صنعها اعتقدوا أنَّها مائدة الملك سليمان التي ذاع صيتها في القصص القديمة. أمّا ما ظنَّه المسلمون مائدة سليمان فلم يكن سوى محراب كنيسة طليطلة المطعَّم بالجواهر، وقد اعتبروه مائدة لأنَّهم عثروا معه على صحاف ذهبية وأكواب، فاعتقدوا أنَّه مائدة طعام ملكية[21]. وكانت الصحاف أيضاً هي التي ميّزت كنز المكسيك عند دوران، أما عند غُمارا فتظهر الصِّحاف مع المائدة بكؤوسها، تماماً كما في فتح الأندلس. فحين يصف قطع كنز المكسيك التي أرسلها كورتس إلى ملك إسبانيا؛ يقول:

"أُعطِي الأمبراطور أيضاً حجارة كريمة كثيرة بينها زمردة رائعة بحجم قبضة اليد، مربَّعة ولها قمة مثل الهرم، وما‌ئدة من الذهب والفضة وصحاف وكؤوس ...“[22].

يُلاحَظ هنا أنَّ غُمارا يضيف إلى المائدة الذهبية ذات الصِّحاف والأكواب قطعة مميَّزة أخرى هي جوهرة كبيرة على شكل هرم، وبهذا يدفع بتماثل الكنزَين ليقترب من التطابق التام، فعند مؤرِّخي الأندلس أيضاً كانت أهم قطع الكنز، بعد المائدة وصحافها، جوهرة كبيرة نادرة سمَّاها بعض المؤرخين: يتيمةُ الدرِّ، إشارة منهم إلى عدم وجود مثيل لها.

اختباراً لتمام التطابُق بين حكايتَي الكنزين في قصّتَي الفتحين، نتوقَّع أن يربط المؤرِّخون الإسبان كنز المكسيك بكنز الملك سليمان، مثلما ربط

21 تقول بعض المصادر العربية إنَّ القطعة في الأصل محراب لكنيسة طليطلة كان رباعي القواعد ومزين بالذهب والجواهر، وتقول مصادر أخرى إنَّه مذبح. انظر: سلمى الخضراء الجيوسي: **الحضارة...**، ص 60.

22 Gómara, p. 296.

المسلمون كنز الأندلس به. وهذا ما حدث فعلاً، فقد ربط كورتس ثروات المكسيك بكنوز سليمان بمجرَّد أن بدأ البحث عن الذهب، مستبقاً العثور عليه. ففي رسالته الأولى إلى ملك إسبانيا نقل له خبر وصوله إلى المكسيك وما سمعه عن ثرائها، فقال:

> **"سنحاول أن نعرف سرَّ هذه الأشياء التي سمعنا عنها، بحيث يمكننا تزويد معاليكم بتقرير حقيقي، وكذلك الحال فيما يخص الذهب والفضة والحجارة الكريمة التي يمكن لمعاليكم الحكم عليها حسب العينات التي سنرسلها لكم. في نظرنا أنَّه لا يمكن الشك في أنَّه يوجد منه في هذه الأرض ما يساوي حجم ما أخذه سليمان من المنطقة التي يقال إنَّه حصل منها على ذهب المعبد"**[23].

هذا الربط المبكِّر بين كنزَ المكسيك وكنز سليمان يؤكِّد أنَّ معرفة مسبقة ورثتها ذاكرة الإسبان عن فتح الأندلس هي التي أوحت لكورتس بالربط بينهما. ومعتمداً على قراءته لرسالة كورتس هذه، أكَّد المؤرِّخ الأميركي برسكوت أنَّ الفاتحين الإسبان شبَّهوا كنز المكسيك بكنز سليمان، وهذا بدوره يوضِّح عناية المؤرِّخين الغربيين بإظهار العلاقة بين كنز المكسيك وكنز سليمان، كما فعل المؤرِّخون المسلمون قبلهم[24].

إنَّ تماثُل كنز الأندلس مع كنز المكسيك لا يقف عند أنَّهما يضمَّان ثروات وأسلحة الملوك السابقين، ويوجدان في غرفة واسعة، ومخبآن خلف باب خفي، ويحتويان على مائدة ذات صحاف ودُرَّة نادرة، وأنَّهما سجِلٌّ لتاريخ المملكة، ويرتبطان بكنز سليمان؛ فالتماثُل يفيض عن كل هذا، لأنَّ أنماط سلوك الفاتحين تجاه الكنزَين تتشابه أيضاً. ومثلما أخذ طارق، سرّاً، واحدةً من أقدام المائدة ليتّخذها دليلاً على أنَّه هو الذي عثر على الكنز وليس موسى،

23 Cortés, p. 29.

24 Prescott, Vol. 1, p. 361.

كذلك أخذ الإسبان أيضاً بعض صحاف مائدة كنزهم: "لتكون دليلاً عليه"، كما قال دوران. هذا القدر من التماثل يوضِّح أنَّ مؤرِّخي فتح المكسيك لم يكونوا يحاكون نموذج الأندلس فقط على مستوى الأحداث، وإنما حاكوه أحياناً حتى على مستوى الأدوار التي تؤدِّيها الشخصيات، وتفسيرها لما تقوم به أيضاً. وهذا يظهر في كثير ممَّا ينسبه المؤرِّخون الإسبان إلى فاتحي الممالك الأخرى في أميركا، لا في المكسيك وحدها، فجميعهم يتبنَّون سلوكاً يتطابق مع السلوك النمطي للفاتحين المسلمين.

يُلاحَظ أنَّه على طول هذه المرحلة الثانية من قصَّة فتح المكسيك، تدور المواجهة بين الغزاة وأهل المملكة على المستوى الرمزي فقط، فمن جهة الفاتحين يبدأ الغزو بالاستيلاء على أشياء لها قيمة رمزية، إلى جانب قيمتها المادية. فالثروات التي يحصل عليها الإسبان في فتح المكسيك ليست مثل غيرها من الثروات، فالذهب الكثير الذي جمعه موكتزوما من مواطنيه وقدَّمه للإسبان لا تُركِّز عليه القصَّة، بخلاف تركيزها على الكنوز الملكية التي تكتسب مكانة رمزية تتَّصل باستقلال المملكة السياسي وسيادة ملوكها. والشيء الذي يؤكِّد أنَّ القصَّة تركِّز في هذه المرحلة على الأفعال الرمزية، أنَّ معارضة المواطنين لأفعال التملُّك الرمزي التي يقوم بها الغزاة تدور أيضاً على مستوى رمزي وليس حقيقياً. يظهر هذا في أنماط المقاومة التي استخدمها المكسيكيون لطرد الغزاة. فاعتقادهم بأُلوهيَّة الإسبان يدعوهم إلى توظيف قوى روحية، عبر وسائل رمزية، تحاول تغيير ما اعتقدوا أنَّه قَدَرٌ أحاق ببلادهم. على سبيل المثال، رسم موكتزوما خطَّطه لحماية المملكة في حضور وزير دفاعه، فقال:

"إنَّ الحلَّ الأفضل الذي أفكِّر فيه هو جمع السحرَة وصانعي النوم وقادة الثعابين والعقارب والعناكب، ليسلِّطوا سحرهم على الغرباء، فيغرقوهم في النوم، ويُظهِروا لهم الخيالات، ويأمروا الحشرات القاتلة بأن تلسعهم

حتى الموت. لقد قرَّرت أن أبعث رسائل إلى ياوتبك وهواكستبك وماليانكو وتبوزتلان؛ ليأمروا سحرتهم ذوي الدُّربَة في هذه المجالات بالحضور إلى هنا، كي أوجِّههم لتدمير الغرباء بسحرهم"[25].

من الجلي أنَّ دفاعات موكتزوما تتَّخذ صورة مقاومة منظَّمة، فيبدأ بعقد اجتماع تشاوري ويحدِّد القوى المناسبة للاصطفاف في مواجهة العدو، وهم: صانعو النوم وساسة الكائنات السامَّة، ثم يحدِّد مصادرها، وهي أربع مقاطعات. ورغم الطابع العملي للخطَّة يُلاحَظ أنَّها تقوم على أفعالٍ ذات طبيعة رمزية تعتمد على التحكُّم عن بُعد: تنويم بالإيحاء، وتراسُل روحي، وأفعال تخييل. وتفشل الخطَّة رغم أنَّ تنفيذها تمَّ بدقَّة، فعقب كل ليلة يسهر فيها السحرة على مهامهم؛ كان الإسبان يستيقظون بهمَّة عالية ويخرجون في الصباح الباكر "كالعصافير التي تنتشر من أشجارها"، حسب تعبير دوران الذي وصف نهاية تلك المعركة الرمزية كما يلي:

"بعد أربعة أيام من الجهد المكثّف، عاد السحرة إلى تنوتشتيلان حيث أخبروا موكتزوما أنَّهم فعلوا كل ما بوسعهم، لكنهم لم يفلحوا في تحقيق غرضهم. وأخبروه بأنَّهم يستحقون الموت، بما أنَّهم خدم الملك، ولم يستطيعوا الوفاء بواجباتهم"[26].

هذه الحكاية تؤكِّد الطبيعة الرمزية للمواجهة بين الطرفين في هذه المرحلة، سواء على مستوى أفعال الغزاة أو بعض ردود أفعال الملك. وتوضِّح أيضاً أنَّ خطة موكتزوما، التي ليس لها ما يطابقها في قصَّة فتح الأندلس، لا تؤثِّر على سير الأحداث لأنَّها تنتهي بالفشل ولا تعيق تحقيق الفتح.

يُختَم هذا الفصل بتماثل أخير يُوضِّح طبيعة العنف الذي مارسه الإسبان ضد المكسيكيين. فقد نسب إليهم المؤرِّخون الغربيون ابتكار عنصر من عناصر

25 المرجع السابق، ص 512.

26 المرجع نفسه، ص 514.

الفتح، سمَّاه بعضهم "عرض العنف" (violence display)، وسمَّاه آخرون "العنف المسرحي" (theatrical violence). وقصدوا به ممارسات العنف التي كان الإسبان يقدِّمونها أمام مواطني البلد الذي يغزونه تمهيداً لإخضاعهم، وكان تعذيب المحاربين وحرقهم أحياء وتقطيع أجسادهم يُمارَس في الساحات العامة. ففي المكسيك أقام أحد رجال كورتس، وهو بدرو ألفارادو، مذبحة هائلة قضت على حوالي ألف من المواطنين أثناء احتفال عام، وجده فرصة "لتقديم عرض قوة كان يُعَدُّ تكتيكاً كلاسيكياً لدى الإسبان في أميركا"، حسب تعبير لاس كاساس[27].

لكي تُحدِث عروض العنف نتائج فعالة اتَّبع الإسبان عدداً من القواعد، أولها أن يُقتَل الضحايا بأساليب تتيح إطالة فترة القتل، فكانوا يسبقونها بممارسات تعذيب متنوِّعة تتضمَّن بتر الأعضاء والشواء المتمهِّل. وثانيها أن تبدأ العروض بالشخصيَّات البارزة (حكَّام، ورجال دين، وأغنياء ... إلخ) لإعطاء سلطة الغزاة طابعاً مكثَّفاً، فعندما تصبح رموز السلطة الوطنية ذاتها موضوع سيطرة، يتأكَّد تفوُّق الغزاة. وبالفعل، أضفى هذا الأسلوب على عنف الإسبان رهبة أثارت رعب المواطنين إلى أقصى حد. ولنجاعته استمرَّ مستخدَماً لفترة طويلة بعد الفتح، فيقول مؤرِّخ مكسيكي إنَّه في سنة 1596م حُرِق عشرون شخصاً وهم أحياء في محفل عام، حضره رئيس محكمة التفتيش والقضاة ورجال الكنيسة وجمهور غفير[28].

كان الهدف الأساسي من تلك العروض هو صناعة تقاليد فُرجة جماهيرية تَختَزن في الذاكرة الجماعية للمواطنين خوفاً تلقائياً من الإسبان، وتخلق اقتراناً

---

27 Las Casas, Bartolome; *A short Account of the Destruction of the Indies,* (London: Penguin, 2004). pp. 49-50.

28 Lockhart, James, Schroeder, Susan and Namala, Doris (eds.),; *Annals of His Time: Domingo de San Antón Muñón Chimalpahin Quanhtlehuantzin*, (Stanford, California: Stanford University Press, 2006). P. 59.

بينهم وبين القدرة على الإخضاع، لتصبح مجرَّد رؤيتهم مثيرة لفزع لا شعوري، وبذلك يتم تطبيع الخوف من أي إسباني، وغرس الاستعداد للانهزام أمامه. وابتداءً من القرن السابع عشر وصفَ الأوروبيون خوف مواطني أميركا منهم بأنَّه استعداد طبيعي للخضوع للإنسان الأوروبي[29].

في بداية الغزو الإسباني اتَّخذ العنف في المكسيك صورة عروض تمثيلية مدبّرة بإحكام، استهدفت أحياناً تخويف المواطنين من دون عنف مفرط، لكن ذلك سرعان ما تغيَّر. يحكي كورتس أنَّه أعدَّ عرضاً تمثيلياً قتالياً على الساحل أمام رُسُل ملك المكسيك، أطلق فيه المدافع فارتفعت أصوات الانفجارات واقتلعت الأشجار وغطَّى الدخان السماء، ويقول إنَّ الرُسلَ نقلوا للملك صورة مخيفة أصابته بالهمِّ. يندرج هذا النوع من العروض ضمن الأفعال الرمزية التي تهدف إلى تهيئة مواطني المملكة لتلقِّي الهزيمة، عن طريق تضخيم قدرات الغزاة.

يُعتبر هذا النوع من العروض، التي ضخّمتها مخيِّلة المؤرِّخين الأوروبيين، من المكوِّنات الأساسية لقصَّة فتح الأندلس، فقد أسهبت النصوص العربية في وصف عروض عنف قدَّمها جنود طارق عند هبوطهم أرض الأندلس، هدفت إلى إثارة الرعب في المواطنين المحلِّيين وتدمير الروح المعنويَّة للجيش وغرست فيهم خوفاً واستعداداً مُسبقاً للانهزام أمام الغزاة. تقول بعض النصوص العربية إنَّه بعد اشتباك الغزاة مع قوات القوط على الساحل وقتل بعضهم وأسر البقيَّة؛ أمر طارق بتقطيع أجساد القتلى وجعلَ جنوده يتظاهرون بأكلها، ثم أطلق سراح الأسرى الذين شاهدوا ذلك. يقول ابن القوطيَّة: "فأخبر المنطلقون بذلك كلَّ من

29 انتقلت هذه الفكرة إلى مجالات المعرفة الاجتماعية وعُمِّمت صفة الخضوع للرجل الأبيض على كل شعوب الجنوب، ونسَبَ مفكرو وفلاسفة التنوير إليها شعوراً بالنقص أمامه، وأنَّها ذات استعداد مسبق للانقياد له . في المعرفة التاريخية الأوروبية الحديثة اصطُنِعت الارتباطات العميقة بين نظم المعرفة الاجتماعية والفلسفية من جهة، والأفكار الداعمة للتمييز والقهر من جهة أخرى، اعتماداً على ما توهَّمته المخيِّلة الأوروبية من دونيَّة الشعوب غير الأوروبية.

لقيهم، فملأ الله قلوبهم رعباً"[30]. ويقدِّم ابن عبد الحكم صورة دقيقة لذلك العرض المسرحي، فيقول:

"وكان المسلمون حين نزلوا الجزيرة وجدوا بها كرّامين، ولم يكن بها غيرهم فأخذوهم ثم عمدوا إلى رجل من الكرّامين فذبحوه ثم عضّوه وطبخوه، ومن بقي من أصحابه ينظرون، وقد كانوا طبخوا لحماً في قدور أُخر، فلما أُدرِكت طرحوا ما كان طبخوه من لحم ذلك الرجل، ولا يُعلم بطرحهم له، وأكلوا اللحم الذي كانوا طبخوه، ومن بقي من الكرّامين ينظرون إليهم فلم يشكوا أنَّهم أكلوا لحم صاحبهم. ثم أرسلوا من بقي منهم فأخبروا أهل الأندلس أنَّهم يأكلون لحم الناس وأخبروهم بما صُنِع بالكرّام"[31].

هنا يصف ابن الحكم عرضاً استهدف تحقيق نتيجة واقعية. فالقُدُور، التي طُبِخ فيها لحم من أسروه من الكرّامين، والكرَّام هو زارع الكَرْم، تُبدَّل سرَّاً بقدور فيها لحم حيوان ناضج، وتؤكل بشهيَّة أمام الأسرى ليوحي الحدث بحقيقة مخيفة، هي أنَّ جيش الغزاة من آكلي البشر. أمَّا صاحب الأخبار المجموعة، الذي كتب بأسلوب واقعي عن مسرح العنف عند غزاة الأندلس، فيقول عن دخول طارق إليها:

"فجازَ إليهم في شهر رمضان المعظَّم من سنة اثنين وتسعين للهجرة في جيش من اثني عشر ألف مقاتل: عشرة آلاف من البربر وألفان من العرب وسبعمائة من السودان. فلما جاز قدّمهم بين يديه في صورة مهولة، فرأى القوطيون صورة أفزعتهم، فكان السودان يأخذون الأسارى فيذبحون منهم ويطبخونهم، ويُورون من بقي منهم حياً أنَّهم يأكلونهم، فكان ذلك مما أوقع الرعب في قلوبهم فخافوهم"[32].

---

30 ابن القوطيّة: **تاريخ...**، ص 35.

31 Ibn Abd-El-Hakam, p. 3.

32 مؤلف مجهول: **أخبار...**، ص 153 - 154. وفي النسخة التي حقَّقها لويس مولينيا، انظر: ص 98.

هنا يُزاح أكل البشر من العرب إلى السودان ليُقدَّم بوصفه حدثاً حقيقياً وليس حيلة، فقد اعتقد العرب في ذلك الوقت أنَّ الأفارقة يأكلون البشر. ويرى مؤرِّخو الفتح أنَّ ذلك العرض جعل المواطنين المحلِّيين الأندلسيين يتناقلون بسرعة شديدة صورة مخيفة عن الغزاة، وبلغ الخبر الملك رودريك فسارع بإرسال رسله إلى الساحل لاستطلاع حقيقة من نزلوا بلده. ويقول ابن عبد الحكم عن حال رودريك، الذي كان بعيداً عن عاصمته حين وصله خبر الغزاة: "ووقع الخبر على لذريق وقوع الصاعقة فانزعج له وكرَّ راجعاً"[33].

في نصوص فتح أميركا يتكرَّر عرض أكل البشر أكثر من مرَّة، ولا يُقدّم فيها بوصفه عرضاً تمثيلياً كما في النصوص العربية، وإنَّما كممارسة حقيقية. فإلى جانب ما ورد حول أنَّ الأزتك اعتقدوا أنَّ الإسبان آلهة يأكلون البشر، تظهر حكاية آكلي البشر الذين يؤدِّي الخوف منهم إلى فتح المملكة، كما في فتح الأندلس. كان بدرو ألفارادو الذي غزا المكسيك مع كورتس وتوجَّه بعدها إلى غواتيمالا، يقدِّم بجيشه عروض أكل البشر ليثير الرعب في المواطنين، فكتب عنه لاس كاساس أنَّه كان يتبع الخطة التالية:

> **"حينما يريد مهاجمة مدينة أو منطقة حولها كان يأخذ معه أكثر ما يستطيع من القبائل التي هزمها من قبل، ولما كان لا يُطعم العشرة ألف أو العشرين ألفاً من المواطنين المحلِّيين الذين كانوا في جيشه، سمح لهم بأكل الأسرى [...] وكان يحضر بنفسه ذبح وشواء الأطفال، وتقطيع أيدي وأرجل الكبار [...]. ولما شاع خبر هذه الفظاعات تهجَّست كل شعوب الإقليم بالخوف، مثلها مثل بقيَّة أرجاء البلد"**[34].

تتأكَّد محاكاة هذا النص للنصوص العربية التي وصفت عروض التخويف، عند ملاحظة أنَّ لاس كاساس ينسب أكل البشر إلى حلفاء جيش الفتح وليس

---

33 السيد عبد العزيز سالم: **تاريخ...**، ص 70.

34 Las Casas, Bartolome; *A short ...,* p. 63

إلى الإسبان، مثلما نسبَ بعض المؤرِّخين العرب أكل البشر إلى السود في جيش طارق، لا إلى العرب. إنَّ مؤرِّخي الفتحَين يحتفظون لمواطنيهم بصورة المتحضِّرين ويزيحون التوحُّش والبربرية إلى مرافقيهم، ليُدانوا بأفظع الممارسات.

في ختام هذه المرحلة، بعد حصول كورتس على الكنز بدأ يفكِّر في كيفية الخروج بجنوده من مدينة مكسيكو، فقرَّر اتِّخاذ الملك رهينة يحمي بها جنوده واعتقله في قصره بدعوى أنَّه بدأ يحرِّض المكسيكيين على اغتيال الإسبان. وخوفاً من قتل زعيمهم، وبتوجيه منه، لم يتعرَّض المكسيكون للإسبان الذين بدأوا يخطِّطون للخروج من المدينة بما جمعوه من كنوز وغنائم، تحت ضمانة الرهينة الملكيَّة. يقول غُمارا إنَّ كورتس لمَّا طلب من موكتزوما أن يقدِّم نفسه رهينة:

> **"أمضى الاثنان أكثر من أربع ساعات يناقشون الأمر، وفي نهايتها قال موكتزوما إنَّه سيذهب مع كورتس [...] وأمر بإعداد غرفة له في سكن الإسبان، وذهب مع كورتس"**[35].

يقدِّم موكتزوما نفسه رهينة ليثبت حسن نواياه وعدم رغبته في الانقلاب على الإسبان، ويقول دياز إنَّ بعض أبناء موكتزوما وابنتهِ أُخِذوا رهائن معه أيضاً، وحاول الإسبان الاحتماء بهم عند هروبهم من مكسيكو لكنَّهم قُتِلوا[36].

كان المسلمون أيضاً قد أخذوا أبناء الحكَّام رهائن عند فتحهم للأندلس، لكن قبل دخولهم أرضها. فكما ذُكِرَ سابقاً، كان طارق حين أراد دخول الأندلس قد تحالف مع يوليان حاكم سبتة الذي أراد الانتقام من رودريك لأنَّه اغتصب ابنته، لكن طارقاً خشي أن يكون اتِّفاق يُوليان معه مكيدة يريد أن يستدرجه بها إلى الأندلس ليقضى عليه، فطلب منه تسليم رهينة من بيته ليضمن عدم انقلابه

---

35 Gómara, p. 170.

36 Diaz, p. 302.

عليه وإمكانية خروجه سالماً من الأندلس. يقول ابن عبد الحكم عن موقف طارق حينما عرض عليه يوليان المساعدة:

> **"... فقال طارق فإنِّي لا أطمئن إليك حتى تبعث إليَّ برهينة، فبعث إليه بابنتَيه ولم يكن له ولد غيرهما، فأقرهما طارق بتلمسين واستوثق منهما ثم خرج طارق إلى يُليان وهو بسبتة على المجاز ففرح به حين قدم عليه وقال له: أنا مُدخِلك الأندلس"[37].**

منذ فتح الأندلس وحتى سقوطها صار تقليد أخذ الرهائن مألوفاً فيها، ففي فتح غرناطة خشي الملك الإسباني فرديناند دخول المدينة وطلب من سلطان غرناطة، الذي كان قد وافق على تسليم المدينة، تقديم رهينتَين ملكيَّتَين ليأمن عدم انقلاب المسلمين على جيشه داخل المدينة، فأرسل له السلطان اثنين من أبنائه. وسيراً على هذا التقليد الأندلسي العريق، اتّخذ كورتس موكتزوما رهينة ليضمن خروجه من المدينة وعدم انقلاب المكسيكيين عليه. وتختلف ثيمة الرهينة في الأندلس والمكسيك بأنَّ الزعيم يرهن أبناءه في الأندلس، أمَّا في المكسيك فيرهن نفسه وأبناءه.

قارَنَ هذا الفصل بين خمسة عناصر سرديَّة تمثِّل مختلف جوانب المواجهة الرمزية في قصَّتي الفتحين، وهي: اعتقاد نبلاء المملكة بأنَّ الغزاة سيعودون إلى وطنهم، واستيلاء الغزاة على كنز الملوك السابقين، وحصولهم على مائدة ودرّة نادرتين، وتقديمهم لعروض عنف جماهيرية، وأسر الرهائن الملكيَّة. وللتوصُّل إلى حكم نهائي حول مقدار تماثُل قصَّتَي الفتحَين، يبقى القول الفصل للفصل التالي، الذي تنتقل فيه المواجهة بين الطرفين من مستوى الأفعال الرمزية إلى الصدام المسلَّح.

---

37 Ibn Abd-EL-Hakam, P. 2.

الفتحُ: حِصارٌ وسُقُوط

انتهى الفصل السابق بأن بدأ الإسبان يمارسون عنفاً مهَّد لتحوُّل المواجهة بينهم وبين المكسيكيين إلى صدام حقيقي. وقد اتَّخذ ذلك العنف في البداية صورة عروض مسرحية استهدفت فقط تخويف المواطنين، لكنَّه تحوَّل سريعاً إلى عنف حقيقي يستهدف استئصال المقاومة الشعبية التي بدأت تنتشر. وبعدها وقع حادث ساعد الإسبان على زيادة عدد قوَّاتهم وأهَّلَهم للدخول في المواجهة العسكرية. وللإلمام بذلك الحدث يلزمنا التنقُّل بين المكسيك وكوبا، التي يحكمها فيلاسكيز الرئيس المباشر على كورتس.

بعد أن علم فيلاسكيز بأنَّ كورتس بدأ غزو المكسيك دون إذن منه، وأنَّه حصل على كثير من الغنائم؛ اعتبره متمرِّداً وأرسل حملة على رأسها قائد اسمه بانفيلو نارفِز (Panfilo Narvaez) للقبض عليه وإحضاره إلى كوبا. وكان كورتس في هذا الوقت قد أخذ ملك المكسيك رهينة بعد أن عثر على الكنز، كما سبق التوضيح. وصل نارفِز سواحل المكسيك مع جنوده وبعث لكورتس بضرورة تسليم نفسه، ولمَّا علِم كورتس بأنَّ قوة الحملة تفوق قوة جيشه استقرَّ رأيه على تجنُّب الاصطدام بها والقبض على قائدها ليلاً في مسكنه وأخذه رهينة، حسب التقاليد الأندلسية، ليجبر جنود الحملة على الاستسلام. وبالفعل، سيطر كورتس على المكان الذي تحصَّن فيه نارفِز وجنوده واستطاع أسره، وتمكَّن من إقناع جيش الحملة بالانضمام إليه بدلاً من الرجوع إلى كوبا، فزادت قوَّة جيشه وعظمت قدرته على مواجهة المكسيكيين وتحقيق الفتح[1].

---

1 يروي كورتس قصَّة مطوّلة عن الحملة تشغل عشرين صفحة، انظر: Cortés, pp. 114-134.

قبل أن نعود مع كورتس إلى مدينة مكسيكو بعد أن هزم الحملة؛ نعود إلى قصَّة فتح الأندلس لنحافظ على توازي خط المقارنة بين قصَّتي الفتحَين، وكنا قد تركنا طارقاً يجمع كنز طليطلة. فعندما علم موسى، قائده المباشر وحاكم المغرب، أنَّ طارقاً غزا الأندلس دون إذنه وأنَّه جمع غنائم كثيرة، قرَّر أسره باعتباره متمرِّداً. ويقول بعض المؤرِّخين إنَّه أرسل مغيث الرومي، ويقول البعض الآخر إنَّه أرسل طريف المعافري، ويقول قسمٌ ثالث إنَّه سار بنفسه للقبض على طارق. وبغضِّ النظر عن اختلاف الروايات حول قائد الحملة، فالمهمُّ أنَّ موسى بعث بحملة للقبض على طارق بوصفه متمرِّداً على قائده. يقول ابن القوطيَّة: "فلما بلغ موسى بن نُصير ما تيسر له [أي لطارق]، حسدَه على ذلك، وقدم في خلق كثير..."[2]. ويقول أبو إسحاق الرقيق: "وبلغ موسى بن نصير أنَّ طارق بن زياد فتح الأندلس ودخلها فخاف أن يُحظى بذلك عند الخليفة، فغضب غضباً شديداً، وكتب إليه يعنِّفه إذ دخلها بغير أمره، وأمره ألّا يجاوز قرطبة"[3]. ويؤكِّد مؤرِّخون آخرون أنَّ موسى توجَّه إلى طارق بنفسه عازماً على معاقبته، لكن طارقاً سارع بالاعتذار إلى موسى. يقول ابن حبيب:

> **"ثم خرج موسى بن نصير يريد الأندلس إلى مولاه طارق في رجب، وكان قد غضب عليه غضباً شديداً، وسار نحو الأندلس في عشرة آلاف، فتلقَّاه طارق وترضّاه، فرضي عنه وقبل منه"**[4].

لمّا علم طارق أنَّ جيش الحملة يفوق قوة جنده لم يصادمها، والنصوص العربية مجمعةٌ على أنَّه نجح في استرضاء موسى بأن تنازل له عن الغنائم. يقول صاحب الأخبار المجموعة إنَّ طارقاً حينما سمع بقدوم موسى إلى

2 ابن القوطيّة: **تاريخ...**، ص 35-36.

3 الرقيق: **تاريخ...**، ص 44.

4 ابن حبيب: **التاريخ**، ص 144.

الأندلس "خرج إليه معظِّماً له... فلما رآه نزل إليه فوضع موسى السوط على رأسه وأنَّبه فيما كان فيه من خلاف رأيه، ثم سار به إلى طليطلة ثم قال له أحضرني بما أصبت..."[5]. ويقول المقري: إنَّ موسى اصطلح مع طارق وأقرَّه على مقدِّمة الجيش وسار خلفه "فكان طارق يتقدَّم ويأتي موسى في عقبه موثِّقاً صلحه مع الإسبان"[6]. وهكذا استطاع طارق أن يضيف إلى جيشه قوة الحملة التي جاءت للقبض عليه، فقوِيَ جانبُه في مواجهة الأندلسيين.

تتَّفق قصَّتا فتح المكسيك وفتح الأندلس في أنَّ الحاكم عدَّ قائد حملة الفتح متمرِّداً لأنَّه بدأ الغزو وجَمَع الغنائم دون إذنه، رغم أنَّه رئيسه المباشر، فأرسل حملة للقبض عليه. لكن أمر الحملة ينتهي إلى نتيجة عكسية، فالقائد ينجح في قلب الموقف عن طريق تجنُّب الاصطدام المباشر بجيش الحملة، ويكسب قوتها ويضيفها إلى جيشه، فيدعم قدرته على مواجهة جيش المملكة التي يغزوها ويقترب من تحقيق الفتح.

عوداً إلى كورتس، فبعد أن هزم حملة نارفِز وصلته أنباء ثورة قام بها المكسيكيون على جنوده الذين كان قد تركهم في العاصمة مكسيكو يحرسون موكتزوما، المأخوذ رهينة. وقد ثار المكسيكيون لأنَّ الإسبان أقاموا مذبحة عنيفة لتخويفهم[7]. ولكن العرض الذي نُفِّذ بأقصى درجات العنف، وقُتِلَ فيه مئات الزعماء المكسيكيين أتى بنتيجة عكسية تماماً، فقدحَ زناد الثورة وحُوصِر الإسبان داخل قصر موكتزوما. وحين وصل كورتس إلى مدينة مكسيكو وجد جنوده محاصرين في القصر، فتمكَّن من اختراق الحصار والدخول إليهم.

---

5 مؤلف مجهول: **أخبار...**، ص 18.

6 السيد عبد العزيز سالم: **تاريخ...**، ص 101-100.

7 كتب لاس كاساس موثقاً خبر تلك المذبحة: "قرَّر الحرس إقامة عرض عنف مسرحي ليبثوا الخوف في شعب هذه المملكة، وكان ذلك تكتيكاً إسبانياً كلاسيكياً في تلك الحملات". انظر:
Las Casas, Bartolome; *A short ...,* p.p. 49-50.

قرَّر كورتس الهرب بجنوده في الليل مع الكنوز التي قسَّمها فيما بينهم، وحصل لنفسه منها على شيء كثير كان حمله يحتاج إلى سبعة خيول وثمانين رجلاً. وكان لا مفرَّ للإسبان الهاربين من أن يمرُّوا بقوات الأزتك التي تحاصر القصر؛ ووجب على كل واحد منهم أن يكون خفيف الحركة، غير مثقل بالأحمال، ليتمكَّن بسرعة كافية من عبور جسر المدينة، الواقعة وسط بحيرة تحيط بها من كل الجهات. رغم ذلك الشرط الملزم، تقول نصوص المؤرِّخين إنَّ معظم الإسبان انهمكوا في حمل كل ما يمكن أخذه من الذهب والحجارة الكريمة، فأخفوا شيئاً كثيراً في ملابسهم، وانتظروا أن تسنح لهم فرصة مناسبة لاختراق الحصار. فهيَّأ الله الفرصة لهم بأن أرسل رياحاً عنيفة ومطراً غزيراً اضطربت معه قوات الأزتك التي تحاصرهم. يقول دوران واصفاً ما جرى:

"كانت العاصفة قوية مع رياح شديدة ومطر وجليد، فاضطر الأزتك إلى رفع الحصار وانطفأت نيران المشاعل، وهرباً من هذا الوضع المزعج عاد الجميع إلى بيوتهم. ولما رأى كورتس ذلك [...] أمر الجميع بالهدوء، وأن يغادروا القصر بنظام وصمت"[8].

في البداية عبَرَ كورتس الجسر في صمت تام يتبعه الحمّالون، يليهم الجنود الذين لم يثقلوا أنفسهم بأحمال من الكنز، فمرُّوا بسلام أيضاً[9].

لنقف هنا لحظة نراجع ما جرى في الأندلس في لحظة متقدِّمة من فتحها، ثم نعاود السير مع كورتس وجنوده في أثناء محاولتهم التخلُّص من الحصار. فبعد أن هزم طارق القوط، توجَّه بجيشه إلى طليطلة متتبِّعاً أثر الجيش المهزوم وبعث بمغيث الرومي إلى قرطبة، حيث لجأ ملك القوط الذي يلي رودريك في المكانة، حسبما تقول بعض النصوص العربية. وعندما وصل مغيث المدينة علِم أن الملك احتمى مع جيشه بحصن فيها، تحيط به مياه نهر قرطبة[10].

8 Duran, p. 543.

9 المرجع السابق، ص 544.

10 هو أعظم أنها رالأندلس الستة الكبيرة. انظر: مؤلف مجهول: **ذكر...**، تحقيق لويس مولينا. ص 11.

حاصر المسلمون الملك الأندلسي في حصنه زمناً ينتظرون الفرصة المناسبة ليتمكَّنوا من عبور الأسوار، ويقول مؤرِّخ عربي:

"فلمَّا أجنّهم الليل أقبل مغيث، وممَّا هيَّأ الله له الفتح أرسل السماء برذاذ مختلط بقطقط، فأقبل على نهر قرطبة ليلاً، وقد غفل حرس السور عن الحراسة خوفاً من البرد والمطر [...]، فدخل القوم حتى عبروا النهر وليس بين النهر والسور إلا قدر ثلاثين ذراعاً أو أقل..."[11].

تهيَّأت الفرصة لجيش المسلمين بنزول المطر والقطقط، وهو البَرَد أو الجليد، وانسحب حرس العدو من مواضعهم اتِّقاء سوء الجو، فعبَر المسلمون الماء ودخلوا الحصن. تماماً كما سيحدث لكورتس وجنوده في المكسيك بعد ثمانية قرون ممَّا حدث لمغيث. والفرق الوحيد أنَّه في فتح المكسيك يكون الغزاة محاصرين ويحتاجون عبور الماء للخروج من الحصن، بينما في فتح الأندلس يكون الغزاة خارج الحصن ويعبرون الماء لأنَّهم يريدون الدخول إلى الحصن. فاختلاف موقعَي الغزاة ما بين داخل الحصن وخارجه لا أثر له على تماثُل سير الأحداث التي تتَّفق تماماً في طبيعتها ووظيفتها ومنطق ترتيبها. في القصَّتين يهيِّئ الله الفرصة للغزاة بإرسال مطر وجليد يتسبَّبان في انسحاب الحرس وفضّ الرقابة عن الحصن، فيتمكَّن الغزاة من عبور العائق المائي، سواء كان ذلك بالدخول إلى الحصن أو بالخروج منه، وفي الحالين تنتهي حالة الحصار لصالحهم، ويأتي الفرق في الحدث الذي يلي ذلك: فبينما ينتصر الغزاة المسلمون على أهل المملكة في قرطبة، يخسر الإسبان معركة عبور الجسر[12].

---

11 مؤلف مجهول: **أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها –رحمهم الله- والحروب الواقعة فيها بينهم**، (مدينة مجريط: مطبعة ربندنير، 1867م). ص 10 - 11.

12 وردت قصَّة المطر والثلج الليلي التي تعين المسلمين على دخول الحصن في فتوحات أخرى غير فتح الأندلس، منها فتح صقلية، وهذا يبين أنَّها كانت جزءاً مألوفاً من خطاب فتوحات المسلمين. ففي فتحهم لمدينة "قصرية" دلهم أحد المواطنين على منفذ الحصن وأدخلهم إليه في ليلة مطر وبَرَد غفل بسببه الجنود عن الحراسة، فقضى المسلمون عليهم وفتحوا باب الحصن لبقيتهم، وهزموا جيشها وغنموا كثيراً. انظر: الحميري (أبي عبد الله محمَّد بن عبد الله بن عبد المنعم): **الروض المعطار في خبر الأقطار** (بيروت: مكتبة لبنان، 1984). ص 476.

عوداً إلى قصَّة فتح المكسيك، بعد خروج كورتس تحت ستار المطر شعرَ المكسيكيون بتسلُّلِه. واصفاً ما جرى، كتب دوران أن الإسبان الهاربين:

"عندما غادروا المبانى التي كانوا يقيمون فيها، لم يكونوا قادرين على السير بهدوء بسبب ذلك الكنز. وحدث أن صعد رجل وامرأة على سطح أحد البيوت، وعندما رأيَا ما يجري صاحَا: اخرجوا أيها الأزتك، إنَّ المجرمين يهربون، أسرعوا إنَّ الخونة يغادرون"[13].

هنا اندفع المكسيكيون من كل جانب، وقطعوا على الإسبان الطريق فوق الجسر، فبدأ هؤلاء يتساقطون في المياه، ولثقل أجسادهم المحمَّلة بالذهب غرق معظمهم. ونزل الجنود المكسيكيون إلى القناة بالمراكب، فكان كل إسباني يحاول عبور الجسر أو يقطع القناة سباحة يلقى حتفه، فامتلأت المياه بالجثث، وغرق معها كثير من ذهب الكنز. ثم تمكَّن المكسيكيون من رفع الجسر المتحرِّك وقطعوا الطريق على كل إسباني تأخَّر ليحمل شيئاً من ذهب الكنز، فتقهقر بقيَّتهم إلى حيث كانوا محاصرين في قصر موكتزوما. وهناك، حسب قول دوران، تمكَّن المكسيكيون من الإحاطة بهم فقتلوهم جميعاً[14]. أمَّا الذين نجوا بأرواحهم فتوجَّهوا مسرعين بقيادة كورتس إلى أرض القبائل الحليفة. مات من الإسبان في هذه المواجهة حوالي سبعمئة جندي غرقاً وطعناً، وكانت تلك خسارة كبيرة لهم استنفدت ما أضافه كورتس إلى قواته من رجال حملة نارفِز، فلم يبقَ معه سوى خمسمئة جندي تقريباً، كثير منهم جرحى، والبقية منهكون. وفسَّرَ بعض المؤرِّخين هزيمة الإسبان وموت أغلبيتهم بطمعهم. يقول غُمارا:

"بين رجالنا، كان أولئك الذين أثقلوا أنفسهم بالثياب والذهب والجواهر هم أوَّل الموتى، والذين نجوا كانوا الأقل حملاً وساروا بلا خوف. فالذين ماتوا منهم ماتوا أغنياء، وقد قتلهم ذهبهم"[15].

---

13 Duran, p. 544.

14 المرجع السابق، الصفحة السابقة.

15 Gomara, p. 222.

يرى دوران أيضاً أنَّ الإكثار من حمل الذهب كان سبب خسارة الإسبان لأرواحهم، فالمكسيكيون علموا بهروبهم لأنَّهم أحدثوا ضوضاء شديدة بما حملوا من ذهب كثير[16]. وتعتبر حادثة مقتل الجنود بسبب الطمع حدثاً أساسياً في قصَّة فتح المكسيك؛ لأنَّها تفسِّر خسارة الإسبان لمعظم قواتهم التي كانوا يحتاجونها لتحقيق الفتح.

في الجانب الآخر، أوردت النصوص العربية لفتح الأندلس تحت اسم "حادثة الغُلُول" قصَّة مماثلة حول غرق الجنود المسلمين الطامعين في الكنز. والغلول في اللغة العربية هو كل ما أُخِذ بغير حقّ، ومعناه المخصوص في الحرب: أخذ ما يزيد عن الحقِّ الشرعي في الغنائم، أو الأخذ منها قبل قسمتها الشرعيَّة. فقد أخفى عدد من أفراد جيش الفتح كثيراً من الذهب والجواهر بطريقة غير شرعية، وحاولو الهروب إلى المغرب لبيعه. كتب ابن حبيب:

> **"... فأصاب الناس من الذهب والفضة والمتاع ما لا يُحصى قدره ولا يُدرَى قيمته، فغلَّ الناسُ يومئذ ثم ركبوا البحر يريدون طنجة، فلمَّا توسَّطوا البحر سمعوا منادياً ينادي: غرِّق بهم فإنهم قد غلّوا، فوثبوا إلى المصاحف فعلَّقوها من رقابهم ثم دعوا الله عز وجل، ورغبوا إليه، ثم نادى منادٍ فانكفأت بهم السفينة فما سلم منهم إلا ما شاء الله"[17].**

ذكَرَ الحادثة أيضاً ابن عبد الحكم، وأشار إلى أنَّها تكرَّرت في غزو المسلمين لجزيرة سردانية[18]. وبالإضافة إلى إيراد مؤرِّخي الأندلس للحادثة، يُلاحَظ أنَّهم فسَّروا غرق ناهبي الكنز بأنَّه كان نتيجة طمعهم في أخذ أكبر قدر ممكن من الغنائم، معتبرين ذلك عقوبة إلهية لهم، وهو التفسير نفسه الذي سيكرِّره بعدهم مؤرِّخو فتح المكسيك.

---

16 Duran, p. 544.

17 ابن حبيب: **التاريخ**،... ص 144.

18 Ibn Abd-El-Hakam, pp. 6-7.

نعود إلى ما جري في المكسيك بعد هروب كورتس وجيشه من المدينة، فقد دخل المكسيكيون القصر باحثين عن ملكهم الأسير، ولكنهم وجدوه مقتولاً. واختلف مؤرِّخو الفتح حول قاتله، فكورتس وغُمارا ودياز يقولون إنَّه مات بضربة حجر في رأسه من أحد المكسيكيين أثناء الحصار، حين أطلَّ عليهم من أعلى القصر لتهدئتهم بطلب من الإسبان. ويقول المؤرِّخون الذين يعتمدون رواية المواطنين المحليين، ومنهم دوران، إنَّ الإسبان هم الذين قتلوه، ويستدلُّون على ذلك بأنَّه وُجِدَ مطعوناً عدة طعنات وليس مضروباً في رأسه.

كان ذلك مصير موكتزوما، أمَّا الإسبان الذين نجحوا في الهرب فقد كانوا في أضعف حال، حتى إنَّهم تركوا جرحاهم يتساقطون في يد المكسيكيين الذين ظلوا يطاردونهم لمسافة طويلة خارج المدينة، لعجزهم عن توفير الحماية لهم. وبسبب عدم قدرتهم على الحصول على الطعام اضطرَّ الإسبان إلى أكل ما مات من خيولهم الجريحة، وحين تمكَّنوا أخيراً من بلوغ أرض حلفائهم من قبائل التلاكسكالا، حصلوا هناك على الحماية والعلاج والراحة، وبقوا عدة شهور يستجمعون قواهم ويستقطبون الحلفاء. ثم بدأوا يفكِّرون ثانية في مهاجمة مدينة مكسيكو، لكن بخطَّة جديدة هذه المرَّة.

بعد سنة تقريباً من هروبهم ولجوئهم إلى أرض حلفائهم التلاكسكالا توجَّه الإسبان، وهم لا يزيدون عن خمسمئة جندي، إلى العاصمة مكسيكو يرافقهم عدد كبير من الحلفاء، وبدأوا حصارها. وفي هذه المرحلة الختامية من قصَّة الفتح تحتل الحيل الحربية مكانة مُهمَّة يعزو لها المؤرِّخون أنَّها رجَّحت كفَّة الإسبان على المكسيكيين. ومن الحيل التي تركِّز عليها قصَّة فتح المكسيك كثيراً، حيلة يوردها كورتس أربع مرات وتؤدِّي دوراً أساسياً في هزيمة المواطنين والتعجيل بالانتصار، فقد أتاحت له اختراق تحصينات المدينة والدخول إليها وقتل أعداء كثيرين لفترة خمسة أو ستة أيام متتالية. وعن تلك الحيلة، يقول كورتس، إنَّه كان يخفي جزءاً من جيشه في مكان بعيد ويتقدَّم نحو المكسيكيين

بقوة قليلة ليناوشهم، ثم يتظاهر بالانهزام ويتراجع هارباً؛ ليغريهم بمطاردته ويسحبهم إلى حيث يكمن جنوده، فينقضُّون عليهم من حيث لا يتوقَّعون، وحين يشتبك المكسيكيون مع جنود الكمين ينقلب كورتس راجعاً ليطبق عليهم الإسبان من الجهتين، فينجحون في إفنائهم[19]. ويقول كورتس إنَّ هذه الحيلة نجحت في جميع المرات.

رغم أنَّ هذه الحيلة التي تُعرف في التقاليد الحربية باسم "حيلة الكمين" مألوفة لدى معظم الشعوب، إلا أنَّها ترِد في نصوص فتوحات المسلمين لتؤدِّي دوراً معيَّناً أثناء الحصار وهو فتح الثغرات في تحصينات العدو لإضعافه، وهذا هو السياق نفسه الذي يوردها فيه كورتس. ففي فتح الأندلس حاصر موسى مدينة "ماردة" ووجد مقاومة عنيفة تغلَّب عليها بحيلة الكمين، فأورد صاحب الأخبار المجموعة أنَّ موسى وجد منطقة حول المدينة المحاصرة:

> **"رأى فيها حفراً كانت مقاطع الصخر فأكمن فيها رجاله ليلاً، وفي اليوم الثاني قاتلهم حتى إذا انحازوا إليه برز المسلمون من كمينهم فقتلوهم وثبتَ المسلمون يقاتلونهم شهراً..."**[20].

الشيء الذي يدلُّ على أنَّ حيلة الكمين عند فاتحي المكسيك ترتبط بما يقابلها في فتح الأندلس هو أنَّها تحاكيها في الأماكن التي تدور فيها، وهي المدن المحاصَرة، وفي وظيفتها أيضاً وهي استنزاف قوة العدو وإنهاكه، وليس فقط في صورتها العامة من حيث هي خدعة حربية.

تقول نصوص فتح المكسيك إنَّ عبقرية ابتكار الحيل الحربية لم تقتصر على الإسبان وحدهم. فمع تقدُّم الحرب واشتداد وطأة الحصار استخدم المكسيكيون حيلاً عدَّة بعد أن خسر الملك كواوتموك (Cuauhtémoc)، الذي تولَّى حُكم

---

19 Cortés, pp. 56- 250.

20 مؤلف مجهول: **أخبار...**، ص 25.

المكسيك بعد مقتل ملكها موكتزوما، عدداً كبيراً من رجاله أثناء الحصار، ولم يعد جيشه قادراً على الاستمرار في الدفاع عن المدينة. ولكي يمنع الملك الجديد معرفة الإسبان بضعف قوته، دبَّر حيلة جعلتهم يظنُّون أنَّ مدداً من جيش كبير وصل إليه. يقول دوران إنَّ ملك المكسيك حينما تأكَّد له نقص رجاله:

"قرَّر عدم إبداء الضعف، وتظاهر بأنَّ المحاربين الذين يقاتلون من أجله لا ينقصونه. فجمع نساء المدينة وقد حملن السيوف والدروع، وفي الفجر الباكر قبل طلوع الشمس صعدن إلى سطوح البيوت ووقفن في هيئة الاستعداد للحرب، وتقدَّم كواوتموك الشجاع وهو يقود حلفائه من التلاتلولكو، مع رجاله القليلين، لمواجهة الأعداء. وحينما رأى كورتس أعداد المحاربين الكبيرة تغطي السقوف وتملأ الشوارع، خشي ألّا يتمكن من فتح المكسيك من دون أن يؤذي الإسبان وأصدقاءهم، فاستعجل جنود تشالكا وتزكوكو وتلاكسكالا وتاكوبا أن يتشجعوا ويحسموا المَهمَّة، فتقدَّم رجالهم للنزال وهنا اكتشفوا أنَّ المحاربين الواقفين على السطوح نساء، فأخبروا كورتس بذلك، وبدأوا في استفزاز العدو والإساءة إليه، والتنكيل به"[21].

قبل الإسبان أوردت النصوص العربية لفتح الأندلس حيلة "النساء المحاربات" ضمن وقائع فتح مدينة أريولة. ففي أثناء حصار المسلمين للمدينة قتلوا عدداً كبيراً من جنودها، فخسر قائدها المسمَّى (تُدمير) (Theodmir)، الذي تصفه النصوص العربية بأنَّه كان "داهيةً مجرَّباً"، عدداً كبيراً من قواته وبعدها تحصَّن خلف أسوار المدينة مع ما بقي من المحاربين، يحمون نساءها وأطفالها. يقول صاحب الأخبار المجموعة عن ما فعله القائد في الليل:

"فلمَّا رأى أن لا بقية في أصحابه أمر النساء فنشرن شعورهنَّ وأعطاهنَّ القصب وأوقفهنَّ على سور المدينة وأوقف معهنَّ بقيَّة من بقي من الرجال في وجه الجيش، حتى عقد على نفسه، ثم هبط بنفسه كهيئة الرسول،

---

21 Duran, p. 555.

فاستأمَن فأُمِّن، فلم يزل يراوض أمير ذلك الجيش حتى عقد على نفسه الصلح...“[22].

تقول النصوص العربية إنَّ الحيلة انطلت على المسلمين؛ لأنَّهم لمَّا رأوا في الظلام ما ظنوه رجالاً كثيرين على السور؛ خافوا الخسارة واستحسنوا الصلح، ولما خرج إليهم القائد متخفّياً في هيئة جندي يعرض عليهم الصلح، قبلوا به. وعندما دخلوا الحصن ولم يجدوا فيه جنوداً أخبرهم بما فعل، فندموا، لكنهم أوفوا بشرط الصلح. وهكذا تتكرَّر نفس عناصر حيلة النساء المحاربات في قصَّتَي الفتحَين: خسارة الجنود، وإظهار النساء بالسلاح في الظلام، ونجاح الحيلة في البداية، ثم اكتشافها[23]. ورغم أنَّ الحيلة لا تحقِّق غرضها في غزو المكسيك فإنَّها تنطلي على الغزاة، كما في فتح الأندلس، ولا يكتشفها إلا حلفاؤهم التلاكسكالا.

بعد فشل حيلة النساء المحاربات تأكَّد الإسبان من قرب انهيار دفاعات المدينة بسبب نقص المحاربين والغذاء، فكان لا بدّ من عمل حاسم يزيد الضغط على ملك المكسيك ليعجِّل باستسلامه. وهنا قرَّر كورتس قطع ماء الشرب عن المدينة، وكان يأتيها من الخارج عبر أنبوب يمرُّ من تحت الأرض، فأرسل عشرين جندياً وقائدَين إسبانيين، ورغم تعرُّضهم لهجوم شرس من محاربي المكسيك نجحوا في تدمير الأنبوب[24]. ويقول دياز إنَّ قطع المياه كان مَهمَّة بالغة الصعوبة للإسبان ولم يتحقَّق بالسهولة التي قال بها كورتس، فبعد نجاحه في المرَّة الأولى استعاض المكسيكيون عن ماء الأنبوب بحفر آبار داخل

---

22 بلا مؤلف: **أخبار...**، ص 13.

23 وردت هذه الحيلة في النصوص العربية لأول مرة ضمن قصص حروب العرب ضد بعضهم في فجر الإسلام. وكان أول من فعلها رجل اسمه ”مجاعة“، حاصره خالد بن الوليد في حربه مع بني حنيفة قوم مسيلمة، فأوقف النساء على سور الحصن البعيد بحيث لا يتبين المسلمون حقيقتهن، ثم عرض على خالد الصلح فانخدع وصالحه، ثم تبين له أنَّ من ظنهم جنوداً كانوا نساءً. انظر: ابن كثير: **البداية...**، ص 472.

24 Cortés, p.209.

المدينة، ولكن الإسبان تمكّنوا من اختراق دفاعات المدينة وخرَّبوها، وبعدها بدأت قوة المكسيكيين تتدهور سريعاً[25].

في فتح الأندلس أيضاً كان قطع قناة مياه الشرب عن جيش القوط المحاصَر في مدينة قرطبة هو العمل الحاسم في فتح المدينة، التي تقول بعض النصوص إنَّها كانت مقرُّ ملك الأندلس، والخطوة الحاسمة في سقوط الأندلس كلها. أحاط المسلمون بجيش القوط داخل حصن صمدوا فيه زمناً، حتى عرف المسلمون أنَّ الماء يدخله بواسطة مجرى يأتي من عين بعيدة ويمرُّ تحت أسوار الحصن[26]. فبحثوا عنه حتى عثروا عليه وقطعوه، فاشتدَّ كرب الجنود المحاصرين وزاد ضغط المسلمين عليهم حتى سقط الحصن وفُتحت قرطبة. في القصَّتين يكتشف الغزاة مجرى الماء ويقطعونه، ويكون ذلك سبب انهيار دفاعات العدو وسقوط المدينة.

بعد أن قطع كورتس الماء أنزل ثلاثة عشر مركباً، كان قد صنعها حلفاؤه المواطنون بإشراف الإسبان، إلى مياه القناة، وتوجه بها إلى مدينة تنوتشتيتلان وعليها بعض حاملي السلاح الناري[27]. وظهرت فاعلية المراكب الإسبانية في تدمير مراكب المكسيكيين، لصغر حجمها، ودفعتها إلى التراجع نحو المدينة[28]. وهذا العنصر الخاص بدور المراكب لا يوجد في قصَّة فتح الأندلس، ولكنه مستعار من تاريخ فتوحات الرومان، كما أوضح برسكوت.

لا يقف تماثل مرحلة الحرب في قصَّتي فتح الأندلس وفتح المكسيك عند حيل الكمين والنساء المحاربات وتدمير أنبوب المياه، لأنَّ الحصارَين ينتهيان بالطريقة نفسها. فبعد أن طال حصار مدينة مكسيكو، عجزَ جيشها عن

---

25 Diaz، p. 392.

26 السيد عبد العزيز سالم: **تاريخ...**، ص 88.

27 Cortés, p. 212.

28 المرجع السابق، الصفحة السابقة.

الصمود لقلة الرجال والغذاء والماء، فاقتحمها الإسبان وحلفاؤهم. وعندما تأكَّد للملك كواوتموك انهزام قوَّاته وسقوط عاصمته، حاول الهرب، لكن الإسبان تمكَّنوا من القبض عليه؛ لأنَّه بدلاً من أن يخفي نفسه خرج بموكب من المراكب الفخمة عليها زينة فاخرة وهو جالساً على عرشه، فكان المظهر المميَّز للمراكب بزينتها سبب التعرُّف على الملك وأسره، وبذلك سقطت المدينة وفُتحت المكسيك، حسب رواية الإسبان. وعن ذلك يقول دياز:

"شاء الرب أن يكون غارسيا هولغين هو من يقبض على مركب كواتموك [كواوتموك] التي، بسبب زينتها الثمينة وعرشه الملكي المحمول عليها، عُرِف أنَّها تحمل ملك المكسيك"[29].

في قصَّة غزو المسلمين للأندلس أيضاً كان ظهور الملك رودريك في ساحة المعركة بزينته الكاملة هو سبب التعرُّف عليه وقتله. كتب أبو إسحاق الرقيق حول المواجهة الحاسمة بين المسلمين وجيش القوط:

"وجاز طارق إلى الأندلس...، فلما بلغ ملوك الأندلس خبره، نفروا إلى الملك الأعظم، وهو لذريق [رودريك] وكان طاغياً، في جموع عظيمة على دين النصرانية، وزحف إلى طارق في عدة عظيمة وعاد بسرير من ذهب مكلل بالدّر والياقوت...، وحفّت به الرجال وقعد لذريق على سريره، وعلى رأسه تاج وعليه قفازان مكلَّلان بالدرِّ والياقوت وجميع الحلية التي يلبسها الملوك قبله، فلما انتهى إلى الجبل الذي فيه طارق، خرج إليه وجميع أصحابه رجالة ليس فيهم راكب..."[30].

أما الطبري الذي يطلق على رودريك اسم "الأدرينوق" بدلاً عن "لذريق"، الاسم الغالب في النصوص العربية؛ فيقول عن لقاء المسلمين بالقوط:

---

29 Diaz, p. 402.

30 الرقيق: **تاريخ...**، ص 43.

"زحف الأدرينوق في سرير الملك، وعلى الأدرينوق تاجه وقفَّازه وجميع الحلية التي كان يلبسها الملوك، فاقتتلوا قتالاً شديداً حتى قتل الله الأدرينوق، وفتح الأندلس..."[31].

وبعد أن تعرَّف طارق على رودريك بسبب زينته الملكيَّة وقتله على عرشه، هرب جيشه وانتصر المسلمون. كتب ابن خلكان، حسبما نقل عنه المقري:

"فلمَّا رأى طارق لذريق قال: هذا طاغية القوم، فحمل وحمل أصحابه معه، فتفرَّقت المقاتلة من بين يدي لذريق، فخلص إليه طارق فضربه بالسيف على رأسه، فقتله على سريره، فلما رأى أصحابه مصرع صاحبهم اقتحم الجيشان وكان النصر للمسلمين، ولم تقف هزيمة العدو على موضع، بل كانوا يسلمون بلداً بلداً ومَعقِلاً مَعقِلاً"[32].

إنَّ القول بأنَّ زينة ملك القوط وظهوره على عرشه الملكي كانا سبب موته وانهزام جيشه، ثابت عند جميع مؤرِّخي فتح الأندلس. فبالإضافة إلى من سبق الاقتباس منهم، أثبته ابن عبد الحكم وابن القوطيَّة وابن الأثير وابن عذارى والمؤلِّف المجهول. وهكذا، تتطابق حكاية القضاء على الزعيمين في قصَّتي فتح المكسيك وفتح الأندلس، فبسبب ظهورهما بزينة ملكية مميزة، يتعرَّف عليهما الغزاة فيقتلونهما وينهزم الجيشان، وتُفتح المملكتان. والفرق الوحيد بين القصَّتين هو في اللحظة الزمنية التي يقع فيها الحدث. ففي فتح الأندلس يأتي الحدث في بداية القصَّة لأنَّه يقع للملك الأول، أمَّا في فتح المكسيك فيقع للملك الثاني، ولهذا يأتي في نهاية القصَّة.

عوداً إلى فتح المكسيك، بعد أن قبض هولغين على الملك نازعه عليه قائده المباشر "غونزالو ساندوفال" القائد العسكري الذي يعمل هولغين تحته، مدَّعياً أنَّ شرف القبض على الملك يجب أن يكون له هو[33]. يقول دياز:

---

31 الطبري: **تاريخ...**، ص 468.

32 المقري: **نفح** ...، ص 242.

33 Diaz, p. 403

"عندما علم ساندوفال بالخبر أمر سائق قاربه بالإسراع بأقصى سرعة ممكنة، ولحق بهولغين وطالبه بتسليم الأسير. ورفض هولغين طلبه، قائلاً إنَّه هو الذي قبض على الملك وليس ساندوفال. فرد ساندوفال بأنَّ هذا حدث فعلاً، لكنه هو القائد وهولغين جندي تحته..."[34].

تصاعد الخلاف بين الرجلين حول من يملك شرف القبض على الملك، حتى وصل خبره إلى كورتس، الذي لم يتمكَّن من الفصل بينهما، فرفع الخلاف إلى الملك في إسبانيا. كتب دياز:

"قال كورتس أنه سيرفع الأمر إلى جلالته، بخصوص من الذي سيضع نيشان القبض على الملك في زيه العسكري، بما أن ذلك [القرار] يجب أن يصدر من إسبانيا..."[35].

في قصَّة فتح الأندلس حدث الشيء ذاته، فقد أثارت حادثة أسر ملك قرطبة خلافاً حول من له شرف القبض عليه، ورُفِع الخلاف أيضاً إلى الخليفة. فبعد أن لحق موسى بن نُصير بجيش طارق في الأندلس حاصر المسلمون ملك قرطبة، الذي كان يلي الملك رودريك في المكانة[36]. وحين اشتدَّت وطأة الحصار حاول الملك الهرب سرَّاً، لكن مغيث الرومي انتبه إلى خروجه فطارده إلى أن قبض عليه. فنازعه موسى شرف القبض عليه بحُجَّة أنَّه قائد مغيث، وما يحقِّقه يجب أن يُنسَب إلى موسى. وصفَ صاحب الأخبار المجموعة ما جرى بين موسى ومغيث بقوله: "فبعث إليه موسى هات العلج، فقال والله لا تأخذه وأنا أقدُم به على الخليفة، فهجم عليه فنزعه منه"[37]. ويقول المقري: إنَّ

---

34 المرجع السابق، الصفحة السابقة.

35 المرجع السابق، ص 405.

36 يقول المؤلف المجهول عن قرطبة، نقلًا عن ابن حيان: "قرطبة دار ملك بني أمية ولذريق الرومي قبلهم...". انظر: **ذكر...**، ص 31.

37 مؤلف مجهول: **أخبار...**، ص 19.

أصحاب موسى هم الذين نصحوه بقتل الملك الأندلسي؛ لأنَّه إذا قدم به على الخليفة فإنَّ مغيث سيدَّعي شرف القبض عليه[38]. ويقول مؤرِّخ آخر إنَّ مغيث لمَّا رأى إصرار موسى على أخذ الملك قال له "أنا أصبته ولكن أضرب عنقه، ففعل"[39]. ورغم هذه النهاية الدرامية للملك الأندلسي لم يتنازل مغيث عن حقه، ورفع أمر خلافه مع موسى إلى الخليفة في دمشق[40].

ينتهي فتح المكسيك بالقبض على كواتموك، ملك المكسيك الثاني، وقتله بواسطة قادة جيش كورتس بينما هم يعذبونه لمعرفة المكان الذي أخفى فيه كنوزه، فراح ضحيَّة رغبتهم في تحصيل المال وموافقة كورتس على تصرفاتهم. كتب دياز عن الكيفية التي قتل بها قادة جيش كورتس الملك كواتموك:

"ليتجنَّبوا وقوع أيَّة إدانات لكورتس الذي لم يمنع تصرُّفاتهم، قاموا بتعذيب كواتموك وزعيم تاكوبا (Tacuba) عن طريق حرق باطن أقدامهم بالزيت، فحصلوا على اعتراف منهم ..."[41].

مثلما قُتل الملك الثاني للمكسيك نتيجة موافقة كورتس على أفعال قادة جيشه الطامعين في كسب المال، انتهى فتح الأندلس أيضاً بقتل ملك الأندلس الثاني في المكانة بعد رودريك، بموافقة موسى على أمر أحد قادة جيشه، الذي كان أيضاً يتطلع إلى الكسب من الخليفة بقبضه على الملك. وبهذا التشابه الختامي يتأكَّد أنَّ قصَّة فتح المكسيك تماثل تماماً قصَّة فتح الأندلس، ليس فقط على مستوى غالبية الأحداث الأساسية، بل في طريقة تصرُّف قادة الفتحَين وردود أفعالهم على الأحداث التي يتعرضون لها، وأيضاً في طرق تفسير المؤرِّخين لأحداث القصَّتين.

---

38 المقري: **نفح ...**، ص 279.

39 المرجع السابق، ص 20. وفي النسخة التي حقـَّقها إبراهيم الأبياري، انظر: ص 27.

40 المرجع نفسه، ص 280.

41 Diaz, p. 410.

قارنت الفصول الأربعة في هذا القسم بين العناصر السَّرديَّة لقصَّتَي الفتحين، فقرنت كل عنصر سردي في قصَّة فتح المكسيك بما يقابله من قصَّة فتح الأندلس. تناول الفصل الأول سبعة عناصر هي: إقلاع الحملة دون إذن الحاكم، وبناء القلعة، وتعطيل السفن، والحلفاء والمرأة الخائنة، والأدلَّاء، ثم الأسلاف العمالقة، ومؤسِّسو الحضارة. وفي الفصل الثاني دُرست ستة عناصر، فوضح أيضاً تطابقها في القصَّتين، وهي: نبوءات النصر، ونُذُر الشؤم السماوية، والرسول السماوي المجنّح، وصورة الغزاة المتوارثة، وطبيعتهم المقدَّسة، وأكل البشر. وتوصَّل الفصل الثالث إلى وجود خمسة تطابقات بين عناصر القصَّتين، هي: اعتقاد زعماء البلد برجوع الغزاة، والاستيلاء على كنز الملوك، والمائدة والدرَّة النادرة، وعروض العنف، والرهينة الملكية. وفي الفصل الرابع رُصدت ثمانية تماثلات أساسية، هي: حملة الحاكم على قائد الغزاة، والمطر الذي ينهي الحصار، وغرق الطامعين في الغنائم، وحيلة الكمين، والنساء المحارِبات، وقطع أنبوب الماء، ثم القبض على الملك والخلاف عليه، وأخيراً، قتله طمعاً في الكسب.

إنَّ قصَّة فتح المكسيك لا تتضمَّن أحداثاً مُهمَّة ليس لها نظير في قصَّة فتح الأندلس، إلا القليل ممَّا له مكانة ثانوية ولا يسهم في تحقيق الغاية، وهي الفتح. ومن الأحداث التي لا توجد في قصَّة فتح الأندلس، أنَّ الإسبان نصبوا منجنيقاً لرمي أهل مدينة مكسيكو المحاصرين، ففشلت المحاولة وانهارَ المنجنيق. ومنها أيضاً إنزال عدد من المراكب التي صنعها الإسبان على الساحل إلى قناة مكسيكو لمناوشة دفاعات المكسيكيين داخل المدينة، وهذا الحدث ساهم فعلاً في انتصار الإسبان، لكنَّه مستعار من مصدر تاريخي غير عربي، هو قصص الحروب التي وردت في نصوص الرومان، حسبما أشار برسكوت.

خلاصة الفصول الأربعة لهذا القسم، أنَّ مجموع العناصر السردية التي قورنت، بلغ ستة وعشرين عنصراً أو ثيمةً، تماثلت إلى حد يجعل القصَّتين، في مستوى النص المثالي لكل منهما، وكأنَّهما نسختان من قصَّة واحدة تكرَّرت في منطقتين مختلفتين، وزمنين بعيدَين عن بعضهما.

القسم الثاني

أوروبا تستعير خطاب فتح أميركا

الصيغة القياسيَّة لخطاب الفُتُوحات العابر للقارات

أوضحت فصول القسم السابق أنَّ قصَّة فتح المكسيك لا تنسب إلى الإسبان دوراً يختلف عمَّا نسَبَته النصوص العربية لفاتحي الأندلس، سوى أنهم يقومون بحيلٍ فردية لا تترتَّب عليها نتائج مُهمَّة في تحقيق الفتح. مع ذلك، تَنسِب نصوص المؤرِّخين الإسبان إسقاط مملكة الأزتك إلى قوَّة كورتس التي تساوي حوالي ثلاثة بالمئة فقط من قوَّة المجموعات المحلِّية التي حاصرت العاصمة، وكانت تضم أكثر من مئة وخمسين ألفاً من القبائل التي أعلنت الحرب على الأزتك. إنَّ المؤرِّخين الأوروبيين يُسمُّون المحاربين المحلِّيين "الحلفاء"، بدلاً من اعتبار الإسبان حلفاء للمواطنين، الذين هم أصحابُ العدد الأكبر، والخبراءُ بطبيعة البلد وطرقه، العارفون بلغاته، والمحيطون بأساليب المكسيكيين الحربية، والمتربِّصون بمملكة الأزتك لإسقاطها قبل وصول الإسبان. وبإزاحة المواطنين إلى مكانة الحلفاء؛ تمكَّن المؤرِّخون من قلب الأدوار وإعطاء الإسبان دور البطولة في قصَّة فتح من الواضح فيها أنَّ الانتصار على قوة كبيرة مثل قوة الأزتك لا يمكن أن يتمّ إلا بقوة ضاربة كانت تملكها القبائل المحلية وحدها، وليس بشجاعة رجال قليلين.

بعد أن تأكَّد تطابُق معظم عناصر القصَّتين، ينظر هذا الفصل في الصيغة المشتركة التي تسمح بتوليد نسخ متعدِّدة منها تحافظ على الوظائف الأساسية لخطاب الفتح. وعند تجريد القصَّتين من متغيِّرات الأشخاص والأماكن والأزمان والأحداث الثانوية، وتُستبقى الأحداث الرئيسية وعلاقاتها، يُستخلَص القالب السردي التالي الذي يرسم الخطوط الكنتورية للقصَّة المشتركة:

في مملكة حكمَها قديماً غزاة أنشأوا حضارتها ثم رحلوا، تداوَلَ الملوك حكمها إلى أن تولَّى أمرها ملك ظالم استبدّ برعيته، فانتشرت نبوءة تقول بقرب زوال مُلكه وصول فاتحين من نسل الغزاة القدماء، الذين لهم حق حكمها. وظهرت علامات سماوية فُسِّرت بأنَّها تنذر بقرب وصول الغزاة، وتلقَّى الملك صورةً قديمة متوارثة يحفظها كهنة المملكة بها صورة للغزاة تقول إنَّهم سيفتحون البلد ويستعيدون حكمه، فخاف الملك وانهارت الروح المعنوية لجيشه. وفي هذه الأثناء وصل غزاة إلى أرض قريبة من هذه المملكة، وعرف حاكمهم بثراء المملكة وأرسل حملة استكشافية تستطلع أحوالها، فتأكد من غناها وقابليتها للغزو. أمَرَ الحاكمُ أحد قادة جيشه بإعداد حملة تتوجَّه إلى المملكة، لكن القائد استبق أوامر الحاكم وأقلع مستهدفاً فتحها بعدد قليل جداً من الرجال. نزل الغزاة أرض المملكة لكن بعضهم تمرَّد وأراد الرجوع، فقام القائد بتخريب السفن ليقطع عليهم طريق العودة، وخطب فيهم حاثاً إياهم على التوحُّد وأنَّه لا مخرج سوى الحرب، فاستجابوا له وتوجَّهوا لعاصمة المملكة التي اعتقد مواطنوها أنَّ الغزاة كائنات مقدَّسة ولهم قدرات إلهية. وبالمقابل، قدَّم الغزاة عروض عنف تُظهِر قوَّتهم وتفوُّقهم فتحالف معهم بعض المواطنين، ولعبت امرأة جميلة ابنة زعيم محلي دور الوسيط في تحقيق الفتح وتزوَّجت من الغزاة، فاعتبرها أهلها خائنة لوطنها. ومن جانبهم، ظنَّ نبلاء البلد وقادته أنَّ الغزاة سيرجعون بعد جمع الغنائم، فلم يتصدُّوا لهم. دخل الغزاة المملكة وحصلوا على كنز كبير يضمّ ثروة الملوك السابقين، وأخذوا رهائن من أسرة الملك لتأمين خروجهم من المملكة. سمع رئيس قائد الغزاة بنجاح الفتح فأرسل حملة لاعتقال القائد بوصفه متمرِّداً على سلطته، لكن القائد نجح في ضمِّ قوة الحملة إلى جيشه واستكمل الفتح. في المواجهة الفاصلة بين جيش المملكة والغزاة برز الملك في ساحة الحرب بزينته الكاملة فقضى عليه الغزاة لأنَّهم عرفوه بمظهره المميَّز، واستولوا على حُكم المملكة. وبهذا انتهت قصَّة الفتح.

هذه السَّرديَّة المختصرة، التي تبدأ بمنح الغزاة حقَّاً تاريخياً في أرض المملكة وتنتهي باستيلائهم عليها، تمثِّل الخطوط الكنتورية لقالب يمكن أن يُملأ بفاعلين أفارقة وعرب ليُنتج قصَّة فتح الأندلس، ويُملأ بفاعلين إسبان لينتج قصَّة فتح المكسيك، وفيما بعد سيُملأ بفاعلين إنجليز وفرنسيين لينتج بقية قصص فتوحات أوروبا في العصر الحديث. وفيما وراء الثيمات التي اقتصرت عليها المقارنة بين فتحَي المكسيك والأندلس، توجد اختلافات مصدرها التحويلات التي تُحدِثها نصوص المؤرِّخين على ترتيب الأحداث ومقدار الأهمية التي تُعزى لها، فتدفع ببعضها إلى مقدِّمة القصَّة لتصبح عنصراً أساسياً، وتزيح بعضها إلى الخلف لتتحوَّل إلى عنصر ثانوي. وتقدِّم قصَّة فتح المكسيك نماذج كثيرة لهذه التحويلات على قالب السرد.

النموذج الأوضح للعنصر السردي الذي تتغيَّر أهميته في فتح المكسيك هو الدور الذي تؤدِّيه الخيول، فقد أكَّدت نصوص المؤرِّخين الإسبان أنَّ عدم معرفة المكسيكيين بالخيل ساهم بقدر كبير في تحقق الفتح. ووصلت مبالغات الإسبان في هذا الجانب ادِّعاء أنَّ المكسيكيين ظنوا أنَّ الحصان وراكبه مخلوق واحد[1]. وتدَّعي بعض النصوص أنَّهم لم يدركوا أنَّهما كائنان مختلفان إلا عندما سقط إسباني بعيداً عن حصانه ثم نهض ليعتليه مرة ثانية! أمَّا نصوص فتح الأندلس فقد أعطت معرفة المسلمين باستخدام الخيل مكانة ثانوية في هزيمة القوط، ولم تنسب إليها دوراً مهماً إلا في مطاردة الهاربين على أقدامهم من فلول الجيش، لأنَّ سرعة الخيل تفُوق سرعة البشر.

في كل قصص فتوحات ممالك أميركا رُفِع دور الخيل إلى مرتبة أسطورية، وعلى هذا الأساس ابتُكِرت قصص كثيرة ذات طابع خرافي صوَّرت المواطنين المحليين وزعماءهم بطريقة كاريكاتورية تثير السخرية. مثال ذلك قصَّة أوردها

1 Gómara, p. 69.

برنال دياز يقول فيها: بعد انتصار الإسبان على واحدة من القبائل المكسيكية أخبر كورتس رجاله بأنَّ الشيئين اللّذين خافهما الهنود أكثر من أي شيء آخر، كانا هما المدفع والحصان. وبناءً على ذلك، عندما علم كورتس أنَّ زعماء القبيلة سيزورونه لعقد صلح وضع خطّة بطلها حصان لوحظ أنَّه كثير الصهيل عندما يشمُّ رائحة أنثاه. قبل وصول زعماء القبيلة، أمر كورتس جنوده بإخفاء أنثى الحصان خلف المكان الذي سيتم إجلاس الزعماء فيه، وعند مجيئهم حذَّرهم من سوء عواقب مهاجمتهم لرجاله مهدِّداً بأنَّهم إن كرَّروا ذلك، فإنَّ هذا الشيء، مشيراً بيده إلى المدفع، سيُخرِج شيئاً من فمه ليقتلهم. ثم يعطي إشارة خفية للإسبان، فينطلق المدفع بصوتٍ مُدوٍّ ويمتلئ الزعماء رعباً، وكانت تلك إشارة بإحضار الحصان الذي بمجرَّد وصوله شمَّ رائحة أنثاه الموضوعة خفية خلف مكان جلوس الزعماء، فبدأ في الصهيل بصوت عالٍ. ويقول دياز إنَّ المكسيكيين ظنوا أنَّ الحصان ينظر إليهم ويصرخ فيهم، فتملَّكهم الرعب. وعندئذ تدخَّل كورتس لتهدئتهم قائلاً: "بما أنَّكم لن تفعلوا ذلك مرة أخرى فسأطلب من الحصان ألا يغضب منكم"، واتَّجه إليه وكأنَّه يحدِّثه، وكان في الواقع يأمر رجاله بسحب الحصان، فاعتقد الزعماء أنه فهِم كورتس وانسحب هادئاً[2]. بمثل هذا النوع من القصص الكاريكاتورية حول الخوف من الخيل، اصطنع المؤرِّخون الإسبان صورة مضخَّمة عن سذاجة المكسيكيين، وضعوها في مقابل ذكاء الإسبان ومعرفتهم بالخيل التي تدلُّ على فروسيَّتهم.

كانت نصوص فتح الأندلس قد أشارت إلى تفوُّق المسلمين على القوط في استخدام الخيل ودورها في استكمال الفتح، ولكنها لم تزعم جهلهم بها في ذاتها. ركَّزت بعض النصوص العربية على أنَّ المسلمين لأنَّهم تركوا خيلهم بالمغرب وحضروا إلى الأندلس متخفِّين في هيئة تجَّار؛ خاضوا المعركة ضد رودريك

---

2 Diaz, p. 79-80.

وهم مشاة، وبعد انتصارهم استولوا على خيل القوط لتفوُّقهم عليهم في ركوبها. كتب أبو إسحاق الرقيق عن تفوُّق أهل شمال إفريقيا على جيش القوط: "... واستولوا على خيلهم وسبقوهم إلى قرطبة، وعند رجوع جيش القوط إليها وجدوها وقد أحاط المسلمون بها وقتلوهم عندها"[3].

بمثل هذه التصوُّر الذي يربط بين البراعة في ركوب الخيل ومقدار الفروسية، ركَّزت النصوص العربية على أنَّ الخيل كانت من أسباب انتصار المسلمين. وتضيف أنَّ عدم معرفة الإسبان بركوبها جعلتهم ينهزمون لأنَّهم كانوا يحاربون على ظهور البغال، وقد اتَّخذ بعض المؤرِّخين من ظهور رودريك في ساحة المعركة على عربة يسحبها بغل وليس حصان علامة على تدنِّي قدراته القتالية، فقد نظر العرب إلى البغل على أنَّه يدلُّ على انحطاط قدرات راكبه في مجال الفروسية، وأنَّ شجاعته أيضاً تقلُّ عن شجاعة راكب الحصان. وامتدَّت سخرية العرب من مسلمي الأندلس فترة طويلة بسبب عدم إتقانهم ركوب الخيل، فابن حوقل الذي زار الأندلس في سنة 337هـ/ 957م، أي بعد أكثر من مئتي سنة من فتح المسلمين لها واستقرار حُكمهم، كتب عن جهل أهل الأندلس بركوب الخيل:

> **"وما رأيتُ بها، ولا رأى غيري، إنساناً قط جرى على فرس فاره أو برزون هجين ورجلاه في الركابين، ولا يستطيعون ذلك ولا بلغني عن أحد منهم، لخوفهم السقوط وبقاء الرجل في الركاب على حد قولهم. وهم يفرسون على الأعرّاء من الخيل..."**[4].

استمرَّ احتقار العرب لأوروبيي الأندلس في مجال ركوب الخيل إلى فترة قريبة من لحظة فتح أميركا. ففي سياق التراشُق بين الأندلسيين أصحاب الأصول

---

3 الرقيق: **تاريخ...**، ص 43.

4 ابن حوقل (أبو القاسم النّصيبي: ت. حوالي 357هـ/977م): **صورة الأرض** (بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة، 1992). ص 108 - 109.

العربية وأصحاب الأصول الأوروبية، إبَّان ما عُرِف في التاريخ العربي بحركة "الشُّعوبية" فيما بين القرنَين الحادي عشر والرابع عشر الميلاديَّين؛ ردَّ عبد الله ابن القروي صاحب الأصل العربي على ابن غارسيا (ابن غرسية) الأندلسي صاحب الأصل الأوروبي، مفتخراً بمعرفة العرب بالخيل وجهل الأوروبيين بها، فقال:

"وأمَّا الخيل فسامِح العرب بركوبها وثوبها، وخل بينهم وبين عيوبها، فأي حظ لك ولأصحابك فيها. عليكم بالبراذين المحذفة، والكوادن الموكفة. الخيل حرثُ العرب وحصادها وعدتها وأوصادها، وإنَّك لتعلم أنَّ خيلهم أشهر من ملوككم أسماء وألقاباً، وأطهر من نسولكم أنساباً وأعقاباً"[5].

هنا يفخر ابن القروي بخيل العرب ويذمُّ الأوروبيين لركوبهم البغال، حتى إنَّه يرفع شأن الخيول العربية وأنسابها على أنساب ملوك أوروبا. وهكذا استمرّت النصوص العربية الأندلسية قروناً طويلة بعد الفتح، وإلى وقت قريب من وصول الإسبان إلى أميركا، ترفع شأن العرب لمعرفتهم بركوب الخيل، وتقلِّل من مكانة الإسبان لجهلهم بذلك. وردّاً على ذلك، استخدم المؤرِّخون الإسبان المعرفة بركوب الخيل لإظهار تفوُّقهم على المسلمين في مجال الفروسية، متَّبعين تقاليد خطاب الفتوحات العربية. وعلَّقت على ذلك باربرا فوكس بقولها:

"للمفارقة، كان تقليد الإسبان لمهارات الأندلسيين هو الذي مكّنهم من الانتصار عليهم، فصارت طريقة المسلمين في ركوب الخيل موضع فخر الإسبان"[6].

ارتفعت نبرة الافتخار بإتقان ركوب الخيل لدى الإسبان في اللحظة التي بلغ فيها صراعهم مع مسلمي الأندلس قمَّته في عند نهاية القرن الخامس عشر، أي

---

5 عبد السلام هارون (محرِّر ومحقِّق): **نوادر المخطوطات: المجموعة الثالثة** (مصر: شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، 1973). ص 317.

6 المرجع السابق، ص 91.

قريباً جداً من الوقت الذي سيغزو فيه الإسبان المكسيك ويكتبون قصَّة فتحها. لقد أراد الإسبان اصطناع تاريخ عظيم يردُّون به على تاريخ مسلمي الأندلس؛ فاتخذوا ركوب الخيل دليلاً على تفوُّقهم على شعوب أميركا، وصاغوا قصصاً حول جهلها بالخيل فاقت كثيراً ما صاغه المسلمون عن جهل الإسبان بها.

بهذه الطريقة صارت الخيول عنصراً أساسياً في خطاب فتح أميركا، ولم تكن تحتلُّ إلَّا مكانة ثانوية في خطاب فتح الأندلس. وإذا رصدنا هذا النوع من الثيمات الثانوية التي رُفِعت إلى ثيمات أولية في فتح المكسيك؛ فإنَّ ما سبق التوصُّل إليه من تماثلات بين القصَّتين يزداد كثيراً ليجعل منهما خطاباً واحداً. وبذلك يبرهن على ما استنتجه رستال حول ما سمَّاه السلوك الروتيني لفاتحي أميركا الإسبان، عندما كتب:

> **"ربما كان الخطاب التاريخي للفاتحين الإسبان جديداً فيما يخص تطبيقه على الأميركتين، لكنه كان في الحقيقة يقوم على نوع من الوثائق طوَّره الإيبيريون قبل أن يصلوا العالم الجديد"**[7].

احتلت سرديَّات الفتوحات الأوروبية مكانة مركزية في تاريخ العصر الحديث وصارت عنصراً رئيسياً في معرفة الأوروبيين بذاتهم وتصوُّرهم لشعوب العالم؛ لأنَّ معظم المفكِّرين والمؤرِّخين الأوروبيين يرون أنَّ محور التاريخ هو الحروب والفتوحات وصعود الإمبراطوريات وصداماتها. ولأنَّ التماثل بين خطابَي فتح أميركا وفتح الأندلس يُستخلَص من المتن الشامل لنصوص المؤرِّخين الإسبان، لا من نصٍّ أو نصَّين كتبهما هذا أو ذاك؛ فإنَّ الدلالة الأساسيَّة لتماثل قصَّتي الفتحين تقول إنَّ مخيِّلةً إسبانيةً ذات مصادر أندلسية هي التي ظلت تُلهم المؤرِّخين الإسبان معارفهم وتصوُّراتهم للتاريخ في بداية العصر الحديث، وأنَّ

7 Restall, Matthew; *Seven* ..., p. 11.

ما صوَّروه تاريخاً إسبانياً جديداً كان يقتبس بكثافة من ماضيهم الأندلسي، أُبدِلت فيه الأدوار ليؤدِّي الإسبان الدور الخارق الذي لعبه فاتحو الأندلس. بذلك كان الإسبان ينتزعون من المسلمين حقَّ كتابة تاريخهم في العصر الوسيط، ويعيدون تشكيله بتمثيل أنفسهم منتصرين في ماضٍ كانوا قد خسروه.

إنَّ خطاب فتح أميركا تصفية حساب مع التاريخ الأندلسي لإسبانيا الحديثة، وهو في الوقت ذاته خطاب انتصار على شعوب أميركا، لكن بذاكرة أندلسية. ويتأكَّد عمق تحكُّم الذاكرة والمعرفة الأندلسيَّتَين بالعقلية الإسبانية عند تتبُّع الطريقة التي تم التأريخ بها لفتوحات الممالك الأخرى في أميركا، ولتوضيح مقدار سلطة المعرفة التاريخية الأندلسية على الإسبان نتوجَّه إلى مملكة بيرو.

في القرن الثامن عشر جمع المؤرِّخ الأسكتلندي ويليام روبرتسون، قصَّة الفتح الإسباني لمملكة بيرو من مصادر مختلفة، لأنَّ إنجلترا عندما غزت أميركا الشمالية بدأ مؤرِّخوها كتابة قصَّة فتح أميركا، باعتبارها مستعمَرة إنجليزية. ويُعدّ كتاب روبرتسون أشمل المدونات الإنجليزية التي كُتبت عن فتح بيرو لأنَّه اعتنى فيه بمراجعة معظم الوثائق الإسبانية والمقارنة بينها. وفيه وصفَ الذين غزوا بيرو، وهم فرانسيسكو بيزارو (Francisco Pizarro 1478- 1531) ودييغو الماغرو (Diego de Almagro 1475- 1538) ومعهم هرناندو لوك (Hernando de Luque) بأنَّهم: "رجال غير عاديين"[8]. ناقلاً عن المؤرِّخين الإسبان ووثائق الفتح الرسمية التي كتبها سكرتيرو بيزارو، كتب روبرتسون تاريخ فتح بيرو على النحو التالي:

قديماً، وصل إلى بيرو رجل يسمَّى "مانكو كاباك" (Manco Capac) وامرأة تسمى "الأم أوكولا" (Mama Ocolla)، وأسّس هذان الزوجان حضارة

8 Robertson, William; *The History of America, Vol. III,* (London: W. Strahan, 1739). pp. 3-5.

شعب الإنكا وحكما مملكة بيرو. وتعاقب على الحكم اثنا عشر ملكاً من الإنكا لم ينحرف أي منهم عن تقاليد العدالة إلى أن صعد ملك اسمه هوانا كاباك (Huayna Capac) إلى عرش المملكة، وتجاوز أعراف الإنكا حين تزوَّج امرأة من مملكة كويتو، رغم قانون بيرو الذي ينصُّ على عدم تلويث سلالة الإنكا بدم أجنبي، فأنجبت له تلك المرأة ابناً سمَّاه أتَهوَلبا (Atahualpa). وأعطاه حكم مقاطعة كويتو، وأقام على باقي المملكة ابنه هوَسكَر (Huascar) وهو من أم ذات دم ملكي[9]. غضب الشعب مما فعله الملك هوانا كاباك ودارت حرب أهلية بين ابنيه وأنصارهما، وانقسمت المملكة[10].

في هذه الأثناء، كان الإسبان قد استولوا على الحكم في بنما القريبة، وقام الملك بتعيين إسباني اسمه بدريرياس حاكماً عليها، فسمع بثراء بيرو وأرسل إليها حملة استكشافية. توجَّه بعض الإسبان بقيادة بيزارو إلى أطراف مملكة بيرو. وعندما علم هوَسكَر المهزوم بخبر وصولهم أرسل رجاله لاستطلاع أمرهم فعادوا إليه بخبر أنَّ الإسبان كائنات تتميَّز بقدرات فوق بشرية. فطلب هوَسكَر من الإسبان مساعدته ضد أخيه الذي اغتصب منه الحكم، فوجدها بيزارو قائد الإسبان فرصة سانحة لغزو المملكة بدعوى تخليصها من ظلم ملكها، فتوجه إليها بجنود لا يتجاوز عددهم المئة وثمانين[11]. ويقول المؤرِّخ روبرتسون إنَّ أهل بيرو اعتقدوا عند لقائهم بالإسبان أنَّهم كائنات إلهيّة ذات قدرات خارقة، جاءت لتخليصهم من الاضطراب والمظالم التي سادت المملكة. واعتقدوا أنَّهم ليسوا طامعين في الحكم، وسيعودون إلى بلادهم بعد مساعدة أهل بيرو ضد ملكهم الظالم هوَسكَر.

9 المرجع السابق، ص 29.

10 المرجع نفسه، ص 32.

11 المرجع نفسه، ص 34.

كسب بيزارو ود هوَسكَر ونزل بقصر الملك القريب من المعبد الرئيسي وقوبل بكرم زائد، وتحالف الاثنان ضد أتَهوَلبا. دعا بيزارو أتَهوَلبا للتفاوض مُضمِراً في نفسه اعتقاله وأخذه رهينة، فأعد جيشه لخوض معركة حاسمة. وصلت إلى المدينة جموع جيش بيرو في أكثر من ثلاثين ألف جندي، والملك بينهم محمولاً على عرش مزيَّن بالذهب والجواهر. وتقدَّم راهب إسباني من الملك ليعرِّفه بالمسيحية لكن الملك رمى الإنجيل على الأرض وعندئذ صرخ الراهب الإسباني: "لقد أهان الكفرة الكلاب كلمة الرب، إلى سلاحكم أيها الإسبان"[12]. وهنا هجم الإسبان على جيش الملك ودارت معركة عنيفة اضطرب فيها جيش بيرو، فاقتحم بيزارو الجموع بشجاعة فائقة مستهدفاً الملك، وأخذه رهينة عنده. تقول القصَّة إنَّ أتَهوَلبا بعد أن أُسِر، عرَضَ على الإسبان ملء الغرفة التي اعتقلوه فيها ذهباً، فداء نفسه. وكانت مساحة الغرفة أكثر من ثلاثمئة وخمسين قدماً، فجمع لهم كل ما يوجد في عاصمته من ذهب بما فيه كنوز معابد بيرو وثروات جميع ملوكها السابقين[13]. وفي هذا الوقت وصلت إلى بيرو حملة إسبانية على رأسها بدرو الفارادو الذي كان قد غزا المكسيك مع كورتس وهناك سمع بثراء بيرو والغنائم التي حصل عليها بيزارو، فأوشكت الحرب أن تنفجر بين الجيشين، ولكن بيزارو تمكَّن من تجنُّب الصدام مع الحملة بتعويض ألفارادو عن نفقات رحلته. وانفرد بحق الحصول على منصب حاكم بيرو باعتباره فاتحها. ثم توجَّه إلى إسبانيا حاملاً ثروة فاقت ما جمعه الإسبان من المكسيك في عشر سنوات، وعاد منها وقد أصبح حاكماً لبيرو بأمر من ملك إسبانيا.

من الواضح أنَّ تاريخ فتح بيرو يحاكي تاريخَي فتح المكسيك وفتح الأندلس، وهذا التماثل ينطبق حتى على النصوص التي أرّخ بها مواطنو بيرو

12 المرجع نفسه، ص 42.

13 المرجع نفسه، ص 45.

لفتح مملكتهم، كما في كتاب تيتو كوسي يوبانكوي (Titu Cusi Yupanqui)، الذي أرَّخ فيه لفتح بيرو بصيغة مماثلة من القصَّة لكنها تدعم مطالبته بالحكم، ويقول إنَّ أهله اعتقدوا أنَّ الإسبان آلهة (viracochas) أرسلتهم السماء لتحقيق الخلاص لشعب بيرو، لكنهم انتزعوا الحكم من أسرته الحاكمة[14].

لا تقف استعارة قصَّة الفتح عند بيرو وحدها، ففي فتوحات بقية مناطق أميركا، مثل: غواتيمالا وهندوراس وتشيلي، يُستخدم نفس القالب السردي تقريباً ولا تتغيَّر سوى أسماء الأشخاص والمناطق، مع بعض الاختلافات الطفيفة التي تفرضها ضرورة التوافق مع السياقين المكاني والزماني اللذَين تدور فيهما القصَّة المعيَّنة، فبعض العناصر تُستبعَد أو تُعطَى مكانة غير التي تحتلها في فتح المكسيك، أو تُقلَب أدوار الفاعلين الرئيسيين، وغير ذلك من تحويلات لا تؤثر كثيراً على قالب القصَّة ووظائفها.

يظهر هذا في قصَّة فتح غواتيمالا التي سرد بعضاً من تفاصيلها القائد بدرو ألفارادو في أربعة خطابات تماثل خطابات كورتس، ضاع أولهما وثانيهما وعُثِر على الثالث والرابع. وكان ألفارادو قد توجَّه إلى غواتيمالا بتفويض من كورتس ليفتحها ويحكم مملكتيها اللتين أقامهما شعب المايا. والمايا شعب متحضِّر حكمَ مجموعات مختلفة من القبائل، وأنشأ مملكة ضخمة في المنطقة التي تمتد اليوم بين جنوب غواتيمالا والسلفادور. ورغم أنَّ ألفارادو كتب خطاباته تلك بنفس الطريقة التي كتب بها كورتس رسائله إلى ملك إسبانيا، إلا أنَّ الفارادو لم يكن في الحقيقة يقلِّد أفعالاً ابتكرها كورتس، فكما كتب رستال وأسلبرج:

> **"كان الإسبان قد اعتادوا كتابة تقارير كهذه منذ تسعينيات القرن الخامس عشر حين نُشرِت خطابات كولمبوس التي وجَّهها إلى الملك، بعد شهور قليلة من عودته إلى إسبانيا. ففي ذلك الوقت سادَ أملٌ لدى القادة الإسبان**

14 Yupanqui, Titu Cusi: *How the Spaniards Arrived in Peru*, (Indianapolis/Cambridge: Hackett, 2006). 2006. p. 11.

الذين أرادوا أن يكتسبوا صورة فاتحين بأن تشيع حكايات انتصاراتهم، لتضمن لهم مكانة تاريخية واجتماعية وسياسية"[15].

يقول ألفارادو في رسالتَيه إنَّه غزا مملكة المايا في سنة 1524م بمئة وخمسين جندياً فقط، وإنَّ مواطني غواتيمالا اعتقدوا أنَّ الإسبان كائنات خارقة القدرات، وتحالف معه آلاف المواطنين المحلِّيين الذين كانوا يعانون ظلم حكَّام غواتيمالا، فحارب بهم أكثر من مئة ألف من جنود المملكة. وفي كل مكان دخله ألفارادو كان يمارس عروضاً بالغة العنف، فيحرق القرى ويقطع أيدي المواطنين، ويأخذ الزعماء رهائن ليستولي على ثرواتهم، ويعذِّبهم حتى الموت في عروض رعب جماهيرية. وتتضمَّن القصَّة دوراً لامرأة من غواتيمالا ذات مكانة سامية اتَّخذها الفارادو زوجة له[16]. وهذا كله يطابق الإطار العام لقصَّتَي فتح المكسيك وبيرو. ومؤخَّراً عُثر على نصوص أخرى تؤرِّخ لغزو غواتيمالا أكدت أنَّ خطابات الفارادو أهملت تفاصيل كثيرة تشكك في أنَّ الإسبان انتصروا بعددٍ قليل من الجنود. فقد ذكر غونزالو الفارادو، وهو أحد أقارب بدرو ألفارادو الذين شاركوا معه في غزو غواتيمالا، أنَّ الإسبان هُزِموا وهربوا من مقاطعة أوتاتلان (Utatlán) عندما هاجمهم مواطنوها[17].

أما فتح تشيلي الذي بدأه فالديفيا (Pedro de Valdivia 1497– 1553)، وتابعه بعده قادة كثيرون، فقد شنّ فيه الإسبان حرباً طويلة على قبائل الأرواك (Arwak) لم تُحسم على مدى سنوات طويلة. وكتب برناردو فارغاس ماتشوكا (Bernardo de Vargas Machuca 1557– 1622)، أحد غزاة تشيلي:

15 Restall, Matthew and Asselberg, Florine; *Invading Guatemala: Spanish, Nahua and Maya Accounts of the Conquest Wars*, (Pennsylvania: The Pennsylvania State University Press, 2007). P.124.

16 انظر تفاصيل القصَّة في المرجع السابق.

17 المرجع نفسه، ص 52.

"لقد استُعبِد مواطنو شيلي، وكان الذي فرض عليهم الخضوع هو الدون بدرو دي فالديفيا الذي استهلَّ فتح البلاد، لقد اعتبروه أكثر من إنسان، واعتقدوا أنَّه ورفاقه خالدون لا يموتون، وأظهروا خوفهم ودهشتهم من الخيول والبنادق، ... فكانوا يهربون إلى الجبال منها"[18].

يروي ماتشوكا قصَّة فتح تشيلي مبيِّناً كيف حصل الإسبان على مساعدة حلفاء محلِّيين كانوا أعداء لملك تشيلي. ولكن الحرب استمرَّت فيها أيضاً، كما في بيرو وهندوراس، إلى أكثر من خمسين عاماً ساد فيها العنف والدمار كل مكان دون أن يتمكَّنوا من إخضاع البلد. وهنا أيضا كرَّرت قصَّة الغزو نفس العناصر الأساسية التي قامت عليها قصص فتوحات ممالك أميركا السابقة: حفنة إسبان يواجهون مملكة عليها ملك ظالم، ونبلاء جبناء عاجزون عن الدفاع عن أوطانهم. وشعب ساذج يتبنَّى نبوءات تقول بقرب وصول غزاة يؤمن بقدسيتهم. ويتمكَّن الغزاة الإسبان من استقطاب حلفاء محليين، ويمتنع بعض الزعماء عن محاربتهم معتقدين أنَّهم سيرحلون بعد جمع الغنائم، ويتركون لهم بلادهم ليحكموها ويستولوا على ثرواتها. والعناصر المماثلة لقصَّة فتح المكسيك المفتقدة في سيرة فالديفيا تُستكمَل بما يرد في سيرة قادة فتح تشيلي الذين جاءوا بعد فالديفيا. مثلاً، تظهر امرأة من المواطنين المحلِّيين ذات مكانة رفيعة، يحصل عليها الغزاة ويتزوجها مارتنيز ليولا، الذي قام بمواصلة فتح شيلي، ويُنسَب إليه أيضاً أنَّه أخضعَ عدداً من زعمائها وأخمدَ ثورات مواطنينها[19]. وكما هو الحال في غزو غواتيمالا، تميل البحوث التاريخية المعاصرة لتأكيد أنَّ تشيلي لم تُخضَع بالطريقة التي صوَّرتها النصوص الإسبانية، وإنَّما بطرق تقوم

18 Machuca, Bernardo de Vargas: *Defending*…, p p. 114-115.

19 Zvala, José Manuel: 'The First Documented Parlamentos of 1593: Quilacoya, Rere, Taruchina, and Maquegua' in: Zvala, José Manuel, Dillehay, Tom D. and Payas, Gertruis (eds.):*The Hispanic –Mapuche Parlamentos: Interethnic Geo-politics and Concessionary Spaces in Colonial America* (Switzerland: Springer, 2020). p. 32.

على التفاوض بين المواطنين والإسبان[20]. وهنا أيضاً يتَّضح أنَّ قصَّة الفتح الذي يهزم فيه حفنة من الإسبان مملكة ضخمة ليست سوى قصَّة لا تصف ما جرى فعلاً.

إنَّ المحتوى الذي تستعيده جميع القصص المعتمدة رسميَّاً حول تاريخ فتح أميركا، هو أنَّه بفضل شجاعة وذكاء جنود إسبان يبلغ عددهم بضع مئات ينهزم نصف مليون محارب من مواطني أميركا، هم مجموع محاربي ممالك الأزتك والإنكا والمايا. ويمكن قول إنَّ الإسباني الواحد كان يواجه، في المتوسِّط، أكثر من خمسمئة محارب ويهزمهم جميعاً، فيسيطر هؤلاء الرجال الاستثنائيُّون على قارَّة كاملة بمعجزة "غير مسبوقة في التاريخ"، كما يحلو القول لكثير من المؤرِّخين الغربيين.

من الممكن لأي قارئ له معرفة بقصَّة فتح الأندلس أن يقوم بتغيير أسماء الأشخاص والأماكن التي ترد فيها فيبدِّل الأسماء العربية بأخرى إسبانية، ليستولد منها كل قصص فتوحات أميركا. وذلك بأن يضع كورتس مكان طارق ليحصل على قصَّة فتح المكسيك، ثم يضع مكانهما بيزارو لينتج قصَّة فتح بيرو، ويضع الفارادو لينشئ قصَّة فتح غواتيمالا. مع ملاحظة أنَّه قد تختفي بعض العناصر المعيَّنة، مثل حرق السفن، أو المرأة الخائنة، أو العثور على الكنز، من قصَّة فتح منطقة معيَّنة لتظهر في قصَّة منطقة أخرى، بحسب الظروف التاريخية والبيئة الجغرافية وتكوين المجتمع المعيَّن. وبعد فتح ممالك أميركا شاع استنساخ قصصها في معظم بلاد غرب أوروبا، بعد أن وسَّع المؤرِّخون الإسبان نطاق انتشارها بإعادة إنتاجها في ثوب يتوافق مع الصراعات الأوروبية

20 Cummins, Thomas B. F.; *Toasts with the Inca: Andean Abstraction and Colonial Image on Quero Vessels*, (United States of America: The University of Michigan Press, 2002). p. 292.

في القرون التالية، فكانت القصَّة تخدم انشغالات الأوروبيين يصراعاتهم ضد بعضهم مثلما تخدم المشروع الأوروبي المشترك للسيطرة على شعوب أميركا.

في القرن السابع عشر كتب المؤرِّخ الإسباني انطونيو سوليس، الذي درَسَ بجامعة سلامنكا، كتاباً ذاعت شهرته عن فتح الإسبان لأميركا. ولأنَّ سوليس كان كاتباً دراميًا منذ السادسة عشرة من عمره، وكتب للمسرح عدة أعمال كوميدية؛ طُلِب منه بوصفه سكرتيراً ملكيّاً أن يكتب تاريخاً لإسبانيا يضيف عمقاً جديداً للمكانة التي كانت قد حصلت عليها بسبب فتوحها، فوضع كتاباً بعنوان "تاريخ فتح المكسيك بواسطة الإسبان" في العام 1684م. ويقول برسكوت عن نص سوليس إنَّه يتميَّز عن النصوص التاريخية الأخرى بحسٍّ تاريخيٍّ عميق، لأنَّه في كل موضع تنتقل أحداثه إلى الأمام. ومن الواضح أنَّ سوليس استفاد من حسِّه الدرامي لأنَّ الأحداث التاريخية تتواتر في كتابه لتهيئة القارئ لما سيأتي بعدها، وتبدو مترابطة تقود إلى ما يليها. ويظهر الحماس الكبير الذي قوبل به الكتاب في أنَّه تُرجم في وقته إلى معظم لغات أوروبا الغربية.

استمر توسيع قصَّة الفتح في القرن الثامن عشر أيضاً، فكتب المؤرِّخ الإسباني خوان باتيست مونيوز (Juan Baptiste Muñoz 1745–1799) كتاباً بعنوان "تاريخ العالم الجديد" في سنة 1793م، تُرجم في ذات القرن إلى اللغة الإنجليزية واستهدف دحض ما أشاعه بعض مفكِّري التنوير الفرنسيين، الذين اشتركوا مع غليوم راينال (Guillaume Thomas Raynal 1713– 1796) في تأليف كتاب بعنوان "التاريخ الفلسفي والسياسي للهندَيْن"، ركَّزوا فيه على عنف الغزو الإسباني لأميركا.

ساهم نصَّا سوليس ومونيوز في تحديث قصَّة فتح المكسيك بإنتاج صيغة متوافقة مع تغيُّرات الأوضاع السياسية والمعرفية في أوروبا أثناء القرن الثامن

عشر، المتأثر بعقلانية فكر التنوير، فقد ذكر مونيوز أنَّه أراد كتابة تاريخ يعكس حقيقة ما جرى، بمنهج شكّ يستهدف التحقُّق من الوقائع[21]. ومع ذلك احتفظ نصَّا سوليس ومونيوز بمعظم تأثيرات خطاب فتح الأندلس، لأنَّهما اعتمدا على الإرشيف الإسباني. واستمر الأثر ظاهراً في ما كتبه المؤرِّخون غير الإسبان أيضاً في القرنين السابع عشر والثامن عشر، فقد صار خطاب فتح أميركا صيغة قياسية لخطاب الفتوحات الأوروبية الحديثة في كل أوروبا.

زوّدت قصص الفتوحات الإسبانية الأمم الأوروبية بشيئين مهمَّين يسَّرا عليها مشروع غزو العالم الذي صاغه بابوات وملوك أوروبا في القرن الخامس عشر، وبدأ الإسبان والبرتغاليون تنفيذه. فأولاً زوَّدتهم القصص بيقين راسخ حول إمكانية غزو جميع الشعوب غير الأوروبية لأنَّها صَّورَتها أدنى مكانة، ولها استعداد طبيعي للخضوع للإنسان الأوروبي الذي تعُدّه كائناً فوق بشري وتضعه في مصاف الآلهة. من ناحية ثانية، زوَّد خطاب الفتوحات الغزاة الأوروبيين بتصوُّر جاهز عن نمط سلوكي عنيف، يضمن لمن يتبعه تحقيق الفتح. وكانت نتيجة هذا أنَّ قصَّة الفتح لم تعد مجرَّد حكاية تاريخية لكنها صارت مكوِّناً أساسياً لثقافة الغزو التي طوَّرتها أُمم غرب أوروبا على طول العصر الحديث، ويسَّرت لها السيطرة عل العالم، فالمعرفة التاريخية استُخدمت معياراً لصناعة التمييز بين الأوروبيين الذين يملكون عقلية علمية، وغير الأوروبيين الذين لهم عقلية خرافية. وبالتالي، صارت قصص الفتوحات نفسها وسيلة لتغذية وهم "التفوُّق العلمي لأوروبا" الذي يبرِّر القيام بمزيد من الغزو وتحقيق الفتوح.

باختصار، صارت المعرفة التاريخية التي يتضمَّنها خطاب الفتوحات ويقدِّمها للأوروبيين، جزءاً مكوِّناً لثقافة الاستعلاء وتبرير العنف، وتنشئتهم

---

21 Lafaye, Jacques: *Quetzalcoatl and Guadalupe: The Formation of Mexican National Consciousness 1531-1813,* (Chicago and London: The University of Chicago Press, 1987). P. 167.

بوصفهم غزاة. ولأنَّ تاريخ فتوحات أميركا أوجد تراتباً للبشر، وحدَّد إجراءات نمطية ووصفة عنف تضمن للغزاة إخضاع الشعوب؛ فإنَّ فصول القسم التالي ترصد الكيفية التي ساهم بها خطاب فتح أميركا في تحفيز إرادة الغزو لدى الأمم الأوروبية الأخرى بعد أن تلقَّوه عن الإسبان، ويبحث دوره في تثبيت الممارسات التي حقَّقت لأوروبا الغربية السيطرة على العالم.

النُسخة الإنجليزيَّة لخطاب الفُتُوحات:
جيمس كوك (يكتشف) الجنوب

لتوضيح أنَّ التعرُّف على المصادر التاريخية لخطاب فتح أميركا يساهم في إزالة غموض كثير من جوانب تاريخ العصر الحديث الذي كتبه الأوروبيون، يناقش هذا الفصل ما استقرَّ لدى بعض المفكِّرين الغربيين المعاصرين من أنَّ شعوب الجنوب حين تلتقي بالأوروبيين تتَّخذهم آلهة بسبب بياض بشرتهم. وقد لعبت هذه الفكرة دوراً مُهمَّاً في تشكيل النظرة الأوروبية للشعوب الأخرى، وأُشِيعت عبر أجهزة نشر المعرفة والثقافة المعاصرة، مثل: المؤسَّسات التعليمية والفكرية وسائل الإعلام والأدب والفنون البصرية ومختلف أشكال الثقافة الجماهيرية. ورغم أنَّ المفكِّر الفرنسي تزفتان تودوروف كتب عن ما أشاعه الغزاة الأوروبيون حول ألوهيتهم: "إنَّ هذه الظاهرة تبدو نادرة جداً في تاريخ الفتوحات والاستعمار"[1]، إلا أنَّ الحقيقة غير ذلك، فمزاعم الألوهية ترد كثيراً جداً في نصوص الفاتحين ومن يُسمَّون (مكتشفون) حتى صارت علامة مميِّزة لسردياتهم، واليوم يعدُّها بعض المفكِّرين الغربيين حقيقة تاريخية ثابتة عن ثقافات ومجتمعات الجنوب، ولا يدركون أنَّها تصوُّر أوروبي مستعار من ثقافة العصور الوسطى العربية.

يرصد هذا الفصل تحولات مركز السرد في خطاب الفتوحات الأوروبية، ليبيِّن كيف أنَّ العناصر السرديَّة التي اكتسبت مكانة مقدَّرة في التاريخ الحديث

1 Todorov, Tzvetan: *The Conquest* …, p. 75.

عبر قصَّة فتح أميركا، وُظِّفت لخدمة مصالح أمم أوروبية أخرى بإدخال تحولات طفيفة تخدم تاريخ تلك الأمم.

كان البرتغاليون والإسبان أوَّل الذين أشاعوا في أوروبا أنَّ الشعوب التي وصلوا إلى أراضيها في بداية العصر الحديث كانت تعجب بهم إلى حدِّ التقديس، وتبنَّت بقية أمم أوروبا الغربية ذلك الزعم. وتحتوي فكرة ألوهية المكتشفين والفاتحين عدداً من العناصر التي تمنحها وظيفة ثيمة عنقودية، فهي تتضمَّن علاقة الأوروبيين بالسماء، وقدرتهم على معرفة الغيب وشفاء الأمراض، ونبوءات سماوية تستبِق وصولهم إلى البلاد التي يغزونها. وكما زعم كريستوفر كولمبس وأميركو فسبوتشي أنَّ شعوب أميركا اعتقدت أنَّهما آلهة، وردَ في يوميات رحلة ماجِلَّان أنَّ بعض مسلمي شرق آسيا استقبلوا طاقم الرحلة "كما يُستقبل الذين لهم مكانة مقدسة"[2]. وأنَّ نبوءات ورؤى سبقت وصولهم، فجاء في اليوميات عن استقبال ملك جزيرة (مالكو) لهم:

> **"رحَّب بنا الملك، وقال إنَّه رأى حلماً قبل زمن طويل يأتي فيه رجال إلى مالكو من بلاد بعيدة، وقال إنَّه لكي يتأكَّد من ذلك قام بمطالعة القمر فتأكَّد له أنَّهم قادمون لا محالة على سفننا"[3].**

ومثلما ادَّعى فاتحو المكسيك وبيرو وغواتيمالا أنَّ مواطني أميركا اتَّخذوهم آلهة، أذاع الفرنسي جاك كارتييه (Jacques Cartier: 1491–1557) أنَّ مواطني كندا حينما شاهدوه "اعتقدوا أنَّ الرب جاء من السماء ليشفيهم"، وقال البريطاني فرانسيس دريك (Francis Drake: 1540–1596) إنَّ قبائل ميوك (Miwok) التي تسكن منطقة كالفورنيا اعتقدت بأنَّه إله، وزعمَ القبطان الإنجليزي جون سميث (John Smith: 1580–1631) أنَّ الهنود الذين يقيمون

---

2 Pigafett, Antonio; *The First Voyage Round the World, by Magellan* (London: The Hakluyt Society, 1874). P. 109.

3 المرجع السابق، ص 124.

حول نهر سسكهانا (Susquehanna) بأميركا الشمالية عبدوا الأوروبيين[4]. ومنذ ذلك الوقت تحوَّل هذا الزعم، الذي ظهر لدى الإسبان والبرتغاليين في الأصل، إلى مكِّون أساسي في قصص لقاء الأوروبيين بالشعوب الأخرى في حقبة التوسُّع الاستعماري.

في القرن السادس عشر الذي سيطر فيه الإسبان على المحيط الهادئ بعد غزوهم لأميركا وجزر جنوب شرق آسيا، سعت إنجلترا للوصول إلى جُزر ذلك المحيط الغنيَّة بالتوابل والأعشاب الطبية عن طريق المرور من شمال الكرة الأرضية إلى جنوبها، على طريقة الإسبان في الإبحار من الاتجاه المضاد حين وصلوا الجانب الشرقي من الأرض بالانطلاق من جانبها الغربي. وشهدت تلك الفترة تدفُّق الطلبات التي وجَّهتها الشركات وكبار التجَّار إلى الملك للموافقة على تسيير رحلات بغرض (الاكتشاف)، أو الحصول على تمويل مَلَكي لها. والدليل على أنَّ تلك الرحلات جاءت بتأثيرٍ من نجاح الإسبان في الأميركتين، أنَّ أول مقترح إنجليزي لرحلات المحيط الهادئ قُدِّم في سنة 1528م إلى ملك إنجلترا هنري ثامن (Henry VIII) من تاجر إنجليزي كان يعيش في إشبيلية لفترة طويلة. وفي سنة 1540 أضاف ذلك التاجر خطَّة تفصيلية إلى مقترح الرحلة وأطلق عليها اسم "إعلان الإنديز"[5]. وفي سنة 1570م قدَّم همفري جلبرت (Humphrey Gilbert) خريطة توضِّح إمكانية المرور من شمال أوروبا إلى خليج كاليفورنيا، وعلى أثرها سيَّرت شركته رحلة وصلت سواحل كندا، وتبعتها رحلات قام بها كل من جون ديفز (John Davis: 1550–1605)، وهدسون

4 للاطلاع على قائمة غنية بأسماء الأوروبيين الذين ادعوا أنَّهم عوملوا كآلهة بواسطة شعوب الجنوب، انظر:

Obeyesekere, Cananath; *The Apotheosis of Captain Cook: European Mythmaking in the Pacific*, (Princeton -New Jersey: Princeton University Press & Bishop Museum Press, 1992). p. 209

5 Withey, Lynne: *Voyages of Discovery: Captain Cook and the Exploration of the Pacific* (Berkley, Los Angles, London: University of California Press, 1989). pp. 25-26.

(Henry Hudson: 1565–1611) وبافِّن (William Baffin: 1584–1622)[6].

إنَّ مرور الرحلات الإنجليزية إلى الجنوب بسواحل أميركا يؤكِّد أنَّ السياق الذي وصلت فيه رحلات الإنجليز إلى المحيط الهادئ يرتبط بمنافستها لإسبانيا على سيادة المياه المحيطة بأميركا والجزر الواقعة فيها، فكان طبيعياً أن تُدرَج قصص بعض تلك الرحلات في قالب خطاب الاكتشافات والفتوحات الإسبانية.

يستهدف الفصل الحالي توضيح أنَّ فكرة ألوهية الأوروبيين الرائجة في الثقافة الغربية الحديثة يجب أن تكون جزءاً من دراسة ثقافة الفتوحات الأوروبية لا دراسة الثقافات الأخرى؛ لأنَّها تصدر عن المعرفة التي تلقَّاها الأوروبيون من الحضارة العربية في سياق تبنِّيهم خطاب فتوحاتها في مطلع العصر الحديث. والنموذج الذي يُدرَس هنا هو رحلة القبطان الإنجليزي جيمس كوك (James Cook: 1729– 1779) إلى جزر المحيط الهادئ، التي يُنسب إليه فيها (اكتشاف) بعض بلاد الجنوب، مثل هاواي ونيوزيلنده وشرق قارَّة أستراليا[7].

تُعدُّ مدوَّنة القبطان جيمس كنغ (James King: 1750–1784) المصدر الأساسي للمعلومات حول رحلة كوك، لأنَّ كنغ هو الذي تولَّى قيادة الأسطول واستكمل كتابة صحيفة الرحلة بعد مقتل كوك، الذي كتب الأجزاء الأولى منها. وتظهر اعتقادات الإنجليز بتأليه مواطني هايتي لكوك في وصف كنغ للطريقة التي استقبل بها زعيم جزيرة "أوهيهي" (Owhyhee) جيمس كوك في يناير سنة 1779م، حيث كتب:

---

6 المرجع السابق، ص 26.

7 حسب توصيفها الرسمي في السجلات الملكية كانت المَهمَّة الأساسية التي أبحرت من أجلها حملة كوك هي: "تحديد المسافة بين الأميركتين وآسيا وإمكانية وجود طريق شمالي يؤدي منها إلى أوروبا"، انظر: Cook, James: *A Voyage to the Pacific Ocean Undertaken by the Command of his Majesty, for Making Discoveries in the Northern Hemisphere, to Determine the Position and Extent of the West Side of Northern America, its Distance from Asia; and the practicability of a Northern Passage to Europe* (Dublin: Chamberlaine, 1784).

"تقدَّم [الزعيم] نحو القبطان كوك بتقدير عظيم وألقى على كتفيه قماشاً أحمر كان يحمله، وبعد أن تراجع إلى الوراء عدة خطوات قدّم قرباناً من خنزير صغير، وهو يلقي خطاباً استمر وقتاً غير قصير. وظل هذا الاحتفال يُكرَّر باستمرار خلال إقامتنا في أوهيهي، ولقد بدا لنا من عدة ظروف أنَّه نوع من التقرُّب الديني"[8].

استنتج كنغ أنَّ كوك عُومل معاملة إله؛ لأنَّه لاحظ أنَّ تماثيل الآلهة تُحاط بقماش أحمر في معابد تلك الجزيرة، لكن عبارة "بدا لنا" التي استخدمها كنغ توضِّح أنَّ اعتقاده بتأليه كوك صدر عن تخمينات لمعنى تلك الأفعال التي كان الزعيم يقوم بها، وليس عن معرفة بدلالتها في ثقافة شعب هاواي. واعتماداً على صورة متوهَّمَة عن شعوب الجنوب فسَّرَ الإنجليز أفعال مواطني هاواي بأنَّها "طقوس تقديس"، فما هو الإطار المرجعي الذي استمدوا منه ذلك التفسير؟ إنَّ هذا لا يتَّضح إلا عندما تُقرأ قصَّة كوك ضمن تقاليد الخطاب الذي صيغت عليه، وهو خطاب الفتوحات الذي يتضمن فكرة أنَّ الشعوب الأخرى تقدِّس الأوروبيين.

في بعض الأحيان كان الأوروبيون يُخبرون مواطني البلاد التي يغزونها بأنَّهم جاءوا من السماء، ثم يزعمون أنَّ المواطنين هم الذين اعتقدوا أنَّ الأوروبيين آلهة هبطت من أعلى. ظهر هذا منذ وقت مبكر، فقد ذكر كولمبس أنَّ اثنين من بحّارته أخبرا مواطني جزر الكاريبي بأنَّهما جاءا من السماء، ثم زعما أن المواطنين صدَّقوهما. كتب كولمبس:

"قال الإسبانيان إنَّ الهنود تلقَّوهما بلطفٍ بالغ، وحسب العادات الهندية فإنَّ جميع الرجال والنساء جاءوا لرؤيتهما، وأضافوهما في أفضل المنازل. وتلمّسهما الهنود وقبّلوا أيديهما وأقدامهما بتعجب معتقدين أنَّنا، نحن

---

8 King, James: *A Voyage to the Pacific Ocean, vol. III* (London: Printed by W. and A. Strahan for G. Nicol, 1784). P. 5.

الإسبان، جئنا من السماء. وقد قادهم الرجلان إلى اعتقاد ذلك، فأطعمهما الهنود مما يملكون"[9].

وبعد قوله إنَّ المواطنين اعتقدوا أنَّ الرجلَين الإسبانيَّين هبطا من السماء؛ أضاف كولمبس:

"بعد ذلك غادر الرجال، وجلست النساء بذات الطريقة حول الرجلين يقبّلن أقدامهما وأيديهما، ويحاولن التأكُّد إن كانا من لحم ودم مثلهن، وتوسَّلت النساء إليهما أن يبقيا هناك فترة أطول، على الأقل خمسة أيام"[10].

بالمِثل، افتتح باحث معاصر كتابه عن تقديس شعب هاواي للكابتن كوك، معلقاً على مجريات اليوم السابع من ديسمبر في سنة 1778م: "أخيراً، في هذا اليوم منح الكابتن كوك نساء هاواي حق أن يعاشرن الإنجليز منذ أن رسوا لأول مرة بسواحل [منطقة] كوا ..."[11]. مثلها مثل مدونة رحلة كولمبس، تشير مدونة رحلة كوك إلى أنَّ نساء هاواي كُنَّ يرجون أن يسمح لهنّ الإنجليز بمعاشرتهم منذ وصول سفنهم إلى الجزيرة.

إنَّ اعتقاد الأوروبيين بأنَّ بشرتهم البيضاء تسبغ عليهم قدسيَّة يرتبط بوهم آخر هو أنَّهم يتمتَّعون بجاذبية تدفع نساء الشعوب الأخرى إلى التعلُّق بهم، وأنَّ بياض بشرتهم يغري حتى الذكور بدفع نسائهم لمضاجعتهم للحصول على أبناء بِيض البشرة، وهذا يظهر كثيراً في نصوص (المكتشفين) والفاتحين. في روايته لقصَّة فتح المكسيك ادَّعى برنال دياز أنَّ إعجاب بعض الزعماء المكسيكيين بالأوروبيين دفعهم إلى تشبيه بعضهم بالشمس، فكتب عن إعجابهم بأحد

---

9 Columbus: *The log,* p. 103

10 كان كولمبس يعلم أنَّ يوميات رحلته ستُقرأ على نطاق نُخبة رفيعة وتُسلَّم منها نسخة إلى الملك، ولهذا لم يكن بوسعه أن يعبِّر عن مضامين جنسية إلا بطريقة مبطَّنة. فقوله إنَّ النساء تلمَّسن جسدَي الرجلين يوحي بدلالة شهويَّة، لأنَّه يقول إنَّ ذلك حدث بعد ذهاب الرجال واختلاء النساء بهما. المرجع السابق، ص 103.

11 Sahlins, Marshall: *Islands of History,* (Chicago: The University of Chicago press, 1985). p. 1.

الإسبان، وهو بدرو الفارادو: "لقد سموه (توناتيو) (Tonatio) ومعناه: الشمس، أو ابن الشمس، وظلُّوا ينادونه بذلك دائماً"[12]. وأورد في أكثر من موضع أنَّ زعماء المكسيكيين قدَّموا للإسبان الجميلات من نسائهم طمعاً في مصاهرتهم، فكتب عن اجتماع عقده زعماء قبيلة تلاكسكالا، لاتخاذ قرار حول التعامل مع الإسبان:

"يبدو أنَّ الزعماء قرَّروا فيما بينهم منحنا أجمل بناتهم وحفيداتهم اللائي في سن الزواج، فقد قال كسِوتنقا الأكبر: لكي نبرهن بأوضح ما يكون على أنَّنا نحبُّكم وأنَّنا راغبون في إرضائكم بكل السبل؛ نريد إعطاءَكم بناتنا كزوجات لينجبن أطفالاً ..."[13].

مثلما قال كولمبس إنَّ رجال الكاريبي فعلوا كل شيء لإرضاء الإسبان، وسمحوا لنسائهم أن يسألنَّهم البقاء إلى جانبهن، وقال دياز إنَّ المكسيكيين سعوا لإرضاء الإسبان بكل السبل حتى إنَّهم منحوهم نساءهم؛ كتب كنغ عن تعلُّق مواطني هاواي ببحارة أسطول كوك وميلهم لإرضائهم:

"حيثما سرنا كان الناس يتجمَّعون حولنا متطلِّعين لتقديم كل مساعدة يستطيعونها، ويسعدون بشدَّة إذا قبلنا خدماتهم. وكانوا يستعرضون فنونهم من أجل لفت انتباهنا واستبقائنا معهم"[14].

واستكمالاً لرغبة إرضاء الإنجليز، يقبل رجال هاواي أن تقوم نساؤهم بمضاجعتهم. إنَّ تشابه قصَّة (اكتشاف) هاواي مع قصَّة فتح المكسيك يتجاوز تقديس المواطنين للإنجليز واشتهاء الإناث لهم وتنازل الذكور عن نسائهم من أجلهم، فيظهر فيها أيضاً انحياز المرأة إلى الغزاة وتخلِّيها عن وطنها وأهلها. حسب الرواية الإنجليزية، عندما أراد كوك الرحيل أظهرت بعض نساء هاواي رغبة

12 Diaz, p. 187.

13 المرجع السابق، ص 20.

14 King, James: *A Voyage* , p. 75, 155.

الانضمام إلى رجاله والرحيل معهم على سفنهم، مثلما انضمَّت مارينا للإسبان في المكسيك وتخلَّت عن شعبها. هنا تتكامل عناصر ثيمة "المرأة الخائنة"؛ لأنَّ اتِّصال النساء بالغزاة يقود إلى علاقة جسدية تنتهي بالتخلِّي عن الوطن، والالتحاق بمجتمع الغزاة. وليس مُهمَّاً هنا أن تصبح رغبة نساء هاواي خيانة فعلية، والمهم هو ظهور العناصر المختلفة للثيمة لتكسبها طابعاً عنقودياً، حتى إن كانت مجرَّد نوايا ورغبات، فالعناصر السردية للخطاب تعمل على المستوى الرمزي، لا على مستوى الواقع.

من ناحية ثانية، تقول مدوَّنة جيمس كنغ إنَّ مواطني هاواي لم يتلقَّوا الإنجليز بطريقة عدائية، لأنَّهم اعتقدوا أنَّهم لا يريدون الاستقرار في أرضهم وأنَّهم سيعودون قريباً إلى حيث جاءوا. فكتب عمَّا اعتقد المواطنون أنَّه سبب مجيء الإنجليز:

> **"لقد اعتقدوا أنَّنا جئنا من بلد به نقص في الغذاء وأنَّ سبب زيارتنا هو الحصول على الطعام. ولا شك أنَّ مظاهر هزال بحارتنا وشره تناولنا طعامهم الطازج وحرصنا على شراء وحمل أكبر كمية ممكنة من الطعام قادتهم، بطريقة طبيعية، إلى تلك الخلاصة"**[15].

بعد ستة عشر يوماً من استضافتهم للإنجليز، بدأ السكان يلمِّحون للإنجليز بأنَّ وقت رحيلهم قد حان، وأخبروهم بأنَّهم إذا جاءوا في السنة القادمة فسيمكن تزويدهم بالكثير ممَّا يريدون. حسب رواية كنغ اعتقد أهل هاواي أنَّ الإنجليز "يريدون ملء أيديهم والعودة إلى وطنهم"، كما قال مؤرِّخو فتح أميركا والأندلس عن نبلاء القوط والأزتك. من الواضح أنَّنا كلَّما تقدَّمنا مع أسطول كوك في إقامته بهاواي، كلَّما تكشَّف المزيد من العناصر السردية المماثلة لمكوِّنات خطاب فتح أميركا.

---

15 المرجع السابق، ص 26...

كما حصل كورتس على ثروة ملك المكسيك موكتزوما عندما دُعي إلى قصره وأُعطي الخراج السنوي لمملكة الأزتك؛ كذلك دُعي كوك إلى مكان إقامة الملك الذي قدَّم له هدية عظيمة تضمّ خراج المملكة، بعد أن أخذ منها عينة رمزية. وعلَّق كنغ على ذلك: "لقد دُهِشنا من قيمة وضخامة هذه الهدية التي فاقت كل شيء سبق أن رأيناه في الجُزر الأخرى"[16].

ويضطرد تماثُل القصَّتَين، فكما حدث لسفن كورتس التي أعطبَها عمداً لإجبار جنوده على البقاء في المكسيك وخوض حرب ضدَّها وأخذ ملكها رهينة؛ فإنَّ العطب الذي أصاب سفينة كوك تفسِّره مدونة الرحلة بأنَّه أجبر الإنجليز على البقاء في الجزيرة وخوض حرب ضد أهلها ومحاولة أخذ الملك رهينة. برَّر كنغ الحرب التي شنَّها الإنجليز على مواطني هاواي بأنَّ أحدهم سرق شيئاً من السفينة (دِسكفري)، والواقع أنَّ كوك كان قد اتَّخذ قرار الحرب قبل ذلك. حسب كنغ نفسه، أخبره كوك قبل حدوث السرقة بأنَّه يجب معاملة المواطنين بعنف "حتى لا يعتقدوا أنَّهم متفوِّقون علينا"[17]. في هذا السياق الموجَّه نحو الحرب بتصميم مسبق، كتب كنغ عن تخطيط كوك لأخذ الملك رهينة:

> **"لقد كانت عادته حين يُفقد شيء له أهمية في جزر هذا المحيط أن يأتي بالملك، أو بعض كبار الزعماء، إلى السفينة ويتَّخذهم رهينة إلى أن يستعيد ما فقده"[18].**

عندما وصل كوك إلى مكان إقامة الملك دعاه للذهاب معه إلى سفينته، وبينما كان الملك يستعدُّ لمرافقته مطمئناً كما فعل موكتزوما في المكسيك؛ تدخَّلت زوجته التي شكَّت في نوايا كوك وطلبت من الملك عدم الذهاب، وتدخَّل الزعماء المحليُّون أيضاً لإثنائه عن ذلك. وفي هذه الأثناء أطلق ضابط

16 المرجع نفسه، ص. 29

17 المرجع نفسه، ص 40.

18 المرجع نفسه، ص 41.

إنجليزي النار على واحد من الزعماء كان أسيراً أيضاً وقتله، فدارت بينهم وبين الإنجليز معركة أُصيب فيها كوك بحجر في رأسه وطُعِن بسكين فخرّ صريعاً، وهنا هرب الإنجليز بسفنهم تاركين جثَّة قائدهم وراءهم. وتنتهي قصَّة كوك، حسب رواية الإنجليز، بأنَّ أهل هاواي جعلوا قبره مزاراً مقدَّساً بعد أن قتلوه، واتَّخذوه إلهاً.

إنَّ مجريات الأحداث في نهاية قصَّة غزو الإنجليز لهاواي تماثل إلى حد كبير الأحداث التي جرت عندما دخل الإسبان عاصمة المكسيك وانهزموا فيها، فعطب السفن يتسبَّب في بقاء الغزاة بأرض المملكة ليخوضوا مواجهة عسكرية بهدف أخذ الملك رهينة، لكن المواطنين يثورون ضد الغزاة ويلحقون بهم أضراراً جسيمة وينجحون في طردهم من أرضهم. ومثلما نتجت ثورة المكسيكيين عن قتل الإسبان لزعمائهم؛ ثار مواطنو هاواي بسبب قتل الإنجليز زعيماً لهم. وإذا أخذنا في الاعتبار أنَّ الطريقة التي قُتِل بها كوك هي الطريقة نفسها التي قُتِل بها ملك المكسيك، الذي أُصيب أيضاً بحجر في رأسه وطُعِن بسكين؛ فإنَّ ما جرى في نهاية قصَّة غزو هاواي يكاد أن يتطابق مع ما جرى في المكسيك[19].

إنَّ قالب فتوحات أميركا يُستعار بواسطة كنغ لأنَّه يحظى بتقدير رفيع في المخيِّلة الأوروبية إذ يستثير ذكرى أولئك الأبطال العظماء، فيمنح كوك القتيل مكانة بطل قومي لا يقل رفعة عنهم، إلى درجة أنَّه يحوِّله إلى كائن مقدَّس. وفي هذه الرواية يُغَيَّب اختلاف الظروف التي واجهها الإسبان في المكسيك عن تلك التي واجهها الإنجليز في هاواي لتصبح القصَّة ذات قالب سردي واحد مستعار عن فتح الأندلس، ليضفي عليها تماثلاً مع التواريخ العظيمة. إنَّ محاكاة كنغ لخطاب فتح المكسيك يرفع مكانة كوك الذي فشلت خطَّة أسره

19 يقول غُمارا إنَّ موكتزوما قُتِل بضربة حجر رماه به أحد المكسيكيين، وينفي دوران أن يكون الحجر قد أدى إلى موته ويقول، نقلاً عن رواة مكسيكيين، إنَّ طعنه بالسكين كان سبب موته، انظر: Gómara; p. 212- 213. وانظر أيضا: Duran, p. 545

للملك، مثلما رفعَ غُمارا مكانة كورتس باستعارة خطاب فتح الأندلس رغم أنَّ الأزتك هزموه وطردوه من عاصمتهم، ولم ينجح في دخولها إلا بعد أن خرَّبتها القبائل المعادية للأزتك. في قصَّتي فتح المكسيك و(اكتشاف) هاواي يُستعار خطاب الفتوحات العربية لاختلاق صورة عظيمة لغزوٍ يشوبه الفشل.

يتجلَّى أثر خطاب فتح أميركا على قصَّة كوك في أنَّها تستعيد معظم ثيماته: نبوءة عودة الإله الغائب، وتقديس الأوروبيين لبِياض بشرتهم، وانحياز النساء المواطنات إلى الغزاة، والأثر المخيف للسلاح الناري، وعروض العنف، والعطب الذي يصيب السفن ويقود إلى مواجهة عسكرية، واعتقاد المواطنين بأنَّ الغزاة سيعودون إلى بلادهم بعد إشباع حاجاتهم، وحصول الغزاة على خراج المملكة، وأخذ الملك رهينة، ثم اندلاع الحرب ومقتل القائد، وأخيراً نجاة الغزاة. وبخلاف تبادل الأدوار بين الشخصيات أحياناً، إذ يموت الملك في المكسيك بينما يموت قائد الغزاة في هاواي؛ فإنَّ قالب القصَّة يظل هو نفسه. ومن هنا يتَّضح أنَّ القول بتأليه شعوب الجنوب للأوروبيين لا يعود إلى وقائع حقيقة بقدر ما أنَّه نتاج فكر يفهم الوقائع بأدوات مستعارة من الروايات التاريخية الأندلسية.

ظهرت فكرة قُدسيَّة الغزاة في النصوص الإسبانية مع قصَّة فتح الأندلس. فقد نقل قدامى المؤرِّخين الإسبان عن النصوص العربية أنَّ قائد جيش القوط المكلَّف بحراسة الساحل أرسل إلى الملك رودريك رسالة حول ظهور جيش المسلمين على أرض الأندلس، دون أن يُعرَف كيف وصلوا من إفريقيا. ولأنَّ حاكم سبتة كان قد نقل جند طارق في عدة رحلات على متن سفنه وقد تخفّوا في هيئة تجار؛ فوجئ حرس الساحل بظهور جيش لم يروا أسطولاً ينقله، ولما رآهم قائد الحامية الساحلية كتب إلى ملك الأندلس: "نزل الأفارقة وبأرضنا لا

ندري هل جاءوا من السماء أم من الأرض، لقد وجدتهم فجأة أمامي"[20]. وذكر مؤرِّخ إسباني نقلاً عن نصوص عربية قديمة، أنَّ ذلك القائد كتب إلى ملك الأندلس رودريك مرجِّحاً نزول طارق وجيشه من السماء:

"لقد هاجَمَنا الغزاة الأفارقة، لكننا لا نعلم إن كانوا قد جاءوا من السماء أم من الأرض، ويبدو أنَّهم هبطوا من السماء لأنَّه لا توجد لهم سفن على الساحل. لقد أُخِذنا على حين غرَّة"[21].

تضيف نصوص عربية أخرى أنَّ مواطني الأندلس ظنُّوا أنَّ المسلمين كائنات مقدَّسة لأنَّ لحية موسى بن نُصير تغيَّرت في ثلاثة أيام من بيضاء إلى سوداء، لأنَّه كان يُخضِّبها، فظنّوا أنَّه نبي يعيد خلق نفسه مستردَّاً شبابه[22]. والشيء الذي يوضِّح أنَّ فكرة قُدسيَّة المسلمين متجذِّرة في الثقافة العربية هو ظهورها في نصوص فتوحات أخرى كثيرة غير فتح الأندلس، منها فتح فارس. فقد نقل الطبري عن أحد شهود العيان لمعركة (المدائن) أنَّه حينما جاء رسول الفرس يعرض الصُلح على سعد بن أبي وقاص، تصدَّى له أحد المسلمين وخاطبه بلسان فارسي فصيح، وهو لا يدري ما يقول. فرجع الرسول إلى الملك وأخبره بما قاله الجندي، فأمرهم الملك بالانسحاب فوراً، وقال مرتعباً:

"وا ويله! ألا إنَّ الملائكة تكلّم على ألسنتهم، ترد علينا وتجيبنا عن العرب، والله لئن لم يكن كذلك ما هذا إلا شيء أُلقي على هذا الرجل لننتهي، فأرزوا إلى المدينة القصوى"[23].

حسب الطبري، فُتحت (المدائن) لأنَّ ملك فارس اعتقد أنَّ المسلمين يتحدَّثون بلسان الملائكة، وأنَّ القول يُلقَى إليهم.

---

20 Condé, Juan Antonio: *History ...,* p. 55.

21 Irving, Washington: *Legends ...,* P. 93.

22 مجهول المؤلف: **اخبار** ...، ص 26.

23 الطبري: **التاريخ** ، ج4، ص 7.

في الثقافة العربية لم ترتبط فكرة تقديس الشعوب الأخرى للمسلمين بالمعرفة التاريخية وحدها، فكان لها أساس جغرافي يفسِّر سلوك الشعوب بنوع المناخ الذي تعيش فيه. فالمسعودي، الذي يعتبر من أوائل الذين أسسوا للمعرفة العربية بجغرافيا البلاد الأخرى وطبائع شعوبها، كتب عن البلاد التي يسكنها الزنج:

> **"وللعرب في قلوب الزنج هيبة عظيمة، فإذا عاينوا رجلاً منهم سجدوا له، وقالوا هذا ابن مملكة تُنبت بلادهم شجرة التمر، لجلالة التمر في صدورهم، ولأنَّ العرب إنَّما يصرفون صبيانهم بالتمر"**[24].

نشرت نصوص المسعودي هذه الفكرة بين معظم الجغرافيين والرحَّالة العرب، فشاع أنَّ الزنج يقدِّسون العرب؛ لأنَّهم يمتازون عنهم بشيء لا يملكونه. وبعدها أُدخِلت كل الشعوب الإفريقية تحت مظلة من يقدِّسون العرب، ولم يقتصر الاعتقاد بتلك الفكرة على الرحالة والجغرافيين فانتقلت إلى المؤرِّخين أيضاً. واستمرَّ ذلك من القرن التاسع الميلادي حتى وقت قريب من غزو الإسبان لأميركا، ففي القرن الخامس عشر كتب المقريزي عن شعوب الساحل الغربي للبحر الأحمر، وتحديداً شعب (البجا) الذي يقطن حالياً الإقليم الشرقي لجمهورية السودان، بأنَّ بلادهم تنتج "النخل وشجر الكرم والرياحين وغير ذلك"[25]. ورغم أنَّ المقريزي يثبت هنا أنَّ البجا يعرفون النخل، وبالتالي لا يمكن ادِّعاء أنَّهم يقدِّسون العرب بسبب التمر كما زعم المسعودي؛ مع ذلك يخلص المقريزي إلى أنَّ البجا يقدِّسون العرب بقدر يفوق ما ذكره المؤرِّخون السابقون، فكتب عنهم:

> **"وفيهم جنس آخر في آخر بلاد البجا يقال لهم البازة، نساؤهم جميعهم يتسمّون باسم واحد، وكذلك الرجال... وطَرَقَهم في وقت رجل مسلم له**

---

24 المسعودي: **أخبار الزمان ...**، ص 26.

25 المقريزي (تقي الدين أحمد بن علي، ت: 1442م): **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار**، الجزء الأول (القاهرة: مكتبة مدبولي، 1998م). ص 547.

جمال، فدعا بعضهم بعضاً وقالوا: هذا الله قد نزل من السماء، وهو جالس تحت شجرة، فجعلوا ينظرون إليه من بعد"[26].

لا يكتفي المقريزي بادِّعاء أنَّ البجا يقدِّسون العرب فيذهب أبعد من ذلك متجاوزاً السمة الجوهرية لعقيدة المسلمين وهي تنزيه الله عن الشبيه، حين يزعم أنَّ البجا طابقت بينه وبين رجل معيَّن. لقد كان ممكناً للخطاب العربي حول شعوب السودان اختلاق أي شيء عنها لأنَّها كانت تعد عند معظم الجغرافيين والمؤرِّخين العرب خارج نطاق الإنسانية، مثلما كانت شعوب الجنوب عند الأوروبيين[27]. توجد الجذور التاريخية لفكرة تأليه الأوروبيين في الخطاب العربي لأنَّها ظهرت فيه منذ وقت سابق لتشكُّل خطاب الفتوحات الأوروبية، وكل العناصر المكوِّنة له تظهر بوصفها ثيمة عنقودية، تربط فكرة القداسة بالجمال الجسدي والقدرات النبوئية.

إنَّ الكشف عن مصادر فكرة تأليه الأوروبيين يفض وهم أنَّ الأوروبيين كانوا متفوِّقين حضارياً وثقافياً على الشعوب التي غزوها في بداية العصر الحديث، لأنَّهم تلقَّوا المعرفة التي دوَّنوا بها تاريخهم الحديث من مصادر عربية. وإلى اليوم ما زالت تأثيرات ثقافة القرون الوسطى العربية حاضرة في الثقافة الغربية المعاصرة إذ يسعى بعض مفكِّريها إلى صياغة نظريات تحاول أن تثبت أنَّ شعوب الجنوب بالفعل ترى الأوروبيين آلهة، مستندين إلى دراسات تقوم على بحوث ميدانية يقولون إنَّها ذات طبيعة (علمية). وفيما يلي ثلاثة نماذج لأعمال مفكِّرين غربيين معاصرين يدافعون عن وهم ألوهية الأوروبيين، ويسعون لاسباغ طابع علمي عليه مستفيدين من قصَّة القبطان كوك وآخرين غيره، فقصص

---

26 المرجع السابق.

27 للتعرُّف على صورة شعوب إفريقيا في التراث العربي للقرون الوسطى، انظر:
عبد الله إبراهيم: **المركزية الإسلامية: صورة الآخر في المخيال الإسلامي خلال القرون الوسطى** (الدار البيضاء-بيروت: المركز الثقافي العربي، 2001). ص 195، وما بعدها.

الاكتشافات والفتوحات ليست مجرّد سرديات تاريخية ولكنها أدوات لصناعة الصورة المقبولة للمعرفة المعاصرة وبناء مخيِّلة العلماء والأكاديميين.

في ثمانينيات القرن العشرين أصدر المؤرِّخ السويسري المعاصر أورس بيترلي (Urs Bitterli) كتاباً تدور أطروحته حول أنَّ لقاء الأوروبيين بالمجتمعات غير الأوروبية أنتج ثلاثة أنواع من التأثيرات هي: الصدام (collison) والتماس (contact) والعلاقة (relationship). في حالة الصدام يقضي الطرف الأقوى على الطرف الأضعف، وفي حالة التماس يمارس الطرف الأقوى تأثيراً محدوداً على الأضعف، أما العلاقة فتنتج عنها تأثيرات متبادلة بين الطرفين ذات أمد طويل[28]. بناءً على ذلك يقول بيترلي إنَّ قبائل التاينوس (Tainos) التي التقاها كولمبس في جزيرة هسبانيولا (Hispaniola) بالبحر الكاريبي سلّمت بأُلوهيَّة الأوروبيين. معتقداً أنَّ الأوروبيين كانوا الطرف الأكثر قوة وتحضُّراً بين شعوب العالم في نهاية القرن الخامس عشر، ومتجاهلاً العلاقات المعقَّدة التي نشأت بينهم وبين الشعوب التي غزوها؛ يرى بيترلي أنَّ اعتقاد تلك الشعوب بأُلوهيَّة الأوروبيين شيء يستوجبه العقل، فيتساءل: "أليست الخلاصة الأكثر بداهة هي أن تُعدَّ تلك المخلوقات، غير المألوفة من حيث هيئتها وسلوكها وقوتها، [كائنات] فوق طبيعية؟"[29].

قريباً من الفترة التي كتب فيها بيترلي، صاغ عالم الأنثربولوجيا الأميركي مارشال سالينز (Marshal Sahlins) من فكرة أُلوهيَّة الأوروبيين نظريةً حول تفكير شعوب الجنوب، ووصف نظريته تلك بأنَّها نتاج "دراسة علمية" للثقافة.

---

28 Bitterli, Urs; *Cultures in Conflict: Encounters between Europeans and Non-European Culture, 1492-1800* (Stanford: Stanford University Press, 1989).

29 في سياق نقده لأفكار بيترلي، أجاب ماثيو رستال على هذا السؤال بالنفي، معقباً: "من المؤكد أنَّ الخلاصة الأكثر بداهة هي أن يُنظر إلى الأوروبيين ككائنات بشرية، بما أنَّ لهم هيئة بشر ويتصرفون مثلهم. وهذا ما حدث في الواقع من جانب المواطنين في أميركا كلها". انظر:

.Restall, Matthew; *Seven* …, p. 111

وتركَّزت أُطروحته حول أنَّ مواطني هاواي اعتقدوا بألوهية جيمس كوك واتَّخذوا قبره مزاراً مقدَّساً. يرى سالينز أنَّ الأنظمة المفاهيمية للشعوب المختلفة تنتج معايير خاصة لأنماط عقلانيتها، ومن هذه الفرضية ادَّعى صدق ما ورد في سيرة جيمس كوك بأنَّه عند نزوله جُزر هاواي تلقَّاه مواطنوها على أنَّه الإله "لونا" الذي كانوا ينتظرونه زمناً طويلاً[30].

اتَّخذ سالينز ثقافة هاواي مثالاً لبحث الكيفية التي حاول بها شعبها المحافظة على ثقافته في ظل حاجته إلى التوافق مع الظروف الجديدة التي أعقبت دخول الإنجليز إلى أرضهم. من جهته، عارض الباحث الأميركي كنانات أوبيسكري (Cananath Obyesekere) السريلانكي الأصل، مزاعم سالينز، مبيِّناً أنَّ اعتقاد الأوروبيين بأُلوهيَّتهم كان وهماً تبنّوه في سياق تطويرهم لأساليب السيطرة على شعوب الأخرى والتقليل من مكانة ثقافاتها. ويرى أن محاولة إلباس تلك الأطروحة ثوب نظرية علمية يجعل من سالينز أحد المدافعين عن الثقافة الاستعمارية في المؤسَّسات الأكاديمية الغربية، وفي المعرفة المعاصرة[31].

مدعِّماً دراسته النقدية بالوثائق والملاحظات المباشرة، يقول أوبيسكرى إنَّ الافتراضات المسبقة حول تفوُّق الأوروبيين هي التي دفعت سالينز لأن يبحث في مدوَّنات رحلة كوك عن أقوال منسوبة إلى مواطني هاواي، تدَّعي اعتقاد أحد زعمائهم بأنَّ الإنجليز كانوا يسافرون إلى السماء، وأنَّ "البياض الناصع والمُبهِر لبشرة الإنجليز مستمدٌّ من ضياء الشمس"[32]. وبرجوعه إلى يوميات

---

30 حسب رأي بوروفسكي، تبنَّى سالينز منهجية بنيوية منذ كتاباته المبكرة واهتمّ باختلاف نظم تفكير الشعوب رائياً أنَّ: "التحدي الأكبر أمام الأنثربولوجيا التاريخية ليس هو الكيفية التي تنظِّم بها الثقافات المختلفة الأحداث التاريخية، وإنَّما الكيفية التي تعيد بها بناء الثقافة في سياق تنظيمها للأحداث التاريخية، أي كيف تصبح عملية إعادة إنتاج البنية هي تغييرها". انظر:
Borofsky, Robert: Cook, Lono, Obyesecere, and Sahlins, *Current Anthropology,* vol 38, no. 2, (April 1997), 255-282. P. 255.

31 Obeyesekere, Cananath; *The Apotheosis ..,* p. 86- 93..

32 المرجع السابق، ص 71.

جون ريكمان (John Rickman: 1737–1818)، وهو أحد مرافقي كوك، أوضح اوبيسكري أنَّ النصَّ لا يحتوي أكثر من أنَّ الزعيم شبَّه الصوت والضوء اللذين كانا يصدران عن أسلحة الإنجليز بالرعد والبرق الصادرين عن السماء، ومن ذلك يخلص أوبيسكرى إلى أنَّه: "لا وجود في أي مكان بصحيفة ريكمان لما افترضه [سالينز] حول أنَّ البريطانيين سافروا إلى الشمس"[33]. وبمثل هذا النوع من استقصاء المصادر التاريخية ينكشف في القصص التي وردت فيها مزاعم أُلوهيَّة الأوروبيين أنَّها نتاج مخيِّلة مؤرِّخيهم ومفكِّريهم، القدماء منهم والمعاصرين.

بعد سالينز وبيترلي كتب المؤرِّخ الإثنوغرافي غريغ ديننغ (Greg Dening) في التسعينيات إنَّ رحلة الإنجليزي وِليام بلاي (William Bligh: 1754–1817) إلى تاهيتي استثارت لدى مواطنيها اعتقاداً بألوهية البحَّارة الإنجليز[34]. يرى ديننغ أنَّ التاريخ إذ يحوِّل الماضي إلى كلمات فإنَّه يقوم بترميزه في سرديات تحتفظ بعلاقته مع الواقع، وتمنع تحويله إلى خيال محض عن طريق النظر إلى تغيُّرات الحدث والتركيز على السيرورة الزمنية[35]. ويصف دننغ المحيط الهادئ بأنَّه: كان في القرن الثامن عشر "مسرحاً عالمياً" تشغله القوى المتحضِّرة ممثَّلة في أوروبا، وخاصة إنجلترا، التي يقول عنها إنَّها كانت رائدة التنوير في أوروبا لأنَّها فاقت غيرها في "حسن إدارة الوقت ونظام الحكم والقانون والاقتصاد السياسي"، حسب قوله[36]. في خاتمة كتابه ربط غريغ وصول الإنجليز إلى جزر المحيط الهادئ بمزاعم تحضُّرهم بخلاف ما توضِّحه قصص رحلاتهم البحرية من استمرار العقلية الأسطورية التي تماثل عقلية الإسبان، التي كانت

---

33 المرجع نفسه، صفحة 72.

34 Denning, Greg; *Mr Bligh's Bad Language: Passion, Power and Theatre on the Bounty* (United States of America; Canto, 1994).

35 المرجع السابق، ص 6-5.

36 المرجع نفسه، ص 373.

قد استعارت قصص الفتوحات العربية من العصور الوسطى لتعيد تشغيلها في العصر الحديث.

توضِّح هذه النماذج من أعمال الباحثين المعاصرين أنَّ أسطورة تأليه الأوروبيين لم تكن بلا وظيفة، وإنَّما كانت تساهم في تهيئة الإنسان الأوروبي ليتصرَّف عمليَّاً في العالم بوصفه (إلهاً) من حقِّه أن يتحكَّم بمصائر البشر. إنَّ فكرة أُلوهيَّة الأوروبي لم تستمر إلى يومنا هذا وتتحول إلى نظرية علمية في قاعات الدراسة الأكاديمية بلا مقدِّمات، فقد مهَّد لها الغزاة عن طريق ربط حملاتهم العسكرية بنشر الحضارة ومشاريع التحديث والسعي لنشر المعرفة العلمية.

المثال الواضح على أن دعاوى أُلوهية الأوروبيين ترتبط بمزاعم نشر المعرفة هو أنَّ نابليون حين غزا مصر على أعتاب القرن التاسع عشر مدَّعياً أنَّه يريد نقل أهلها إلى مرحلة الحداثة، أشاع أنَّ المصريين عظَّموه حتى قدَّسوه. ومثلما اختارت النسخة الإنجليزية التركيز على ثيمة الألوهية في قصَّة كوك؛ اختار الفرنسيون التركيز على ذلك العنصر في قصَّة فتح أميركا الذي يؤكِّد تفوُّق الأوروبيين إلى حدٍ يُوهِم بقدسيَّتهم، وهو امتلاكهم معرفة علمية حديثة صِاغ لها الفرنسيون صورة "حملة علمية" ذات قدرات إعجازية تقارب الآلهة. ووُصف نابليون نفسه بامتلاك معرفة مماثلة، فبعد وصوله أرض مصر أصدر أحد منشوراته التي وجَّهها إلى مواطنيها موحياً بأن له معرفة تخوِّله إصدار أحكام إلهية على البشر، ونسبَ إلى نفسه التحكم بالقدَر، فخاطبهم قائلاً:

> **"... سيأتي وقت ويوم يظهر لكم بالمعاينة أنَّ كل ما فعلته وحكمت به فهو حكم إلهي لا يُرد، وأنَّ اجتهاد الإنسان غاية جهده لا يمنعه عن قضاء الله الذي قدّره وأجراه على يدي"**[37].

---

37 أحمد حافظ عوض: **نابليون بونابرت في مصر** (القاهرة: كلمات عربية، 2012). ص 267..

هنا يقدِّم نابليون نفسه قاضياً بإرادة الرب ومجرياً للأقدار، وسيدَّعي بعد ذلك أنَّه قام بكثير من الأفعال التي نسبتها قصَّة فتح أميركا إلى الإسبان، وصبغَت عقول معظم الغزاة الأوروبيين فصاغوا تواريخ فتوحاتهم على قالبها. وإن كان هذا الفصل قد بيَّن كيف استولى الإنجليز على خطاب فتح أميركا، فإنَّ الفصل التالي يبيِّن كيف استولى عليه الفرنسيون بعدهم بوساطة نابليون.

النُسخة الفرنسيَّة لخطاب الفُتُوحات:
نابليون يغزو الشرق

يكشف القرن السادس عشر عن تزامُن جهود متعدِّدة في مشروع الغزو الأوروبي للعالم، الذي انطلق من طرفَي قارَّة أوروبا البعيدَين عن بعضهما. فمن الطرف الغربي انطلق الإسبان والبرتغاليون، ومن الطرف الشرقي انطلق الأتراك العثمانيون، وتصارعَ الطرفان على اقتسام العالم. ولأنَّ الأتراك كانوا مسلمين، استثار ذلك لدى الإسبان والبرتغاليين ذكرى تعرُّضهم لغزو مسلمي شمال إفريقيا في القرن الثامن بقيادة طارق بن زياد، فجاءت قصص فتوحات الإسبان في أميركا على نسق خطاب فتوحات شرق وجنوب المتوسِّط للردِّ على خطر المسلمين عبر الاستيلاء على خطابهم التاريخي، الذي كان يمثِّل خطاب الثقافة العالمية آنذاك. وبما أنَّ القوى الأوروبية الصاعدة، مثل إنجلترا وفرنسا، نافست إسبانيا وتركيا على غزو العالم وكانت في حاجة لاصطناع تواريخ عظيمة لأُممِها؛ فقد كُتبت تواريخ فتوحها على طريقة الإسبان، الذين استعاروا خطاب فتوحات مسلمي شرق وجنوب البحر الأبيض المتوسِّط.

بنهاية القرن الثامن عشر تفوَّقت إنجلترا على فرنسا في حجم مستعمراتها بعد أن سيطرت على الهند، وكان على فرنسا أن تقوم بنقلة كبيرة في مجال التوسُّع الخارجي تتيح لها الاستحواذ على أرض جديدة تزوِّدها بثروات تضعها في المقدِّمة. وكان نشر المعلومات حول القوة الضاربة التي تتمتَّع بها الدول أحد أهمّ أدوات نجاحها في السيطرة على المستعمرات دون كلفة كبيرة.

بالإضافة إلى هذه الأسباب، كان سعي القادة العسكريين للحصول على المجد الشخصي يشكِّل دافعاً مهمَّاً لتحقيق الفتوحات لأنَّها تؤهِّلهم للحصول على مناصب عليا في البلاد التي يغزونها، وأحياناً في أوروبا نفسها. وكان واحد من أبرز قادة الجيش الفرنسي آنذاك وأكثرهم طموحاً، واسمه نابليون بونابرت، ضمن هؤلاء الذين يحتاجون مجداً شخصياً لبناء مستقبلهم السياسي، فبدأ يخطِّط لتحقيق نجاح عسكري كبير بأن يغزو بلاد الشرق.

بعد ثمان سنوات من الثورة الفرنسية، أي في سنة 1797م التي توصَّل فيها نابليون إلى اتِّفاقية سلام مع النمسا بخصوص إيطاليا، نشرت صحيفة فرنسية رسالة لكاتب يصف شخصية نابليون جاء فيها: "في ذلك الرأس المفكِّر والعقل الجرئ يستحيل افتراض أنَّه لا تدور خطط سيكون لها تأثيرها على مصير أوروبا"[1]. وفي مقدِّمة كتاب لوي بوريان الذي تناول فيه سيرة حياة نابليون كتب الناشر: "إنَّ تاريخ نابليون هو تاريخ أوروبا كلها"[2]. لقد نظر الأوروبيون إلى نابليون بوصفه مبتكر الوصفة العملية لتحديث معظم بلاد أوروبا الغربية، من فرنسا إلى هولندا وبلجيكا وألمانيا وسويسرا، وحتى البرتغال وإسبانيا[3].

بهذا المنظور الذي يرى نابليون أعظم شخصيات أوروبا التي استهلَّت مرحلة الحداثة الناضجة التي يُؤرَّخ لها بالثورة الفرنسية؛ ينظر هذا الفصل في توظيف الفرنسيين لقصَّة الفتح الإسباني لأميركا الذي استهلَّ الحداثة الباكرة.

---

1 Bourrienne, Louis: *Bourrienne's Memoirs of Napoleon Bonaparte*, (Hartford: Silas Andrus, 1851). P. 73.

2 Bourrienne, Louis; *Memoirs of Napoleon Bonaparte, Vol. 1,* (New York : Charles Scribner's Sons,1891).p. 1.

نسبة لوجود ترجمتين إنجليزيتين غير متطابقتين لكتاب بوريان، سيشار فيما بعد إلى الاقتباسات المأخوذة من الترجمة الصادرة عن دار نشر (Andrus) في سنة 1851 بالاختصار التالي: Bourrienne, Louis: *Bourrienne's* ، بينما يشار إلى ترجمة دار نشر (Scribner) الصادرة في سنة 1891 بالاختصار التالي: Bourrienne, Louis; *Memoirs*. وذلك حسب الطريقة التي كُتب بها العنوان في الكتابين.

3 Grab,Alexander: *Napoleon and the Transformation of Europe*, (New York: Palgrave-Macmilan, 2003).

ولأنَّ نابليون وُلِد قريباً جداً من الفترة التي راجت فيها قصَّة جيمس كوك، ولم تفصله عنه إلا حوالي عشرين عاماً؛ فقد شهد مولد أسطورة أحد الإنجليز الذين ساهموا في صناعة تاريخ أُمَّتهم بأن حقَّق (اكتشافاً) عظيماً، كما الإسبان. وربما من هنا رغب نابليون في أن يكون بطلاً للنسخة الفرنسية من قصص "الفتوحات العظيمة"، التي رسمت في المخيِّلة الجماعية لأمم أوروبا الغربية صورتها عن نفسها بوصفها متفوِّقة على بقيَّة البشر، ويحقُّ لها سيادة العالم.

في نهاية القرن الثامن عشر كانت سمعة نابليون قد بدأت تملأ أوروبا بوصفه قائداً يتبنَّى قيم الثورة الفرنسية ويسعى لتخليص أوروبا من حكم الملوك. ويُقال إنَّه عند غزوه لإيطاليا تلقَّاه مواطنوها كمحرِّر وليس غازياً، وفي طريق عودته إلى فرنسا، مارَّاً بسويسرا، خرجت الجماهير تهتف له في الشوارع: يعيش نابليون، يعيش القاهر، فاعتقد أنَّه المخلِّص الذي تنتظره الشعوب التي تعاني من اضطهاد حكَّامها. إنَّ تصوُّر نابليون لمَهمَّته الخلاصيَّة التي اعتقد أنَّ عليه القيام بها لبناء أوروبا الحديثة يظهر في تبشيره بقيم الجمهورية الفرنسية في خطاب ألقاه في لوكسمبرغ حول توقيع اتِّفاقية السلام مع إيطاليا، قال فيه:

> **"لكي يصبح الفرنسيون أحراراً كان عليهم أنَّ يتخلَّصوا من الملوك ويتَّخذوا دستوراً يستند إلى العقل. إنَّ سلبيَّات ثمانية عشر قرناً كان يجب القضاء عليها [...] لقد تولَّى الدين والإقطاع والمَلكيَّة حكم أوروبا لعشرين قرناً، لكن من الوقت الذي توصَّلتم فيه إلى اتِّفاقية السلام هذه يبدأ عهد الحكومات التمثيلية"[4].**

لقد تصوَّر نابليون أنَّ مَهمَّته تتركَّز في جعل أوروبا تتبع مُثُل الثورة الفرنسية القائمة على عقلانية عصر التنوير، فبعد الفقرة السابقة التي أشار فيها إلى السلطة القائمة على العقل، ربط الحرية السياسة بالعلم والفنون، قائلاً:

---

4 Bourrienne, Louis: *Bourrienne's ...*, p. 74.

"لقد فعلتم أكثر من ذلك، إنَّ القسمَين الأكثر جمالاً في أوروبا، والمُحتفَي بهما في مجالي العلم والفنون، واللَّذين كانا مهد عظماء الرجال، يتطلِّعان بترقُّب عظيم إلى عبقرية الحرية التي تصعد من مرقد أسلافها. هذا هو المُنطلق الذي يوشك القدر أن يضع أمَّتين عظيمتين على عتبته"[5].

كان تطلُّع نابليون إلى السلطة والثراء والشهرة يدفعه إلى ربط النجاح العسكري بالعلم والفنون لكي يرسم لنفسه صورة قائد مثالي يجمع بين المعرفة العقلية والحنكة العسكرية، فيقدِّم نفسه إلى أوروبا بوصفه حامل مشروع حداثي يستند إلى قيم الحرية والعدالة والعقلانية، المنسوبة إلى عصر التنوير والثورة الفرنسية.

بعد فترة قليلة من خطابه ذاك عُيِّن نابليون في 12 أبريل سنة 1798م قائداً على ما يُسمَّى "جيش الشرق" الفرنسي، وكان حينها في آخر العشرينيات من عمره. لقد أدرك نابليون أنَّ تضاؤل فرص الحرب في أوروبا بعد اتِّفاقية السلام توشك أن تضعه بعيداً عن الأضواء، فقرَّر أن يغزو الشرق بحملة ضمَّت أربعين ألفاً من الجنود استهدفت في البداية فتح مصر وفلسطين وسوريا، ثم التوسُّع في كل المنطقة.

اختِيرت مصر هدفاً فرنسياً لثلاثة أسباب: أولها أنَّها البلد الذي ستشكِّل السيطرة عليه ضغطاً على مستعمرات إنجلترا التي كان توسُّعها المتزايد في الشرق يهدِّد مصالح فرنسا، والثاني أنَّ مصر كانت بوابة التجارة بين بلاد الشرق وأوروبا لأنَّها تربط البحر الأحمر بالبحر الأبيض المتوسِّط، والسبب الثالث هو أن السيطرة على مصر كانت تُعتبر خطوة مُهمة نحو تفكيك الإمبراطورية العثمانية، وهو ما كانت فرنسا تطمح إلى تحقيقه رغم وقوفها إلى جانب العثمانيين ضد إنجلترا. وكان تفكيك الإمبراطورية العثمانية هدفاً قديماً

---

5 المرجع نفسه الصفحة نفسها.

يتطلَّع الأوروبيون إلى تحقيقه منذ القرن السابع عشر، وقد ساهم في التخطيط له واحد من أبرز مفكِّري غرب أوروبا، هو الفيلسوف الألماني غوتفريد فيلهلم لايبنتس، الذي كان قد صاغ مشروع حملة لغزو مصر قدَّمه إلى ملك فرنسا لويس الرابع عشر[6]. وهذا يعني أنَّ غزو فرنسا لمصر كان نتيجة تصوُّر مسبق تشكَّل في المخيِّلة الأوروبية قبل فترة طويلة، وكان مجال تأمُّل جماعي قديم، ولذا حين غزا نابليون مصر أضاف لنفسه، ولتاريخ فرنسا، مجداً أوروبياً كبيراً. ورغم أنَّ الحملة كانت هي المَهمَّة الحربية الوحيدة لنابليون خارج أوروبا ولم يحقِّق فيها نجاحاً كبيراً، إلا أنه كتب تقاريرها بطريقة وضعتها ضمن أحداث التاريخ العظيمة. ومثلما صاغ المؤرِّخون الإسبان تاريخ فتح أميركا اعتماداً على تقارير كورتس، صيغت قصَّة غزو مصر بالاستناد إلى تقارير نابليون التي لزمت قالب قصَّة فتح أميركا، فحقَّقت لفرنسا رأسمالاً رمزياً رفع مكانتها العالمية، وساهمت في إضفاء بُعدٍ خارق على شخصية نابليون.

بخلاف ما أُشِيع حول عظمة الحملة على الشرق، ومزاعم استيلاء نابليون على مصر بعبقرية نادرة، كان في الحقيقة قد فشل في السيطرة عليها وتأمين الوجود الفرنسي فيها، إلّا لفترة محدودة جداً. فعقب هزيمة المماليك تزايدت الثورات الداخلية في مصر واستعصى على الفرنسيين إخضاع المقاومة الشعبية، التي انفتحت منافذ دعمها من جهة العثمانيين، ثم دمَّر الإنجليز أسطول فرنسا المرابط في مياه مصر في موقعة أبي قير، وفشل نابليون في غزوه البرِّي لسوريا وعكّا وخسر الآلاف من جنوده، فرجع إلى القاهرة ليبقى محاصَراً هناك إلى أن انسحب هارباً وترك جيشه في مصر. رغم كل هذا كان نابليون يرسل إلى فرنسا تقارير رسمية راجت في الصحف ونجحت في تصوير حملته على أنَّها قصَّة فتح عظيم، فكان لاستخدام قالب قصَّة فتح أميركا دور حاسم في

6 انظر مشروع الحملة في الفصل المخصص لغوتفريد لايبنتس في: محمد عبد الرحمن حسن: **ذاتيات ...**، ص 87 وما يليها.

تثبيت اعتقاد الفرنسيين بنجاح نابليون في مَهمَّته ورفع مكانته السياسية، فعقب غزوه لمصر مباشرة استولى على الحكم في فرنسا ونصَّبَ نفسه إمبراطوراً، بعد أن كان مجرَّد قائد عسكري ناجح. إنَّ غزو الشرق لم يرفع مكانة نابليون فقط، وإنَّما رفع مكانة فرنسا في أوروبا كلها، فقد كتب فورييه ممجِّداً الحملة:

"يتذكَّر المرء الانطباع الذي تركته على أوروبا بأكملها الأنباء المذهلة بأنَّ الفرنسيين قد دخلوا الشرق ... وكان هذا المشروع العظيم قد دُرِس في صمت بإمعان وتأمُّل عميق، وأُعِدّ له بدرجة من النشاط والسريَّة خدعت رصد أعدائنا القلقين الذين لم يدركوا، إلا لحظة حدوثه، أنَّه كان قد تُصُوِّر، وخُطِّطَ له، ونُفِّذَ بنجاح ..."[7].

ربما تكون الإجراءات العسكرية التي اتبعها نابليون لكي يفلت من رقابة الأسطول الإنجليزي ويبلغ أرض مصر قد قامت بالفعل على تخطيط دقيق؛ أما الأحداث التي جرت في الشرق، أي ما يتعلَّق الغزو بوصفه حدثاً تاريخياً، فلا يتضمَّن أيَّة "أنباء مذهلة"، وإن كان لغزو الشرق سمة مميِّزة، فهي بالتحديد عدم تضمُّنه نوعاً من الخصوصية التي تتَّسم بها الأحداث التاريخية، ومصدر صورته المذهلة هو تبنِّيه لقالب سردي قديم يزوِّد المخيِّلة الأوروبية بصورة متوارثة عن "الفتوحات العظيمة". على طريقة غُومارا في تمجيد سيرة كورتس عن طريق تصوير فتح المكسيك حدثاً عالمياً، وعلى طريقة كنغ في تمجيد سيرة كوك، وصفَ فورييه غزو نابليون للشرق بأنَّه حدثٌ سيترك آثاره على العلاقات بين أمم العالم[8].

حسب التصوُّر الفرنسي، إن كان فتح كورتس للمكسيك هو الذي ابتدر حقبة الحداثة بتمكين بلاد جنوب غرب أوروبا من السيطرة على "العالم الجديد"؛ فإنَّ غزو نابليون للشرق سيستكمل مشروع الحداثة بسيطرة شمال غرب أوروبا

---

7 إ إدوارد و. سعيد: **الاستشراق: المعرفة، السلطة، الإنشاء**، ترجمة كمال أبوديب (بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية، 1981). ص 111.

8 المرجع السابق، الصفحة السابقة.

على العالم القديم، أي إفريقيا وآسيا. إنَّ الجديد في سعي الأوروبيين لاقتسام التاريخ العالمي وتصويره على أنَّه "تاريخ حديث" هو تغيير مسرحه فقط وليس أحداثه، أي تكرار التاريخ بنقل قصصه إلى مناطق مختلفة في العالم، تغزوها أمم أوروبية مختلفة.

الشيء الذي يقلِّل من صدق الرواية الفرنسية الرسمية حول غزو الشرق، والمعتمدة على تقارير الحملة نفسها، أنَّ مقارنة معلوماتها بما ورد في الوثائق الإنجليزية والعربية عن أحداث الغزو تُظهِر أنَّ معلوماتها تفارق كثيراً المعلومات الإنجليزية والعربية التي تتوافق فيما بينها. وهذا يرجِّح وجود تزييف متعمَّد للحقائق في مدوَّنات السلطات الفرنسية والتقارير التي كان يشرف على كتابتها نابليون بنفسه، ما يؤيِّد هذا أنَّ لوي انتونين بوريان، سكرتير نابليون وكاتب خطاباته في أثناء الحملة، نفى في مذكِّراته كثيراً ممَّا جاء في التقارير الرسمية للحملة، وأوضح أنَّها كانت تُورِد عمداً معلومات خاطئة لأنَّها كانت تُعرَض على نابليون فيغيِّر ما لا يرضيه منها.

مثلاً، في حصار عكَّا خسر الفرنسيون حوالي ثلاثة آلاف رجل بين قتيل وجريح، لكن سجلَّات نابليون ذكرت خمسمئة قتيل وألف جريح فقط، بينما جعلت خسارة الأتراك خمسة عشر ألف رجل، وقد وصف بوريان هذه الأرقام بأنَّها كذب صريح[9]. وذكرت سجِلَّات الحملة أنَّ عكَّا دُمِّرت بالكامل أثناء حصار الفرنسيين لها وأنَّ زعيم المماليك أُصيب بجرح خطير وأنَّ سكَّانها هجروها، وكل هذا كذَّبه بوريان أيضاً. وقال إنَّه عندما اعترض على تلك المعلومات الخاطئة طلب منه نابليون أن يكتب ما يمليه عليه، لأنَّه "يريد أن يملأ العالم إعجاباً وأن يُلهم المؤرِّخين والشعراء"، حسب ما نقله عنه بوريان[10].

وبالفعل، صاغ نابليون من غزوه لمصر قصَّة تاريخية عظيمة جعلت كبار شعراء أوروبا، أمثال ووردزورث ولورد بايرون وجين أوستن، يصوِّرونه

---

9 Bourrienne, Louis; *Memoirs* ... p. 110

10 المرجع السابق، ص 114.

شخصيَّة تاريخية عظيمة ومثيرة للجدل، إلى حدِّ أنَّ تولستوي نظر إلى بعض أفعال نابليون كأفعال فوق بشرية، ووصفها بأنها "هِبَات إلهيَّة"[11]. وكتب أديب فرنسا الكبير فكتور هوغو نصَّاً شعريَّاً يروِّج لما ادَّعاه نابليون من أنَّ المصريين اعتبروه نبيَّاً مرسلاً لهم، فكتب هوغو:

ابن المعجزة، أذهلَ بلد المعجزات
والشيوخ الكبار عظَّموا الأمير الحكيم الصغير
فملأ الناس خوفاً بجيوشه التي لم يسبق لها مثيل
إنَّه نبيل وجليل، تلقَّته القبائل المأخوذة به مثل (محمَّد) غربي[12].

لقد تجاوزت مكانة نابليون حدود فرنسا فصار في أوروبا كلها أنموذجاً لرجل الطبقة الوسطى الذي يمكن أن ترفعه عبقريته وشجاعته إلى أعلى المراتب.

أين يُمكِن العثور على المصادر التي زوَّدت نابليون بما أتاح له أن يُلهِم المؤرِّخين والشعراء، إن لم يكن في قصص فتوحات الإسبان لممالك أميركا؟ فهي القصص الوحيدة التي تروي أحداثاً خارقة في تاريخ أوروبا الحديثة، والتي لقيت رواجاً عظيماً بين أممها منذ بداية العصر الحديث حتى فترة صعود نجم نابليون. ولأنَّ نابليون نفسه كان متعلِّقاً بالأدب، وكتب شيئاً من الشعر في شبابه، كان يدرك دور المخيِّلة في تصوير الأحداث، وإنشاء الحقيقة التاريخية.

---

11 تقدِّم أعمال كبار الأدباء الأوروبيين صورة مبالغ فيها عن عبقرية وعظمة نابليون. ليس فقط في فرنسا، وإنَّما في بلاد أوروبا الغربية التي غزاها مثل ألمانيا، وتلك التي كان عدواً لها مثل بريطانيا، وحتى في أوروبا الشرقية، مثل روسيا. للتعرف على نماذج لتلك النصوص التي تتفاوت بين التعظيم والنقد، انظر:
Bainbridge, Simon: *Napoleon and English Romanticism,* (USA: Cambridge University Press, 1995).
Jackson, Robert L.: Napoleon in Russian Literature, *Yale French Studies*, no. 26, the myth of napoleon (1960), 106-118.

12 استخدم هوغو هنا لفظ (ماهومت) (Mahomet) وهو لفظ يستخدم في التقليد الأدبي الغربي، غالباً، في السياقات التي تقلل من مكانة الرسول محمد، بدلا عن الإشارة إليه باسمه العربي. انظر ترجمة عربية أخرى لهذه الأبيات في: إدوارد و. سعيد: **الاستشراق...**، ص 109.

كما سبق التوضيح في قصَّة فتح المكسيك وبيرو وغيرهما من بلاد أميركا، قدَّم الفاتحون الإسبان عروضاً مسرحية مرعبة توحي بقسوتهم أمام المواطنين، لإثارة خوفهم وإيقاع الهزيمة النفسية بهم قبل خوض أية مواجهة ضدّهم. وفي المراحل التالية من قصَّة الفتح كان الغزاة يُقدَّمون في صورة أُمَّة متفوِّقة حضارياً، وبالمقابل يُقدَّم أهل البلد في صورة شعب ساذج له عقلية خرافية. ومع القرن السابع عشر حدث تحوُّل في صورة الغزاة الإسبان نتيجة التنازع الأوروبي على قصَّة الفتح مع اندفاع إنجلترا وفرنسا نحو أميركا، ومحاولتهما اقتسام المستعمرات الإسبانية. وفي تلك الفترة ركَّز الإنجليز والفرنسيون على الصورة السالبة للفاتحين الإسبان، وألقوا الأضواء على قصص المجازر والإبادات التي ارتكبوها في أميركا[13]. وردّاً على ذلك سعى الإسبان لرفع مكانتهم التاريخية بتقديم فاتحي أميركا في صورة ممثِّلي أُمَّة متحضرة، فأزاحوا مشاهد العنف إلى خلفية قصَّة الفتح. وكان ذلك جزءاً من عملية تحديث الخطاب التي يقوم بها المؤرِّخون بين فترة وأخرى، لكي توافق سردياتهم تحولات الأوضاع في الحقب المختلفة، وتستجيب لانشغالات أُممهم ومصالح مجتمعاتهم في ظروف عالمية متغيِّرة.

في كتابٍ وضَعَه عن فتح المكسيك بعد أكثر من قرن على حدوثه، ذكر المؤرِّخ الإسباني أنطونيو سوليس أنَّ كورتس حينما خاطب ملك المكسيك أوضح له أنَّ الأوروبيين يتميَّزون عن المكسيكيين بأنَّ لهم عقولاً أرقى لأنَّهم مولودون في مناخٍ أفضل، مستخلِصاً على لسان كورتس: "إنَّ الأوروبيين يتفوَّقون على شعوب أميركا بامتلاكهم العلم والصناعة"[14]. وهذه الصورة للغازي، التي تقدِّمه رمزاً لأُمَّة متحضِّرة تمتلك عقلاً وعلماً فائقَين، هي التي ستطغى على المخيِّلة

13 Greer, Margrette R.,Mignolo, Walter D and Quilligan, Maurean (eds.): *Reading the Black Legend*, (Chicago: University of Chicago, 2007).

14 De Solis, p. 311.

الأوروبية بعد القرن الثامن عشر؛ وسيتولّى مؤرِّخوها ومفكّروها تحويلها إلى (حقيقة) يُشاع أنَّها ذات طبيعة علمية، لا تقبل جدالاً.

اعتماداً على فكرة تساوي البشر في ملكة العقل وقابلية الأمم الأخرى لقبول الحضارة الأوروبية، سيُبرَّر مشروع غزو العالم في عصر التنوير على أساس عقلي، وليس على أساس ديني كما كان الحال عندما بدأ الإسبان غزو أميركا. وبعدها سيتَّخذُ هذا الادِّعاء وجهين: وجه عنفٍ وتدمير، ووجه تحضُّرٍ وتطوير. وهذا الازدواج هو الذي ظلَّ الغرب يقدِّم به نفسه إلى العالم حتى اليوم، فاقترن ترغيب الشعوب في الالتحاق بالحضارة الغربية بتدمير من يرفض الخضوع لها. وفي ظل سيادة هذه الثقافة نشأ نابليون واكتسب عقليته الحداثية التي تربط مبادئ الثورة الفرنسية بالعنف العسكري.

تعلَّم نابليون في مدرسة حربية كانت تقدِّم للضباط الفرنسيين معرفة عسكرية تدعمها ثقافة التنوير التي تُسلِّم بامتياز الأوروبيين على الشعوب الأخرى، إلى جانب معارف بالتاريخ العسكري تضمُّ معلومات عن الحروب والفتوحات الأوروبية. وعلى أساس هذه الثقافة التي تربط المعرفة بالسيطرة وتاريخ الغزو الأوروبي، سعى نابليون لإعطاء حملته على الشرق مظهر مَهمَّة حضارية تغطِّي على وجهها العسكري، فقد كان الدرس الأساسي الذي استفاده الأوروبيون من غزو أميركا هو أنَّ الفتح يتحقَّق بانهزام المواطنين معنوياً، بعروض توهمهم بالتفوُّق الحضاري للغزاة. وأنَّ هزيمة الشعوب عسكرياً لا تكفي لإخضاعها لأنَّها تكون مؤقَّتة، وفي الغالب تعقبها إعادة بناء المقاومة المحلِّية، فالفتح لا يثبت، والإخضاع لا يُستدام إن لم يُكسَب المواطنون عقلية تسلِّم بعجزهم عن تغيير أوضاعهم، وتشيع بينهم اعتقاداً بأنَّ تطوُّرهم سيتحقَّق على يد الغزاة وحدهم. على هذا الأساس قاد نابليون حملة عسكرية وعلمية معاً؛ ووظّف تقنية "الغزو باعتباره عرضاً مسرحياً" لإقناع العالم بأنَّه حقَّق فتحاً عظيماً في الشرق لا يقلّ عن الفتوحات العظيمة الأخرى في التاريخ الأوروبي،

مصطنِعاً للفرنسيين صورة أُمَّة متحضِّرة تتكبَّد المشاق من أجل "تنوير الشعوب المتأخِّرة"، وهي الصورة التي كان قالب قصَّة فتح أميركا مُعدَّاً لخدمتها. ولنتابع فيما يلي تماثلات قصَّة غزو نابليون لمصر مع قصَّة فتح أميركا.

بعد الانتصارات التي حققها نابليون في إيطاليا أمرته الحكومة الفرنسية أن يعدّ حملة على إنجلترا، لكنه بدلاً من أن يهاجمها على أرضها قرَّر مهاجمتها بالدوران من الجهة الأخرى للأرض، ليضربها من جهة الشرق بضرب تجارتها وأسطولها في الهند، بعد أن يسيطر على مصر. وبتبنِّيه طريقة الغزاة الإسبان في فتح البلاد بإتيانها من الناحية الأخرى من الكرة الأرضية؛ كان نابليون يتصوَّر مَهمَّته العسكرية على الطريقة المألوفة في قصص الفتوحات الكبرى، واستمرّ يقول إنَّه سيحقِّق منها ما تفُوق سمعته أعظم الفتوحات في التاريخ. وهذا يدلُّ على أنَّه كان يرى الحاضر استعادةً للماضي، حسبما صاغت صورته المخيِّلة الأوروبية.

يضاف إلى هذا تماثلٌ ثانٍ ساهم في تعميق تصوُّر نابليون لمهمَّته بأنَّها تحاكي فتوحات أميركا. فحين لاحت للفرنسيين منارة الإسكندرية وهم في البحر الأبيض المتوسِّط، تذكَّر نابليون وضباط الحملة أنَّ بانيها هو الإسكندر الأكبر، وأنَّ الرومان حكموا مصر وطوَّروا حضارتها. فاعتقد الفرنسيون أنَّهم سلالة أولئك الأسلاف يعودون من جديد إلى مستعمرتهم السابقة ليخلِّصوها من الحكام الظالمين، كما ورد في قصَّة فتح أميركا عن عودة الإسبان إليها لتخليصها. يُعلِّق بوريان على بؤس الجنود الفرنسيين في مصر في الأيام الأولى لدخولهم القاهرة قائلاً: "لم تعد مصر هي مصر البطالسة، التي كانت مغطَّاة بالمدن المأهولة بالسكان والثراء، فهي تعرض مشهداً مكرَّراً من الخراب والبؤس"[15]. يضع بوريان نصب عينيه (الماضي العظيم) لمصر حين حكمها الأوروبيون

15 Bourrienne, Louis; *Memoirs..* ; p. 90.

مقارناً إياه بحاضرها "البائس" تحت حكم المماليك والأتراك. منذ البداية تصطنع مخيِّلة الفرنسيين شيئاً قريباً مما اصطنعته مخيِّلة الإسبان عند هبوطهم أرض أميركا، حين اعتقدوا أنَّ الأزتك يعدُّون الإسبان أبناء مؤسسي حضارة المكسيك القدماء، القادمون لاستعادة حكم بلدهم الذي تدهورت أوضاعه.

هذه الصورة تُماثل ما اصطنعه الغزاة والمؤرِّخون الإسبان لشعوب أميركا وحكامهم، لتبرير غزوهم بحجَّة تخليصهم من تأخُّرهم واستبداد ملوكهم وانحراف أخلاقهم. فقد رسمت الحملة للمصريين صورة شعب بدائي يحكمه مستبدُّون، منحرفون أخلاقياً. وشابهت نظرة بعض الجنود الفرنسيين لحكام مصر، أي المماليك والأتراك، نظرة المسلمين إلى رودريك ملك الأندلس الذي اغتصب فتاة عُهِد إليه برعايتها، ونظرة الإسبان إلى أخلاق الأزتك[16].

كما كان الإسبان يفعلون عند بدء غزوهم لممالك أميركا، اصطنع الفرنسيون صورة جاذبة للبلد الذي غزوه من حيث غناه بالإمكانات الطبيعية، مع وضع مواطنيه في مكانة البرابرة، لتبرير العنف الذي سيُبذَل للسيطرة عليهم. ففي خطابه الأول الذي أرسله إلى فرنسا عقب دخوله القاهرة، كتب نابليون إلى أخيه جوزيف:

> **"ستُطالع في الصحف العامة أخبار معارك القاهرة وفتحها، والتي ستضيف ما فيه الكفاية إلى مجد هذا الجيش. إنَّ مصر أغنى من أي بلد في العالم بالقطن والأرز والخضروات والماشية. لكن البشر في حال بربرية تامة، فلا يمكننا حتى تحصيل المال لدفع مرتَّبات الجنود"[17].**

---

16 مثلما أشاع الإسبان عن الأزتك ممارسة الجنس بين الرجال، جاء في خطاب أرسله إلى فرنسا ضابط بالحملة أنَّ اللواط "حالة شائعة بين المماليك والأتراك". حول نظرة نابليون والجنود الفرنسيين للمصريين انظر الفصل السادس عشر في:

Dwyer, Philip; *Napoleon: The Path to Power*, (New Haven and London: Yale University Press, 2008).

17 Bourrienne, Louis; *Memoirs...* p. 87.

إنَّ اختلاق صورة للبلاد تحتوي تعارضاً بين إمكاناتها الطبيعية العالية والانحطاط الحضاري لشعبها، يمثِّل أبرز سمات خطاب الفتوحات الأوروبية الحديثة. إنَّ الوضع الذي يتَّسم بهذه المفارقة هو وحده الذي يُضفي على الغزو صورة مشروع له طابع خلاصي، يستهدف نشر الحضارة بين برابرة يحتاجون تطوير قدراتهم بما يتماشى وإمكانات بلدهم الغني. هنا يبدو الغزو فعلاً عادلاً وضرورياً يحقِّق توازناً بين طرفي المعادلة المختلة: غنى البلد وفقر قدرات أهله. وهذا ما كانت تركِّز عليه نصوص فتح أميركا التي شدّدت دائماً على ثراء المكسيك وتفوقها على إسبانيا من حيث إمكاناتها الطبيعية، في مقابل فساد مواطنيها وانحراف عاداتهم وكسلهم ... إلخ.

تماثِل العناصر السابقة عناصر المرحلة التمهيدية لقصَّة فتح المكسيك. حيث يتلقَّى قائد الغزاة أمراً من السلطات العليا بأن يقوم بمَهمَّة محدَّدة، لكنه يتَّخذ قراراً بالقيام بغزو على مسؤوليته الشخصية. ويتصوَّر الغزاة أنَّهم من نسل أسلاف متحضِّرين سبق أن فتحوا ذلك البلد وساهموا في إنشاء حضارته، وأنَّهم يعودون إليه ليخلِّصوا شعبه من حكَّامه الظالمين، ومن التخلُّف والانحراف الخُلقي الذي يعيشون فيه.

في الجزء الثاني من القصَّة، الذي يتضمَّن أحداثاً تدلّ على سيطرة رمزية، تظهر عناصر محدودة مماثلة لعناصر قصَّة فتح أميركا؛ منها أنَّ الفرنسيين يبدأون بعد دخولهم القاهرة الاستيلاء على ثروات كبار قادة المماليك، فيحصلون على كنوز تضمُّ ذهباً وفضَّة وجواهر، وأسلحة مرصَّعة بالدرِّ. وأحصى المؤرِّخ عبد الرحمن الجبرتي الذي عاش أحداث الغزو ووثَّق يومياته، ثروات كثيرة أخذها الفرنسيون من بيوت كبار المماليك، فكتب عن مجريات اليوم الثالث عشر من شهر نوفمبر سنة 1798: "وفيه أخرجوا من بيت نسيب إبرهيم كتخدا صناديق ضمنها مصاغ وجواهر وأواني ذهب وفضة ..."[18]. وبعد يومين فقط:

18 الجبرتي (عبد الرحمن بن حسن): **عجائب الآثار في التراجم والأخبار، ج 3**، (القاهرة: دار الكتب المصرية، 1998)، ص 53.

"دُلُّوا على إنسان عنده صندوقان وديعة لأيوب بك الدفتردار، فطلبوه وأمروه بإحضارهما فأحضرهما بعد الإنكار والجحد عدة مرار، فوجدوا ضمنها أسلحة وجواهر وسبح لؤلؤ وخناجر مجوهرة، وغير ذلك"[19].

إنَّ كنز الفرنسيين يماثل كنزَي فتح الأندلس وفتح المكسيك في معظم التفاصيل، فهو كنز مخبَّأ يخصُّ واحداً من الفئة الحاكمة ويدلُّهم عليه شخص ما، ويحتوي على ذهب وجواهر وأسلحة مزيَّنة تصبح رمزاً لاستيلاء الغزاة على الثروة والسلطة في مصر.

بخصوص العروض ذات القيمة الرمزية التي توحي بتقدُّم الغزاة وقدرتهم على ضبط أهل البلد، أشاع الفرنسيون أنَّهم سيرسلون في سماء القاهرة آلة تطير بالبشر في الجو، لكن تلك الطائرة لم تكن سوى منطاد هوائي سقط قبل أن يرتفع كثيراً وخاب العرض، فكتب عنها الجبرتي ساخراً من الفرنسيين:

"فلمَّا حصل لها ذلك انكسف طبعهم لسقوطها ولم يتبيَّن صحَّة ما قالوه: من أنَّها على هيئة مركب تسير في الهواء بحكمة مصنوعة ويجلس فيها أنفار من الناس، ويسافرون فيها إلى البلاد البعيدة لكشف الأخبار وإرسال المراسلات. بل ظهر أنَّها مثل الطيَّارة التي يعملها الفراشون بالمواسم والأفراح"[20].

تضمَّنت الخطوات العملية للسيطرة على مصر استيلاء نابليون على مالطا وهو في طريقه إلى مصر، حيث أقام حامية من ثلاثة آلاف جندي ليحافظ على اتِّصاله مع فرنسا، وأخذ منها بعض المغاربة ممّن كان الأتراك يعتقلونهم في مالطا، ليعملوا مترجمين له في مصر[21]. وحين وصل سواحل مصر عمل

---

19 المرجع السابق، الصفحة السابقة.

20 المرجع نفسه، صفحة 53-54.

21 أحمد حافظ عوض: **نابليون ...**، ص 86.

وانظر أيضاً: Bourrienne, Louis: *Bourrienne's* ... p. 79.

أولئك الأسرى مترجمين لمنشوراته فنقلوها من الفرنسية إلى العربية ونشروها بين المصريين لتزويدهم بانطباعات إيجابية عن الفرنسيين تقطع طريق المقاومة. حسب الجبرتي، قال نابليون في منشوره الأول لأهل مصر: إنَّه جاء ليخلِّصهم من ظلم الحكَّام المماليك الذين استولوا على خيرات بلدهم، وإنَّه يريد تحقيق العدالة للمواطنين ولا يريد البقاء في مصر، فبعدها سيعود إلى فرنسا[22].

هذه العناصر الثلاثة تماثل تماماً ما اتَّبعه كورتس وطارق لإنجاح فتحَيهما. فإقامة حامية تحمي ظهر الحملة كان أول أفعالهما، يليه استخدام الأسرى رسلاً ومترجمين لترغيب أهل البلد في الميل إليهم والتحالف معهم ضد الحكام المحلِّيين، ودفعهم لتصديق أنَّ الغزاة لا يريدون البقاء في أرضهم. لقد اعتقد نابليون أنَّه بوعوده هذه التي يقدِّمها للمصريين سيتلقَّونه كمخلِّص مُنتَظَر، كما تلقَّى المكسيكيون كورتس.

زعمَ نابليون في وثائق الحملة أنَّ المصريين قبِلوا به حاكماً عليهم، ولكن الحقيقة كانت خلاف ذلك. فرغم قلة عتادهم العسكري، واجه المصريون الحملة منذ نزولها في الإسكندرية بالبنادق والمدافع وكل سلاح لديهم، وفي معركة أمبابة الفاصلة استخدم المماليك أربعين مدفعاً ثابتاً، لكن مدافع الفرنسيين المتحرِّكة كانت أفضل أداءً، فحسمت المواجهة لصالحهم[23]. وبعدها استمرَّت مقاومة المصريين، فثار أهل القاهرة أيضاً. إنَّ زعم قبول المصريين بنابليون حاكماً يطابق زعم كورتس وبقيَّة فاتحي ممالك أميركا أنَّ مواطنيها قبلوا بالإسبان، منذ نزولهم سواحل بلادهم، حكَّاماً عليهم. تكمن وظيفة هذا الادِّعاء الذي درَج الأوروبيون على إطلاقه، في أنَّه يتيح وصف المقاومة الوطنية بأنَّها تمرُّد على سلطة شرعية، وبالتالي يبرِّر إيقاع أقصى عنف ممكن على مناهضي الغزو.

---

22 الجبرتي: **عجائب ...**، ص 5. وانظر أيضاً: Bourrienne, Louis: *Bourrienne's* ... p. 80

23 أحمد حافظ عوض: **نابليون...**، ص 140.

اصطنعت مخيِّلة الفرنسيين تماثلاً آخر بين غزوهم لمصر وغزو الإسبان لأميركا، هو حرق السفن، فقد أضفى الفرنسيون على تدمير الإنجليز لأسطول نابليون دلالة تطابق حرق الفاتحين الإسبان لسفنهم في غزو المكسيك. وقياساً على ذلك سمَّى الفرنسيون حادثة قصف الإنجليز لأسطولهم في أبي قير "حادثة حرق السفن"، فقد كتب بوريان: "بحرق سفننا انقطع اتِّصالنا بفرنسا وفقدنا كل أمل في العودة"[24]. وسواء كان حرق السفن قد تم بواسطة الفرنسيين أو بواسطة أعدائهم، فقد ترتَّب عليه نفس الوضع الذي وجد فيه الإسبان أنفسهم حين حرق كورتس سفنه، فصاروا منعزلين في أرض بعيدة، منقطعين عن كل عون من بلدهم. لكن ذلك لم يُحبطهم وإنَّما زوَّدهم بدافع قوي لتحقيق النصر لأنَّهم فقدوا خيار العودة، فتوجَّهوا لاستكمال الفتح بهمَّة عالية، كما فعل الإسبان قبلهم. وقرَّر نابليون أن يُحوِّل الوضع العسير الذي تسبَّب فيه تدمير الأسطول إلى دافع قوي لتحقيق فتح شامل للشرق. وحادثة حرق السفن، حتى في صورتها المباشرة التي يتولَّى فيها الفاتحون حرق سفنهم بأنفسهم، لا تغيب عن قصَّة غزو نابليون لمصر، فهناك حكاية فرنسية تقول إنَّه حينما حاصر المماليك سفينة فرنسية، أثناء تقدُّمها نحو صعيد مصر، حرق قائد فرنسي سفينته حتى لا يسيطر المماليك عليها، فمات فيها مضحِّياً بنفسه.

مثلما جاء في وصف المؤرِّخين لكورتس وطارق بأنَّهما تميَّزا بلسان بليغ حوَّل تمرُّد جنود حملتيهما إلى قوة وأكسبهم عزماً وإصراراً على تحقيق الفتح؛ قال المؤرِّخون الفرنسيون إنَّ نابليون كان يخطب في جنوده ليحوِّل ضعف عزيمتهم وميلهم للتمرُّد إلى قوة دافعة لتحقيق الفتح. عندما تحرَّكت الحملة من الأسكندرية نحو القاهرة كان جنودها في حال تذمُّر ويأس من إمكانية النجاة والعودة إلى فرنسا، فخطب فيهم نابليون أمام الأهرامات حاثَّاً إياهم أن يدخلوا ذاكرة التاريخ، ووضعهم أمام خيار النصر والخلود أو الفشل والفناء، فقال لهم:

24 Bourrienne, Louis: *Bourrienne's* ... p. 86

"إنَّ أربعة آلاف سنة من التاريخ تنظر إليكم"، ملمِّحاً إلى تاريخ مصر المتمثِّل في أهراماتها[25]. وهذا تعبير يستعيد بلغة مجازية مضمون خطبتَي طارق وكورتس وهما يُخيِّران جنودهما بين الفوز بالحياة أو الانهزام والفناء.

بعد احتراق السفن اندلعت ثورة في القاهرة عانى الفرنسيون كثيراً في قمعها، وخسروا عدداً من الجنود، وشنُّوا حملات استمرَّت أياماً عدَّة قُبِض فيها على أعداد كبيرة من المصريين بطريقة عشوائية، واستمروا يقتلون العشرات في الليل بطريقة نظاميةً، ويقذفون جثثهم في النيل كي لا يبقى لها أثر. يقول بوريان في مذكراته إنَّ نابليون كتب في خطاب وجَّهه إلى الجنرال راينير (Reynier): "إنَّنا نقطع في كل ليلة ثلاثين رأساً، وإني آمل أن يكون لهذا تأثير"[26]. لم يكن التأثير الذي يقصده نابليون شيئاً آخر سوى خفض عدد الثوار، أما الأثر المراد إحداثه على عموم الشعب المصري فلم يحدثه نابليون إلا بنفس العنف الغاشم الذي مورس في غزو أميركا، والذي كان يُجرَى في وضح النهار وفي عروض جماهيرية تقام في ساحات عامة بطريقة احتفالية، تذكِّر بعروض حرق البشر التي كانت تمارَس في أوروبا أمام قادة محاكم التفتيش.

بعد ثورة القاهرة وحملات الإرهاب العمياء التي قادها نابليون وسط المواطنين دون تمييز، قامت خليَّة مقاومة في منطقة دمنهور بعمل انتقامي ضد الغزاة، حسب زعم الفرنسيين، فقتلت مجموعة من الجنود. وعندها نظَّم بونابرت مذبحة كبيرة فحرَقَ كل المنطقة وقتل كثيراً من النساء والأطفال والشيوخ. وقد وثَّقت شهادة بوريان مجريات المذبحة في عبارات مثيرة للفزع، حملتها الفقرة التالية:

"صدرت الأوامر بأن تُقطَع رؤوس الضحايا وتُجلَب إلى القاهرة في جوَّالات لكي تُعرض على الناس[...]، فعادت الحملة في اليوم التالي من دمنهور

---

25 المرجع السابق، ص 83.

26 Bourrienn, Louis; *Memoir* ... p. 97.

وهي تقود كثيراً من النساء العربيات سائرات على الأقدام، وقد مات كثيرٌ من الأطفال بسبب الجوع والحرارة والتعب. وفي حوالي الساعة الرابعة وصلت قافلة من الحمير إلى الأزبكية محمّلة بجوالات، فُتحت أمام جماعات الناس فتدحرجت منها الرؤوس. ولا يمكنني وصف الرعب الذي عشته حينها، ولكن رغم ذلك يجب أن أعترف بأنَّ هذه المجزرة حقَّقت استقراراً في الأوضاع لفترةٍ مقدَّرة"[27].

شكَّل هذا النوع من عروض الرعب الجانب المكمِّل للعروض العلميَّة والتجارب المرئية والمتاحف المفتوحة التي أقامتها الحملة الفرنسية في مصر. ففكرة الفتح من حيث هو عرض جماهيري كانت تتضمَّن نوعين من العروض ملتحمين ببعضهما التحاماً وثيقاً: عروض الإبادة وعروض الحضارة. فالعروض الحية تزوِّد مواطني البلد الذي يتم غزوه بتجربة حيَّة مع الترهيب والترغيب، اللذين كانا لا يعمل أحدهما من دون الآخر في مشروع الغزو الأوروبي للعالم. كانت عروض العنف تساهم في تكوين خبرة رعب مشتركة، وتقود إلى تناقلها بين المواطنين وتداولها بطريقة تحدُّ من اتِّساع عمليات مقاومة الغزاة. هذا هو السياق الذي يجب أن يُفهم فيه ما يسمَّيه المؤرخون "الجهود العلميَّة" للحملة الفرنسية، ففي الواقع لم تكن رغبة "تنوير الشرق" ونقل الحداثة هي التي تدفع الفرنسيين إلى تقديم تلك العروض والأنشطة العلمية، لأنَّ التضامن بين عروض المذابح وعروض التحضُّر كان سمة مميِّزة للصورة النموذجية للفتوحات الأوروبية، كما أوضحت الفصول السابقة.

بعد نشوب ثورة القاهرة وإقامة عروض العنف، استدعى نابليون بقية تقنيات الإخضاع التي يتضمَّنها قالب قصَّة الفتح، مستهدفاً تحقيق الخضوع العقلي من جانب المصريين وهزيمتهم نفسياً، بعد أن تبيَّن عدم كفاية العنف الجسدي. أشاع نابليون، باسم الزعماء المصريين ورجال الدين، وجود نبوءات قديمة تقول

27 المرجع نفسه، الصفحة نفسها. وانظر أيضاً: Bourrienne, Louis: *Bourrienne's* ... p. 89

إنَّه سيأتي فاتح من جهة الغرب ينقذ المصريين من ظلم الحكام المماليك. وطلب من رجال الدين أن يقدِّموا أفعاله إلى المصريين بأنَّها تعبِّر عن إرادة الله في تحقيق الخلاص لهم، لأنَّه الفاتح المنتظر الذي قالت به نبوءات إلهية. كتب نابليون عدداً من المنشورات بهذا المعنى باللغة الفرنسية، تُرجمت إلى اللغة العربية ونُشرت في يوم 21 ديسمبر سنة 1798م، وفيها حضَّ علماء مصر وشيوخها على إقناع مواطنيهم بقدراته الإلهية ومكانته المقدَّسة، فخاطبهم:

"العاقل من يعرف أنَّ ما فعلناه بتقدير الله تعالى، وإرادته وقضائه. ومن يشكّ في ذلك فهو أحمق وأعمى البصيرة، وأعلِموا أيضاً أُمَّتكم أنَّ الله قدَّر في الأزل هلاك أعداء الإسلام وتكسير الصلبان على يدي. وقدَّر في الأزل أني أجيء من الغرب إلى أرض مصر لهلاك الذين ظلموا فيها وإجراء الأمر الذي أُمِرت به، ولا يشك العاقل أن هذا كله بتقدير الله وإرادته وقضائه، وأعلِموا أيضاً أمتَّكم أن القرآن العزيز صرَّح في آيات كثيرة بوقوع الذي حصل، وأشار في آيات أخرى إلى أمور تقع في المستقبل، وكلام الله في كتابه صدق، وحقّ لا يتخلَّف"[28].

بجانب الكذب الواضح في ادِّعاء نابليون بأنَّه سيقوم بتكسير الصلبان، يتبيَّن أنَّ الفكرة القائمة وراء تلك المنشورات تطابق فكرة أنَّه وُجدت لدى المكسيكيين نبوءات دينية تقول بقرب وصول مخلِّصين يمتلكون صفات الآلهة، وأنَّ المواطنين صدَّقوا تلك النبوءات واستسلموا للإسبان دون إظهار أيَّة مقاومة. ويُلاحَظ أنَّ المنشور الفرنسي يستوعب العناصر الضرورية في ثيمة "قدسية الغزاة" كما وردت في قصَّة فتح المكسيك، فهو يحدِّد اتِّجاهاً جغرافياً يأتي منه الغزاة، ويستصدر نبوءة من نصٍّ مقدَّس، ويستخدم رجال الدين لنشر النبوءة. وهذا كله يجعل من قدسية الغزاة في القصَّة الفرنسية ثيمة عنقودية متكاملة، لا مجرَّد عنصر سردي.

---

28 أحمد حافظ عوض: **نابليون...**، ص 267.

بلغ اعتقاد نابليون بقدسيَّته أنَّه جعل نفسه من يقرِّر خلاص أو شقاء المصريين يوم القيامة، فكتب "إنَّ الذين يبلغ بهم الاستخفاف إلى معاداتي لا يجدون ملجأً لأنفسهم، لا في هذا العالم ولا في عالم الآخرة"[29]. ومثما زعم كورتس أنَّ مواطني المكسيك اعتقدوا أنَّه صاحب قدرات إلهية تُطلِعه على ما في نفوسهم حين ينظر في بوصلته؛ كذلك أشاع نابليون أنَّه يستطيع التنبُّؤ بما يخطر على قلوب المصريين، فخاطبهم:

"واعلموا أيضاً أني أقدر على إظهار ما في أنفس كل واحد منكم، لأني أعرف أحوال الشخص وما انطوى عليه بمجرد ما أراه، وإن كنت لا أتكلم ولا أنطق بالذي عنده"[30].

إنَّ الربط الذي يقيمه نابليون بين قُدسيَّة الغزاة وتفوُّق قدراتهم المعرفية مصدره معيار معيَّن يميِّز به بين الأوروبيين (المتحضِّرين) والشرقيين (البرابرة)؛ وهو معيار المعرفة. فالفرنسيون يؤدُّون دور مخلِّصي الشرق لأنَّهم أكثر معرفة. استناداً إلى دور المعرفة كأداة تمييز اهتمَّ نابليون بجلب ما يدعم حجَّة التفوُّق المعرفي للفرنسيين، بما في ذلك المعرفة الدنيوية المتمثِّلة في العلوم التجريبية التي تعمل عنصراً مكمِّلاً لبراهين التفوُّق، القائم ضمناً في فكرة قدسية الغزاة. ليست المعرفة العلمية شيئاً أساسياً في مشروع غزو نابليون للشرق، لأنَّها كانت تمثِّل جزءاً من التصوُّر الهجين للمعرفة، الذي يمزج القصص الموروثة بالخبرة التجريبية، كما كان حال العقلية الإسبانية.

في جانب آخر من جوانب استلهامه سلوك فاتحي أميركا، سارع نابليون إلى أخذ زعماء القاهرة رهائن ليضمن سلامة نفسه وجنوده من ثورة المواطنين. فعندما نشبت ثورة القاهرة ألقى القبض على اثني عشر شيخاً واتَّخذهم رهائن لديه،

---

29 المرجع السابق، ص 268.

30 المرجع نفسه، ص 267.

فاستتبَّ الأمن بعد أن فرض عليهم الشروط التي ضمنت سلامة الفرنسيين[31]. وعندما توجَّه إلى غزو الشام، واقترب من السويس أخذ أيضاً زعماء القبائل العربية المقيمة هناك رهائن عنده، ليأمن هجوم الأتراك عليه[32].

بعد ذلك حاصر نابليون عكَّا، آملاً أن يحصل على كنوز زعماء المماليك التي نقلوها معهم من مصر وأخفوها في حصونهم. وكان يركِّز بوجه خاص على كنوز زعيم المماليك الملقَّب بالجزَّار، ولأنَّه كان يعتقد أنَّه أخفاها في حصن مدينة عكَّا فقد حاصر الحصن لفترة شهرين انتهت بفشل فتحه. وكان يؤكِّد لرجاله أنَّ كل كنوز الجزَّار توجد داخل ذلك الحصن، ولم يكتف بتحديد مكان الكنز لكنه حدَّد مقداره أيضاً، فقال إنَّه يكفي لتسليح ثلاثمئة ألف رجل! وظلَّ نابليون يخطِّط لما بعد حصوله على الكنز، فهو يقول إنَّه سيقوم بتسليح السوريين في حلب ودمشق والمناطق المجاورة ليتحالفوا معه ويقوى جيشُه ويسير إلى القسطنطينية، عاصمة العثمانيين، فيفتحها.

إلى هنا، يبدو جليَّاً أنَّ نابليون كان يعتقد أنَّه المخلِّص الذي ينتظره أهل الشرق، ويؤكِّد سكرتيره أنَّه كان يتصرَّف على أساس أنَّ اعتقاداته تمثِّل الحقيقة، فمن أين استمدَّ نابليون اليقين بصدق اعتقاداته عن الشرق؟ بالطبع لا يمكننا معرفة ما كان يدور في عقله ويمكننا فقط استخلاص ملامح المخيِّلة التي ألهمته اعتقاداته لأنَّها تظهر في الطريقة التي غزا بها مصر مقلِّداً غزو أميركا. إنَّ يقين نابليون بتحقُّق توقُّعاته ليس بلا مبرِّر، فلديه مبرِّر تجريبي في التاريخ الأوروبي يؤكِّد أنَّ الغزوات التي تجري ذلك المجرى كانت تُكلَّل بالنجاح. ورغم أنَّ حملته على عكَّا فشلت فشلاً ذريعاً وخسر عدداً كبيراً من جنوده؛ إلَّا أنَّ نابليون كتب أنَّها حقَّقت نتائج كبيرة، منها: تدمير الحصن وجرح زعيم المماليك وقتل أعداد كبيرة من جنوده.

31 Bourrienne, Louis: *Bourrienne's* ..., p. 95.

32 أحمد حافظ عوض: نابليون...، ص 280.

بما أنَّنا أمام قصَّة تستلهم فتح أميركا، فينبغي ألا تُختم قبل ظهور المرأة الخائنة على المسرح. لقد أوردت مصادر عدَّة أنَّ نابليون اتَّخذ امرأة مصرية عشيقة له، يُقال إنَّها كانت ابنة شيخ له مكانة رفيعة في المجتمع المصري، يقول عنها "فيليب دوير" إنَّها قُتِلت بعد رحيل الفرنسيين لأنَّ المصريين اعتبروها خائنة لوطنها[33]. أما الرواية المصرية فتقول إنَّ المرأة وجدت احتقاراً كبيراً من المصريين بعد خروج الغزاة، ولا تورد شيئاً عن قتلها[34]. ورغم أن نابليون كانت له عشيقة فرنسية جاءت مع الحملة، هي مدام فوريس التي كانت بصحبة زوجها الضابط، إلَّا أنَّ نابليون بحث عن عشيقة مصرية ذات مكانة اجتماعية، وسعت في ذلك عشيقته الفرنسية نفسها لأكثر من مرَّة، حتى جمعته بابنة ذلك الرجل المصري.

في الشرق، أظهر نابليون اهتماماً كبيراً بالعثور على امرأة مصرية تؤدِّي دور الخائنة، رغم وعيه بالمخاطر الجمَّة التي قد يسبِّبها هذا السلوك المنحرف. ففي توجيهاته لجنود الحملة قبل هبوطها ساحل مصر، شدَّد كثيراً "على عدم المساس بالشرف"، مبرِّراً ذلك بالحساسية الشديدة للمجتمع المصري نحوه. إنَّ حِرص نابليون على إسناد دور عشيقة قائد الغزاة إلى امرأة مصرية، مع وجود امرأة فرنسية كانت تلعب ذلك الدور، يرجَّح أنَّه كان يدرك أهمية المرأة الخائنة في قصص الفتوح، كونها تعدُّ رمزاً لامتلاك البلد وليست مجرَّد عشيقة للقائد. الشيء الذي يؤكِّد أنَّ مَهمَّة المرأة المصرية كانت تتمثَّل في أداء دور يطابق دور خائنة المكسيك؛ أنَّه رُوعي في مواصفاتها أن تكون ذات مكانة رفيعة في المجتمع المصري وابنة زعيم، كما كان حال خائنة المكسيك، وكما كانت قبلها ابنة يوليان، خائنة الأندلس.

---

33 يشير مرجع أخر إلى أنَّ تلك المرأة صادقها ضباطاً فرنسيون، وليس نابليون، انظر:.
Cole, Juan: Napoleon's Egypt: Invading the Middle East, (United States of America: Palgrave, 2007). P. 188.

34 أحمد حافظ عوض: **نابليون...**، ص 311.

إلى هنا استوفت قصَّة غزو مصر معظم العناصر المُهمَّة في قصَّة فتح المكسيك تقريباً، وبعدها انسحب نابليون من مسرح الأحداث ميمِّماً صوب فرنسا ليحكمها. فمع مشارف القرن التاسع عشر كانت الأمراض قد فتكت بكثير من جنود حملته، وأضعفتهم المعارك المتوالية التي وجدوا أنفسهم مضطَّرين إلى دخولها ضد الأتراك والإنجليز، إضافة إلى استمرار ثورات المصريين. وأخيراً، صدمته أخبار أفادته بأنَّ فرنسا خسرت جميع الأراضي التي كانت قد كسبتها في أوروبا. كل تلك الأسباب حفَّزت نابليون لأن يتِّخذ قرار سريعاً بالعودة إلى باريس في 22 أغسطس سنة 1899م، تاركاً ما تبقَّى من جنوده تحت قيادة الجنرال كليبر.

رغم فشله في تحقيق أهداف حملته على مصر، استمرّ نابليون حتى آخر حياته يصرّ على أنَّه حقَّق فيها فتحاً عظيماً. ففي حوارات أجراها معه طبيبه بمنفاه في سانت هيلانة، ونُشرت على أنَّها مذكراته، شدّد نابليون على ما وصفه بأنَّه "نجاحات ستبقى عظيمة في ذاكرة التاريخ". ولأنَّه كان حريصاً طوال تاريخه العسكري والسياسي على إبراز ما يضمن نشر تلك الصورة الإيجابية عنه في تاريخ أوروبا، استطاع فعلاً أن يوفِّر للمؤرِّخين والشعراء ما يُلهم مخيِّلتهم، كما سبق أن قال لسكرتيره.

تلخيصاً لما سبق، تسير قصَّة غزو فرنسا لمصر على النحو التالي، حسبما رواها المؤرِّخون الفرنسيُّون: طلب رؤساء نابليون منه غزو إنجلترا لكنه قرَّر غزو مصر وتوجَّه إليها بحملة بَحرية جمع لها عدَّة سفن، وتصوَّر رجال الحملة أنَّهم ينتسبون إلى الرومان الذين فتحوا مصر قديماً وساهموا في إنشاء حضارتها، وأنَّهم يعودون إليها ليخلِّصوا شعبها من ظلم حكامه المماليك. وفي طريقه غزا نابليون مالطا وأقام فيها حامية واتَّخذ بعض مواطنيها مترجمين، وبواسطتهم أرسل منشورات مطبوعة بالعربية إلى المصريين أخبرهم فيها بأنَّه

لم يأت ليستقر في بلدهم وإنَّما جاء ليحرِّرهم من اضطهاد المماليك لهم، فقبلوه حاكماً ومخلِّصاً. استولى نابليون على الإسكندرية وتوجَّه إلى عاصمة مصر، وفي الطريق بدأ جنوده يحتجُّون على سوء أوضاعهم وكاد بعضهم أن يتمرَّد، لكنه خطب فيهم خطبة بليغة أمام الأهرامات حاضَّاً إياهم على النصر واستطاع أن يبثَّ فيهم العزيمة، وتوجَّهوا نحو العدو وبدأت المواجهة، وبعد مقاومة ضعيفة دخل نابليون القاهرة فاتحاً. وصلت حملة إنجليزية للقضاء على نابليون وحُرِقت سفنه وانقطع بجيشه في مصر وفقد إمكانية العودة إلى فرنسا، لكنه استطاع تحويل تلك العزلة إلى دافع لاستكمال فتح الشرق ونشر المدنية فيه، فأسَّس معهداً وحقَّق كشوفات علمية وتاريخية، وقدَّم نفسه إلى المصريين بأنَّه صاحب قدرات خارقة تضفي عليه قداسة. ثم نشبت ثورة شعبية في القاهرة قضى عليها نابليون بمذبحة ضخمة وعنفٍ غاشم، متَّخذاً من الساحات والشوارع مسارح لها. وبعدها توجَّه لغزو الشام، وفي الطريق اتّخذ الزعماء المحليين رهائن ليؤمن سلامة جيشه، وضرب حصاراً على عكَّا للقبض على زعيم المماليك والاستيلاء على كنوزه، ثم عاد إلى القاهرة وعظمت مكانته وارتفع اعتقاد المصريين بقدراته الإلهية. ونجا من حصار الإنجليز ووصل إلى فرنسا حيث استُقبِل كفاتح عظيم، وأصبح حاكماً عليها.

هذه هي القصَّة السائدة حول الغزو الفرنسي للشرق، حسب ما أوحت به تقارير نابليون ونصوص بعض كتاب الحملة، والتي ضخّمتها الثقافة العامة. وهي لا تطابق الروايات الإنجليزية والعربية، ولا راوايات بعض الفرنسيين الذين كانوا في الحملة، ففيها كثير من المبالغات حول أحداث كانت ضئيلة الأهمية. وبينما لم تحقق الحملة لفرنسا شيئاً كثيراً، حققت لنابليون ما كان يريده ليصبح رمزاً لعظمة فرنسا، وفتحت له الطريق إلى قلوب مواطنيها وألبسته ثوب مخلِّص يستحق أن يحكم فرنسا، إذ رفعها إلى مكانة لا تقل عن مكانة إنجلترا وإسبانيا في سجل التاريخ الحديث.

لماذا أرضَت هذه القصَّة الفرنسيين وجعلت نابليون رمز خلاص لهم، رغم فشله في القضاء على إنجلترا، وعجزه عن تهديد مستعمراتها؟ ترتبط الإجابة عن هذا السؤال بمعرفة الدافع الذي جعل نابليون يجلب معه علماء يقدّمون عروضاً مثل عروض السَّحَرة وينقِّبون في آثار مصر ويجمعون العينات الطبيعية، في وقت كان عليه أن يحقِّق مَهمَّة عسكرية دقيقة وصعبة في ظلِّ الوجود القوي لجيش إنجلترا المعادية لوطنه، والتي تسبَّب أسطولها فعلاً في هزيمته وهروبه. لقد كان ممكناً لنابليون أن يستعيض عن الباحثين والآلات العلمية والكتب التي حملها معه والعلماء الذين طلبهم من فرنسا، الزائدة عن حاجة مَهمَّته العسكرية، بمدد عسكري وسلاح يدعم انتصاره وتثبيت حكمه في مصر؛ فلماذا لم يفعل؟ لماذا ضحى نابليون بالنجاح الحقيقي من أجل قصَّة "تلهم المؤرِّخين"؟

لا تفسير سوى أنَّ تَصوُّر نابليون للفتح كان منصبَّاً على قيمته الرمزية المرتبطة بقصص الاكتشافات والفتوحات، المتمثِّلة في الغزو الإسباني لأميركا. فالتعلُّق بهذا الإطار السردي لصناعة التاريخ العظيم هو الذي جعل نابليون يركِّز اهتمامه على ممارسات غريبة كان لها خطرٌ كبيرٌ على مَهمَّته العسكرية، مثل ادِّعائه القدسيَّة بين شعب أساس عقيدته هو التوحيد، والمساس بمكانة الزعماء الدينيين في مجتمع يحترمهم، وانتهاك شرف النساء في مجتمع محافظ. إنَّ تعلُّق نابليون بالإطار السردي لقصص الفتوحات الحديثة هو الذي يفسِّر لماذا استمرَّ يُرسل إلى فرنسا أخباراً كاذبة عن انتصارت عظيمة، بدلاً من أن يتصرَّف بطريقة واقعية في وقت كان يخسر فيه معاركه وتنهار قوته تدريجياً، ويزداد يقيناً أنَّه مقدِمٌ على الهزيمة.

كان نابليون يرغب فعلاً في السيطرة على الشرق؛ لكن الظروف لم تسعفه لأنَّه كان حريصاً على صياغة قصَّة فتح عظيم من النوع الذي كان مطلوباً حينها في "السوق الأوروبية المشتركة" للأحداث التاريخية. فقد دعمت القصَّة المصطنعة لفتح الشرق خطة استيلائه على الحكم بين الفرنسيين الذين كانوا

يشهدون تدهور مكانة دولتهم ويرغبون بدورهم في أسطورة تبعث يقينهم بذاتهم، أكثر مما كانوا يحتاجون توسُّعاً فعليّاً لإمبراطوريتهم.

كانت قصَّة غزو مصر قد زوَّدت فرنسا برأسمال رمزي استثمرته ضد إنجلترا، ولأنَّ القيمة تكمن في الجانب المعنوي للحملة وليس في النتائج العملية؛ لم يكن مهمّاً لنابليون أن يحكم مصر بقدر ما كان يهمُّه الاستئثار لنفسه ولفرنسا بمبادرة "اكتشاف مصر" بوصفها مكاناً يتمتَّع بتاريخ حضارات وممالك عظيمة، كما الأميركتان، وأن يكون له شرف السبق في فتحها بين كل الأوروبيين. وهذا يساهم في تفسير لماذا أشرف نابليون بنفسه على كتابة تقارير الحملة، ولماذا هرب سراً إلى فرنسا تاركاً جيشه لكي يحصل على الحكم هناك. فقد كان لا بدَّ له من الحصول على عائد العرض العظيم الذي يدور في الشرق قبل أن ينقشع سحر الفرجة وسلطته على وعي الجمهور الفرنسي.

هذا التأثير الذي مارسته قصَّة غزو مصر على الفرنسيين، واستحقَّ به نابليون إعجاب الجماهير وثناء المؤرِّخين ومديح الشعراء، لا يمكن تفسيره بتأثيره على الفرنسيين وحدهم، لأنَّها رفعت مكانة نابليون في أوروبا كلها وساهمت في تعظيمه إلى حدِّ جعل فيلسوفاً مثل هيغل، وهو يرى نابليون يغزو وطنه ألمانيا، يمجِّده ويصفه بأنَّه "يُشرِف على العالم من فوق حصانه ليُخضعه"[35].

مثلها مثل قصص غزو الإسبان والهولنديين والإنجليز لبلاد الجنوب؛ صِيغت قصَّة نابليون عن فتح الشرق في سياق تطوير الأوروبيين لنوع من التثقيف والتنشئة العقلية يتيحان السير قُدُماً في استكمال مشروع غزو العالم الذي كان قد بدأ في القرن الخامس عشر الميلادي، بمباركة من الكنيسة الكاثوليكية. وضمن هذا النوع من التثقيف صارت المعرفة التاريخية عموماً، وقصص الفتوحات خصوصاً، وسيلة ناجعة لتبرير استيلاء الأوروبيين على

35 Singer, Peter: *Hegel, A very short introduction*, (Oxford-New York: Oxford University Press, 2012).

العالم، إذ تصوُّرهم أصحاب حضارة رفيعة تخضع لهم الشعوب بمجرَّد ظهورهم على أراضيها، وتتلقَّاهم كمخلِّصين. والخلاصة، أنَّ قدراً مُهمَّاً من المعرفة والخبرة اللتَين صاغتا هذه الصورة للذات الأوروبية مصدره المعرفة التاريخية الأندلسية وتقاليد حضارة شرق وجنوب المتوسِّط، بخلاف ما تدَّعيه أسطورة التفوُّق الأوروبي من أنَّ الشعوب الأخرى لا تملك معارف ذات أثر.

النُسخة الألبانيَّة – التركيَّة لخطاب الفُتُوحات:
محمَّد علي يغزو إفريقيا

ربَّما ليس صدفة أنَّ محمَّد علي بن إبراهيم، المعروف باسم محمَّد علي باشا والذي حكم مصر باسم الأتراك منذ سنة 1805م، أطلق مشروعاً سمَّاه "فتح إفريقيا" في سنة 1821م، التي وافقت تماماً المئوية الثالثة لفتح أميركا، بدأه بغزو بلاد شرق إفريقيا. وصلت قوات محمَّد علي إلى سنار عاصمة "سلطنة الفونج" التي كانت تحكم الجزء الأكبر من منطقة السودان الحالي في اللحظة التي كان الأوروبيون يحتفلون فيها بمرور ثلاثمئة عام على غزو أميركا، الذي بدأه كورتس في سنة 1521م بما سمَّاه الأوروبيون (فتح المكسيك).

اجتهد محمَّد علي في أن يشيع خبر فتح إفريقيا في أوروبا كلها صانعاً لنفسه صورة قائد يتبنَّى مشروعاً لنشر الحضارة والتحديث في "إفريقيا المظلمة"، حسب تصوُّر الثقافة الأوروبية آنذاك لبلاد إفريقيا الواقعة جنوب الصحراء. والطريقة التي دبّر بها محمَّد علي غزو إفريقيا ترجِّح أنَّ انتظاره حلول ذكرى السنة التي غُزيت فيها أميركا لم يكن صدفة، لأنَّه في أحاديثه الموجَّهة إلى الأوروبيين الذين شاركوه مشروع الغزو كان يخاطبهم باللغة التي صيغ بها تاريخ أوروبا الحديث، الذي يبدأ بغزو أميركا ويجعل الفتوحات أحداثاً بطولية وأساساً لنشر الحضارة.

رغم عدم وجود نصٍّ تاريخي رسمي يُقدِّم فتح إفريقيا حدثاً مكتمل التفاصيل، فإنَّ وجهات نظر محمَّد علي وقادة حملة الغزو والإداريين الأوروبيين وكاتبي

تقاريرها، توضِّح أن العقلية التي أدارت غزو إفريقيا استلهمت خطاب الفتوحات الأوروبية لتصطنع قصَّةً حول مشروع تحديث شرقي يحاكي حداثة أوروبا. ولأنَّ عناصر القصَّة تتوزَّع في نصوص عديدة فهي تبيِّن بجلاء مدى تشرُّب العقلية الأوروبية الحديثة بثقافة الفتوحات، وهيمنة خطاب فتح أميركا عليها وسعة انتشاره وتحوُّله إلى لغة مشتركة للفاعلين في مشروع الحداثة.

بتتبُّع مسارات تسرُّبه إلى خارج بلاد غرب أوروبا يسمح خطاب الفتوحات الحديثة برصد خارطة انتشار تقاليد الغزو التي افتتحت مشروع الحداثة في معظم مناطق أوروبا، بما في ذلك بلادها الطرفية ودويلاتها الصغيرة. وتمثِّل قصَّة غزو إفريقيا المرحلة الثالثة من عملية انتشار خطاب الفتح، فبعد أن انتقل من بلاد جنوب غرب أوروبا إلى شمالها، يمرُّ هنا بشرقها ليصبح لغة جامعة بين مختلف بلاد أوروبا.

منذ تولِّيه حكم مصر ظلّ محمَّد علي يحلم بتحقيق فتحٍ عظيم يستهلُّ به مشروع حداثة في الشرق، كما استهلَّ الإسبان حداثة أوروبا بفتح أميركا، وكما دعم نابليون حداثة فرنسا بغزو الشرق، فكان يشبِّه غزوه لإفريقيا بغزو أميركا. ولأنَّ محمَّد علي تولَّى حكم مصر بعد خروج نابليون منها بأربع سنوات فقط، فإنَّ ذكرى غزو نابليون لها وكيف أعانه ذلك في الاستيلاء على حكم فرنسا؛ ظلَّت ماثلة في مخيِّلة الوالي التركي الذي كان يتطلَّع لأن يحكم إمبراطورية قوية تماثل إمبراطوريات أوروبا. لقد أدرك محمَّد علي أنَّ التحديث على النمط الأوروبي يتطلَّب بالضرورة غزو أراضٍ واسعةٍ والسيطرة على شعوب عديدة بأسلوب حديث يختلف عن الأسلوب العثماني في إنشاء المستعمرات. لهذا، بحث محمَّد علي عن أميركا قريبة منه، فوجدها فيما عُرف عند العرب باسم "بلاد السودان"، وكان يُقصَد بها أراضي إفريقيا الواقعة بين جنوب مصر وخط الاستواء، الممتدَّة من ساحل البحر الأحمر شرقاً إلى المحيط الأطلنطي غرباً.

تتضمَّن وثائق غزو محمَّد علي لبلاد السودان مقارنات مستمرة كان يعقدها بين إفريقيا وأميركا. ولكي ينسب نظام حكمه إلى نطاق الحداثة، كان ضرورياً لمحمد علي أن يستخدم خطابها الذي تشكِّل قصص الفتوحات والاكتشافات جزءاً أساسياً منه، ويقدِّم نفسه إلى عصبة الحداثيين الأوروبيين بوصفه معنيَّاً بنشر الحضارة في الشرق وتمدينه. وكما تكثر إشارت محمَّد علي لفتح أميركا تكثر أيضاً إشارات مثقَّفي الدولة التي أنشأها إلى فكرة "نشر المدنية بين الأمم المتوحِّشة".

ترصد الصفحات التالية الكيفية التي صُنِعت بها القصَّة التي سمَّاها مؤرِّخو محمَّد علي "فتح السودان" بحيث تُماثِل فتح نابليون لمصر وفتح الإسبان لأميركا. والهدف هنا ليس استخلاص مضمون القصَّة في ذاتها، وإنَّما رصد الطبيعة الانتشارية لخطاب الفتح الذي استعاره الأوروبيون من العصور الوسطى، لتوضيح أنَّه صار شفرة لا بدَّ لمن أراد الانضمام إلى عُصبة "الأمم المتحضِّرة"، أن يخاطب بها أعضاء المشروع الحداثي/الاستعماري. فرغم أنَّ محمَّد علي حكَم مصر بصفته والياً عثمانيَّاً، فإنَّ النُخبة التي حكمت دولته لم تكن عثمانيَّة ولا مصريَّة، وإنَّما كانت خليطاً من مواطني دول أوروبية شرقية: ألبانيين وبوسنيين وشراكسة ويونانيين، إضافة إلى بعض الفرنسيين والبريطانيين[1].

لأنَّ محمَّد علي كان ألبانياً، ظل يحتفظ للأوروبيين بتقديرٍ كبير، ولم يكن يميل إلى طريقة الأتراك في الحكم وتعلَّق بنموذج الدولة الأوروبية الحديثة. وقد لاحظ العثمانيون اهتمامه بأوروبا، فاستخدموه لخوض مواجهات فيها وأرسلوه ليقمع ثورة اليونانيين في سنة 1921م، لكنه هُزِم ونالت اليونان استقلالها. ولأنَّه تبنَّى النظام الأوروبي لبناء الدولة؛ اتَّصل بعدد من السياسيين والمثقَّفين

1 Blom, Ida; Hagmann. Karen and Hall, Catherine (eds.); *Gendered Nations: Nationalism and Gender Order in the Long Nineteenth Century*, (New York: Berg, 2000).

الأوروبيين وسعى لأن ينشر عبرهم اعتقاداً بأنَّه يريد بناء دولة ذات نظام ديموقراطي، وأنَّه رسول الحرية والليبرالية في الشرق. وبما أنَّ هذا كان يعني توسيع نطاق التجارة الأوروبية فقد لقيت فكرته حماساً وسنداً كبيرَين.

كان بين الذين اتَّصلوا بمحمَّد علي من مثقَّفي أوروبا وعرضوا عليه خدماتهم، الفيلسوف الإنجليزي جرمي بنثام الذي اقترح عليه أن يعدَّ دستوراً لدولته الناشئة[2]. ولأنَّ بنثام كان يدرك أنَّ تأسيس دولة حديثة يعني، إلى جانب بناء نظامٍ دستوري، بناء نظام سيطرة أيضاً؛ عرضَ على محمَّد علي مبنى البانبتكون الذي يتيح نظام مراقبة ناجز، لكي يستخدمه في السجون والمدارس وثكنات الجيش وكل عمل يتطلَّب رقابة، لأنَّ شرط التحديث هو بناء نظام ضبط يتيح التحكُّم بقوة العمل التي ستبني الدولة، كما يقول تيموثي ميتشل[3]. وبسبب هذا التواصل مع الأوروبيين تحمَّس عدد من السياسيين ورجال الفكر في فرنسا لمشروع محمَّد علي، خاصة أتباع سان سايمون وبعض كبار الليبراليين، لأنَّه بالإضافة إلى فتح التعامل التجاري بين مصر وأوروبا وعد أيضاً بفتح إفريقيا أمام التجارة الأوروبية. وفي سنة 1819م، أي قبل سنة واحدة فقط من غزوه لإفريقيا، بادئاً بالسودان، عقدَ محمَّد علي ديواناً حول توسيع نطاق التجارة المصرية مع الأوروبيين[4]. وهذا يعني أنَّه بدأ يعدّ العُدَّة لفتح الأسواق لمنتجات البلاد التي سيغزوها، فكان غزوه للسودان في السنة التالية أول خطوة عملية لبناء دولة تملك فائضاً من الثروة وترتبط بالنظام الرأسمالي المسنود بقوة عسكرية غازية، كما في نموذج دول أوروبا الغربية الموصوفة بأنَّها ذات نُظُم (حديثة).

2 Bentham, Jeremy; *On Government*, (Oxford, Oxford University Press, 1891). P. 11.

3 Mitchell, Timothy: *Colonising Egypt*, (Berkley, Los Angle: University of California Press, 1991). P. x.

4 Dodwell, Henry: *The Founder of Modern Egypt: A Study of Mohammad Ali,* (Cambridge: Cambridge University Press, 2011). P. 206.

لهذه الأسباب، التي توضّح أنَّ محمَّد علي كان يفكِّر بوصفه أوروبياً ويعتمد على خبرة أوروبية في بناء الدولة الحديثة؛ فإنَّ حملته لغزو إفريقيا أو السودان شكَّلتها مخيِّلة ووعي أوروبيَّين، ولم يكن فيها الكثير ممَّا هو تركي. ولأنَّ الحملة قادها عسكريون أوروبيون، وتولَّى الوظائف العليا في السودان أوروبيون أيضاً، كان كل شيء تقريباً في حملة فتح إفريقيا أوروبياً، بدءاً بمحمَّد علي والخبرة التي ألهمته فكرة الغزو، مروراً بأهداف الحملة وأسلحتها، وانتهاءً بقياداتها. لذا، كان طبيعياً أن تأتي قصَّة الغزو جزءاً من هذا السياق المتكامل، فكُتِبت على قالب قصص الفتوحات الأوروبية، المستعار من خطاب فتح أميركا.

بحلول العام 1820م كان محمَّد علي قد وطَّد حكمه في مصر بعد أن هزم المماليك وسيطر على بعض أجزاء الجزيرة العربية، فاستبدّ بحكم مصر وحوّل فلاحيها إلى ما يشبه الأقنان في بلدهم بأن جعل أراضيها ملكاً له ولأسرته من بعده. ولأنَّه حوَّل الكثير من المصريين إلى جنود في جيشه بدأ الإنتاج الزراعي يتدهور في مصر، فقرَّر غزو بلاد إفريقيا القريبة منه لأنَّه اعتقد بإمكانية الحصول على أربعين ألفاً من الأفارقة، حسب التقديرات التي قدَّمها له تجار الرقيق من الأوروبيين والعرب، لينشئ بهم جيشاً حديثاً. فمنذ العصور الوسطى وحتى القرن التاسع عشر شاع في الثقافة العربية اعتقاد راسخ بقوة الأفارقة وشجاعتهم وصلاحيتهم للجُنديَّة، فتطلَّع والي مصر لتكوين جيش ضخم يسيطر به على ثروات إفريقيا قبل أن ينتبه إليها الأوروبيون الذين كانوا قد سيطروا على القارات الأخرى، ويسخِّرها لبناء إمبراطورية قوية في الشرق.

شكَّل محمَّد علي حملةً اختلف المؤرِّخون في تقدير عدد أفرادها لأنَّها ضمَّت جنوداً غير نظاميين، فبعض المؤرِّخين يقول إنَّها ضمَّت أربعة آلاف

جندي، وبعضهم يقول ثمانية أو عشرة آلاف[5]. وشكَّل الأتراك والألبان القسم الأكبر من جنودها، فكان منهم المشاة والخيَّالة المسلَّحون بالبنادق، أما الجزء القليل فكان قوَّات غير نظامية من قبائل عربية تقطن مناطق مصر الجنوبية[6]. وضمَّت الحملة عدداً من الغربيين، أهمَّهم ضابط أميركي الجنسية قاد المدفعية التي لعبت دوراً بارزاً في انتصار الحملة في بداية الغزو[7].

استمرَّ التكوين الهجين لقوات الغزو حتى عندما تحوَّلت ثورة السودانيين إلى نضال مسلَّح استهدف طرد الغزاة. فقد ظلَّ محمَّد علي ومن تبعه من ولاة مصر حريصين على توظيف المرتزقة الأوروبيين المؤهَّلين عسكرياً، الذين كانوا يجوبون عواصم الإمبراطوريات لبيع خبراتهم في قمع الشعوب للحكام الأوروبيين المتطلِّعين إلى نهب ثروات بلاد العالم. وفي تلك الفترة مثلما سيطر الأوروبيون على التجارة في مصر والشام سيطروا أيضاً على المناصب الكبيرة لدى محمَّد علي، فالجنرال الفرنسي جوزف سِيڤ هو الذي أسَّس له الجيش النظامي في المدرسة العسكرية التي أقامها في جنوب مصر بأسوان في سنة 1820م، ودرَّب فيها ألفاً من المماليك الذين شكَّلوا نواة الجيش الذي أعدَّ العدة لغزو إفريقيا. وقد استمرَّ التحالف نفسه بين الأتراك والأوروبيين في مناطق شرق إفريقيا التي غُزيت، فكان من الذين حكموا مناطق السودان الحالية تشارلس غوردن البريطاني وإدوارد شنايتزر البولندي ورودلف كارل فون النمساوي، وآخرون غيرهم.

كان محمَّد علي يدرك أنَّ مشروع بناء دولة حديثة في فترة الصراع الأوروبي على امتلاك المستعمرات يعني، بالضرورة، غزو بلاد تُفتح، وشعوب

5 Robinson; Arthur E.; The Conquest of the Sudan by the Wali of Egypt, Muhammad Ali Pasha 1820-1824, *African Affairs*, vol. XXV, Issue XCVII, (October 1925)47-58. P. 47.

6 المرجع السابق، ص 47.

7 روبرت أو. كولنز: **تاريخ السودان الحديث** (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2015). ص 27.

تُخضَع، وثروات تُنهب. لكنه كان يدرك أيضاً، وبطريقة صحيحة تماماً، أنَّ ذلك لا يتحقَّق إلا في وجود جهاز دولة حديث يتضامن فيه عمل السياسيين مع فئات عدة من المتعلمين، منها: التقنيون المُلمُّون بصناعة السلاح وصيانته، والإداريون القادرون على جمع الضرائب، والمفكِّرون الذين يضفون على الغزو صورة مشروع حضاري، والمدرِّسون الذين ينتجون نخباً محلِّية تدير المستعمرات. وليحصل على هذه الأنواع من المتعلمين أرسل مجموعة مختارة من المصريين وأهل الشام إلى أوروبا لدراسة العلوم والثقافة الأوروبية الحديثة، فكان تحديث العقول بأن تُضبط على نظام المعرفة الأوروبية في كل مجال، هو الأساس الذي اعتمد عليه محمَّد علي لتحقيق حداثة إمبراطوريته، المتخيَّلَة. وما يدلُّ على ذلك أنَّ بدء مشروع غزو إفريقيا، أو غزو بلاد السودان، تزامن مع تأسيس محمَّد علي لمطبعة بولاق في سنة 1821م، وهذا ما كان نابليون قد فعله حين غزا مصر فأدخل معه المطبعة، التي كانت تمثِّل الآلة الإعلامية للدولة، الناشرة لأيديولوجياها التحديثية.

صارت النُخبة التي أوجدها محمَّد علي من مبتَعثيه إلى أوروبا أداة لصنع صورة جاذبة عن إمبراطورية حديثة مركزها مصر. وبتوجيه منه، خاطبت تلك النُخَب أمم أوروبا بلغة حداثتها لجذب أنظار بعثاتها الدبلوماسية وتجَّارها نحو الشرق بهدف جعله فضاءً مفتوحاً للاستثمارات الأوروبية. وفعلاً، بعد أن أشاع محمَّد علي خبر غزوه لإفريقيا زارت مصر بعثات صحفية متعدِّدة انتقل بعضها إلى السودان عقب ذيوع قصَّة الفتح، وكان محمَّد علي يستقبل كثيراً من تلك الوفود التي أشاعت صورة إيجابية عن مشروعه. وتظهر تلك الصورة في كتابات رحَّالة أوروبيين زاروا مصر والسودان والتقوا بمحمد علي، مثل بكلر ماسكاو وفرديناند فرن، وساهموا في تأطير غزو إفريقيا بوصفه جزءاً من مشروع حداثة شرقية، رغم اختلاف الأوروبيين في تقييمها.

بسبب حاجته الشديدة إلى إنشاء جيش قوي طغى على محمَّد علي ولعٌ جنوني بالذهب، فكما حلم كولمبس ببراميل مليئة بذهب أميركا لكي يموِّل الحملة الصليبية التي كان يخطِّط بها لغزو الشرق واستعادة مدينة القدس من المسلمين؛ كذلك حلم محمَّد علي بأن يزوِّده غزو السودان بمركب مليئة بالذهب تُموِّل بناء جيش يغزو به بقية بلاد الشرق[8]. يظهر ولع محمَّد علي بذهب السودان في رسالة بعث بها إلى القنصل الروسي بتاريخ 6 أغسطس 1838م، كتب فيها مؤمِّلاً:

"إذا ما رجعت من فازوغلي بمركب محمَّلة بالذهب فسوف أقضي على كل منازعاتي وفق رغائبي دون معونة من أحد لأنَّه إذا وُجد المال لا يعدم الإنسان الأصدقاء والجيوش التي تسهِّل الاتفاق"[9].

في الحقيقة لم تكن أحلام محمَّد علي وليدة مخيِّلة فقيرة، فقد كان يعلم أنَّ حداثة أوروبا بدأت بغزو أميركا ونهب ذهبها وفضَّتها، ولذلك ظلّ يقارن بلاد السودان وكل قارّة إفريقيا بأميركا. فحين يذكر الجهد المبذول لاستخراج خيرات مصر يستدرك قائلاً:

"إلَّا أنَّ أراضي السودان أخصب وأوفر محصولاً وأكثر سكَّاناً ودواباً وأشجاراً. فإن كانت هذه الجهود تُبذل في عمرانها على الوجه الذي آمله، فلا شكّ أنَّ قارَّة إفريقيا بعد مائة سنة تضارع أمريقا [أمريكا]، بل تكون ثانيتها"[10].

وهذا النمط من التفكير تشرَّبته نخبة المثقَّفين الذين أوجدهم محمد علي، ومثالهم الأوضح رفاعة رافع الطهطاوي. كان الطهطاوي أحد المصريين الذين

---

8 حول أحلام كولمبس الذهبية انظر: تزفتان تودروف: **فتح أمريكا: مسألة الآخر**، ترجمة: بشير السباعي (القاهرة: دار سيناء للنشر، 1992). ص 17.

9 **تقرير رحلة محمَّد علي باشا إلى السودان 1838 - 1839**، تحقيق: حسن أحمد إبراهيم (الخرطوم: معهد الدراسات الإفريقية والآسيوية، 1980). ص 18-19.

10 المرجع السابق، ص 55.

بعثهم محمَّد علي إلى فرنسا لتلقِّي المعارف الأوروبية الحديثة، فعبَّر عن طريقة تفكير والي مصر بلغةٍ تكشف عن نزعة ليبرالية تبرِّر غزو إفريقيا. متَّخذاً من النشاط التوسُّعي الأوروبي مثالاً يُحتذى، كتب الطهطاوي:

> **"... إنَّ دوائر الزراعة والتجارة والصناعة تتَّسع باتساع الرخصة في الأقاليم، بالمعاونات والمساعدات من أرباب الحكومات وأنَّ دولة الإنجليز فتحت بلاد الهند وغيرها للتحيُّل على اتساع تجارتها، وكذلك تحيّل غيرهم من الدول على ذلك"**[11].

حسب قوله عن نفسه، كان الطهطاوي قد اطَّلَع في فرنسا على مؤلَّفات كبار مفكِّري التنوير الأوروبيين الذين عاشوا قريباً من فترة وجوده في أوروبا، فقرأ كونديلك، وفولتير، ومونتسكيو[12]. وكان فكره نتاجاً طبيعياً لفكر التحديث الأوروبي الذي كان يبرِّر الغزو بمزاعم نشر الحضارة بين (الأمم البربرية). فتأسيساً على القول بتساوي البشر في ملكة العقل، قال مفكِّرو التنوير إنَّ غير الأوروبيين يمكنهم بلوغ مرحلة التحضر إذا نُقِلت إليهم الحضارة الأوروبية. وبهذا أكسبوا مشروع غزو العالم في القرن الثامن عشر غطاءً نظرياً يستند إلى عقلانية التنوير. وهو الغطاء الذي استند إليه نابليون في تبرير حملته العسكرية على مصر، مدَّعياً أنَّها حملة علمية تهدف إلى نقل العلم والحضارة، فأكَّد ارتباط التنوير بالتدمير. وبسبب هذه العقلية المتناقضة فإنَّ الطهطاوي الذي كان وطنه نفسه يخضع لسيطرة محمَّد علي، لم يرَ في مشروع غزو إفريقيا ما يستحق النقد بل دافع عنه، فكان مستعمَراً يرى العالم بمخيِّلة مستعمِرٍ[13].

---

11 رفاعة رافع الطهطاوي: **الأعمال الكاملة**، ج 1، تحقيق محمَّد عمارة، (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1973). ص 357.

12 انظر: نازك سابايارد: **الرحالون العرب وحضارة الغرب في النهضة العربية الحديثة**، (بيروت: مؤسسة نوفل، 1979). ص 32.

13 عارضَ الطهطاوي انشغال محمَّد علي بذهب السودان لأثره السالب على الأوضاع الاقتصادية في مصر، خاصة الزراعة. انظر: الطهطاوي: **الأعمال** ...، ص 405.

بعد وصوله مصر قادماً من أوروبا، طبع الطهطاوي عدداً من كتب التراث العربي قريبة المضمون من ثقافة عصر التنوير الأوروبية، وكانت تصوِّر إفريقيا، أو السودان، أرضاً خصبة غنية بالثروات، وخاصة الذهب. ولأنَّ النيل احتلَّ مكانة عظيمة في مخيِّلة العرب في العصور الوسطى؛ تطلَّعوا بعد احتلالهم مصر إلى احتلال سهوله الخصبة الممتدَّة جنوباً، وبلوغ منابع أنهاره. ولأنَّ دول النوبة الواقعة في جنوب مصر كانت قد صدّت جيوش المسلمين الذين فتحوا مصر واضطروا لعقد اتفاقية صلح معها، كانت اتفاقية الصلح الوحيدة في تاريخ المسلمين؛ صارت أرض السودان موضوع تخيُّل وأوهام أسطورية لدى الرحَّالة العرب، فصوَّروها مليئة بالثروات والحيوانات الغريبة والرجال الأقوياء.

اعتماداً على ذلك النمط من المعارف الخرافية اعتقد محمَّد علي أنَّ بلاد السودان ستشكِّل مصدر ثروة مادية وقوة عسكرية لا تنضب. وفي سياق الترويج للغزو قارن الطهطاوي بين أميركا وإفريقيا على طريقة الوالي التركي، فكتب في نص يوضح إلمامه بما حققه فتح أميركا لأوروبا من ثراء، خاصة ذهب المكسيك وفضة بيرو:

> **"وأمَّا معادن الفضة الشهيرة في بلاد أمريقة [أمريكا] بإقليم بِرو [بيرو] وغيره، وهي التي تعطي كميَّة عظيمة من الذهب المتعامَل بها في أيدي التجار، ففي بلاد مقسيقا [مكسيكا] أزيد من ثلاثة آلاف معدن مستخرج، وكذلك معدن بلاد بِرو بأمريقا فإنَّها مثرية جداً. ومعادن قالفورنيا [كالفورنيا] المشهورة بالذهب المشبّع التي استُكشِفت سنة خمسة وستين وماتين وألف، وهي في جمهورية مقسيقا. فبلاد أفريقة [إفريقيا] لها شبه بأمريقة، فلهذا أرسل المرحوم محمَّد علي باشا عدة مرات من يلزم من المعدنجية لتجريب معدنها..."**[14].

14 المرجع السابق، ص 444.

انطلاقاً من اعتقاد محمَّد علي ومفكِّريه بالتماثل بين إفريقيا وأميركا أرسل محمَّد علي بعثة في سنة 1816م بقيادة فرنسي اسمه كافو إلى السودان، وبعده بسنة واحدة أرسل بعثة أخرى بقيادة سيف، وهو فرنسي أيضاً، لاستطلاع أحوال دولته. ومثل الرحلة الاستكشافية التي أرسلها الإسبان للتأكد من قابلية المكسيك للفتح، أكَّدت رحلات محمَّد علي قابليَّة بلاد السودان للغزو، من واقع تدهور قوة سلطنة الفونج التي كانت تحكمها. ولأنَّه كان من الضروري إضفاء شرعية على الغزو؛ أورد تقرير رحلة محمَّد علي أنَّ سلاطين السودان كانوا يظلمون رعاياهم، وأنَّ بعض الذين ظُلِموا أخبروا محمَّد علي أنَّ سلطان دارفور بلغ استبداده حدَّ أنَّه صار يريق دم أهله، حتَّى إنَّه قتل أخاه، بحسب ما زعموا[15].

لا يقف التشابه بين قصَّتي فتح إفريقيا وأميركا عند حد البحث عن الذهب والفضة وحملات الاستكشاف، ورغبة المواطنين في التخلُّص من الملك الظالم، فمعظم بقية عناصر القصَّة حاضرة أيضاً، وأبرزها عروض العنف المسرحي التي تتضمَّن القتل والحرق وبتر الأعضاء. فمنذ المواجهة الأولى التي رفضت فيها قبيلة الشايقية التي تسكن شمال السودان الخضوع للغزاة، بدأ الأتراك عروض عنف تستهدف تحويل الضحايا إلى "رسائل تمشي على الأرض" كما كان الإسبان يسمُّونها، بهدف نشر الخوف وسط المواطنين الذين يستعدون للمقاومة. كتب الإنجليزي نِكولز حول ما قامت به الحملة عقب هزيمة قبيلة الشايقية:

> **"واصل الجيش التركي مطاردة الأعداء إلى أن بلغوا جبل برقل، وهم ينهبون ويحرقون ويقتلون كل ما صادفوه في طريقهم، ويخرِّبون البلاد بعيدها وفسيحها. وكان هذا التخريب الواسع النطاق مخيفاً مفزعاً. حتى إنَّ الرجال الذين طعنوا في السن والصبية الذين كانوا يديرون سواقيهم في سلام**

15 انظر: **تقرير رحلة**...، ص 40

وهدوء، لم يفلتوا من أيديهم، بل مزَّقوا أجسامهم في حقولهم، وتُرِكت مع جثث حيواناتهم تبلى وتنتن وسط مزارعهم المهجورة"[16].

ونقل نِكولز عن الفرنسي كايو مشاهداته عقب مغادرة الأتراك منطقة الشايقية، فكتب:

"إنَّ نصف الأهالي الذين التقينا بهم، وكثير منهم من النساء، كانوا محرومين إمَّا من إحدى الأذنين أو كلتيهما، وكان الآخرون منهم قد قُطِعت أطرافهم. أضف إلى ذلك أنَّنا التقينا في طريقنا بعظام وجثث وزرائب كانت طعمة للنيران"[17].

كان إسماعيل بن محمَّد علي يقتل ويحرق وينهب دونما مبرِّر، فثار عليه السودانيون في منطقة شندي بقيادة زعيمهم المك نمر، وحرقوه حيَّاً هو وكبار قادة جيشه، وكان ذلك انتصاراً كبيراً للسودانيين على حملة الغزو[18]. وبسبب قضاء الجعليين على قائد الحملة نظَّم أحد القادة الأتراك، واسمه محمَّد بك الملقب "الدفتردار"، حملات قتل ومذابح وحشية امتدت من كردفان إلى سنار. وثَّقت المصادر التاريخية المحلِّية همجيَّة الغزاة، ومن ذلك ما كتبه أحد موظَّفي الجهاز الإداري للغزاة أنفسهم، وقد عُرف في السودان بلقب "كاتب الشُونة". ذكر الكاتب أنَّ الدفتردار كان يحيط بالقرى التي يمرُّ بها فيقتل جميع أهلها ويحرقها بالكامل، وذكر بكلر مسكاو أنَّ مدينة المتمَّة وحدها قُتِل فيها ستَّة

16 و. نِكولز: الشايقية، في: عبد المجيد عابدين: **قبائل من السودان الأوسط والسودان الغربي**، (الخرطوم: الدار السودانية للكتب، 1973). ص 56.

17 المرجع السابق، ص 52-53.

18 لا تصف المصادر التاريخية الأوروبية والمصرية، وحتى السودانية، مقتل قائد الحملة وضبّاط حملته الكبار بأنَّه هزيمة للأتراك وانتصار للسودانيين، ويسمِّيه معظمها "تمرد"، رغم أن سلطة الغزاة لم تكن قد استقرت بعد. وفي الواقع لم يكن ماطلبه اسماعيل من السوانيين مجرد (ضرائب) ، فقد كتب مؤرِّخ معاصر أن كلمة (ضرائب)، المستخدمة في وثائق محمَّد علي، كانت في الحقيقة "أقرب إلى أن تكون تعبيراً ملطَّفاً عن مصادرة الممتلكات"، ولذلك "عندما طالب إسماعيل الجعليين في شندي بهذا الخراج الثقيل، نقداً ورقيقاً، تم في ذات الليلة حرقه هو وحاشيته حتى الموت في مقارهم، لينفجر التمرد في وادي النيل". انظر: روبرت أو. كولينز: **تاريخ السودان الحديث**، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2015). ص 28.

آلاف مواطن وهُجِرت تماماً. أمَّا شندي، مركز الثورة، فتحوَّلت إلى أطلال بعد أن كانت مدينة تجارية مزدهرة يسكنها خمسون ألف نسمة[19].

حسبما ذكر كاتب الشونة، قام الدفتردار بتعذيب الشيوخ ورجال الدين وسجنَ الذين رفضوا الخضوع له في حظائر البهائم ومنع عنهم الطعام والماء، ودمّر مكتباتهم وحرق مخطوطاتهم المتوارثة منذ أزمان طويلة. وهذه الأعمال تقارب ما قام به الإسبان من قتل جماعي وتدمير وحرق للكتب. ولقد فعل نابليون الشيء نفسه في مصر، فهو، وإن لم يحرق الكتب والمخطوطات، فقد صادرها ونقلها إلى فرنسا مع الكثير من الآثار التاريخية والتحف الفنية. وهذا قريب من عملية محو ذاكرة وتواريخ مجتمعات أميركا التي مارسها الإسبان.

مثلما عُرِف أحد حكام مصر المماليك في فترة غزو نابليون بلقب الجزار لقسوته المفرطة؛ لُقِّب أحد الحكام الأتراك في السودان بالجزَّار لعنفه المفرط. علَّق المؤرِّخ السوداني محمَّد سعيد القدال على ماجرى في شرق السودان بقوله:

> **"وتعرَّضَ أهالي التاكا إلى قسوة الجنود الأتراك الذين عاثوا فساداً في المنطقة. فقتلوا ونهبوا وأحرقوا النساء والأطفال والرجال، حتى لقَّبوا الحكمدار بالجزار"**[20].

يجب أن نتذكَّر أنَّنا في تحليلنا لخطاب الفتوحات نرصد تماثلات مكوِّناتها من حيث هي ثيمات عنقودية، أي مجموعة أحداث تشكِّل سلسلةً مترابطة، لا حدثاً واحداً، لأنَّ تطابُق حدث واحد مع مثيله قد يكون نتاج صدفة خالصة. وفي حالة عروض العنف نجد أنَّنا أمام عنصر سردي مركَّب يتضمَّن ثلاثة

---

19 انظر: نسيم مقار: **الرحالة الأجانب في السودان، 1730 - 1851** (القاهرة: مركز الدراسات السودانية، 1995). ص 160.

20 محمَّد سعيد القدال: **تاريخ السودان الحديث 1820-1955**، (الخرطوم: مطبعة جامعة الخرطوم، 2018). ص 58.

أحداث متعاقبة: أوَّلها عرض عنف مسرحي يستهدف غرس الرعب والخضوع التلقائي في نفوس المواطنين، تتبعه ثورة يقوم بها المواطنون، فيردُّ عليها الغزاة بعنف غاشم ومذابح مثل التي وثَّق لها ساهاجون ودوران في أميركا، وبوريان والجبرتي في مصر. وهو ماقام به في السودان كل من إسماعيل والدفتردار والجزَّار وغيرهم من قادة الحملة.

هذا الترابط العنقودي بين العناصر يظهر في معظم مكوِّنات قصَّة غزو السودان، حتى إنَّ الذين كتبوا عنها لم يغفلوا عن أن يجدوا للسودانيين امرأة منهم تلعب دور الخائنة، وهو دور أساسي في قالب قصَّة فتوحات العصر الحديث. لقد أُشِيع أنَّ فتاةً جميلةً كانت ابنة أحد زعماء قبيلة الشايقية اتُّهِمت بالخيانة والتآمر مع الغزاة، وهربت لتنضمَّ إليهم فاعتقد أبوها أنَّها بذلت شرفها رخيصاً للغزاة، لكن سرعان ما اتَّضح أنَّه أساء فهم ما حدث. حول هذه الحادثة كتب نِكولز:

> **"حاولت بنت الملك صُبَير، واسمها صافية، أن تشقَّ لنفسها طريقاً للهرب من أحد قصور والدها، فوقعت أسيرة في أيدي فرقة من البدو التابعين للجيش التركي. وسرعان ما أحضروها بين يدي الباشا أملاً في أن يأمر لهم بمكافأة مادية، فقد كانت صافية، فيما يروى، على جانب كبير من الجمال. ولكن الباشا لم يستغل ما يملكه من حقوق الغزو، فقد أمر أن تُلبَس فاخر الثياب ومنحها كثيراً من الجواهر والحلي، وحملها على جمل، ووكل بها حرساً من رجاله الذين يثق بهم، وردّها إلى أبيها مكرَّمة"**[21].

يتابع نِكلولز سرد ما جرى للفتاة مع أهلها، دافعاً بالحكاية نحو جو يوحي بالخيانة والتواطؤ مع الغزاة، قبل أن يعود ليكذِّب ما يقوله الرواة، فكتب:

> **"ولكن أباها حين رآها مزدانة بحلية تركية، ومرتدية ثياباً تركية فاخرة، خطر له أنَّها أخذت ثمن خيانتها، فرفض أن يستردَّها. ولكنه لم يلبث أن**

21 و. نكولز: الشايقية، ص 57.

عرف الحقيقة، فتلقاها بالترحيب، وقرر على الفور التسليم لإسماعيل، لأنَّه كما يقول، أصبح لا يستطيع أن يحارب رجلاً حفظ له عفاف ابنته"[22].

هنا، نحن أمام فتاة جميلة ذات مكانة اجتماعية، كونها بنت الزعيم المحلي، وهي تلجأ إلى الغزاة وإن كان من غير قصد منها، فيتَّهمها أهلُها بالخيانة. إنَّ معظم عناصر حكاية "المرأة الخائنة" حاضرة هنا لتؤدِّي وظيفة ثيمة عنقودية، فالفتاة السودانية الجميلة تؤدي دور ابنة يوليان في فتح الأندلس ومارينا في فتح المكسيك إذ تصبح سبباً لتحوُّل أهلها إلى حلفاء للغزاة. فبسببها يتحوَّل والدها، الذي كان رأس المقاومة الوطنية، إلى حليف للغزاة يعينهم على فتح بلده.

تلفتنا ثيمة المرأة الخائنة إلى خاصِّية ذكورية مميِّزة لقصص الفتوحات، وهي أنَّ المرأة يتم تصويرها منفذاً للخيانة في معظم الأحوال، مهما تنوَّعت مواقفها. فرغم أنَّ الفتاة السودانية لم تتحوَّل إلى (قحبة) كما في الأندلس والمكسيك، وإنَّما صانت شرفها؛ فإنَّ سلوكها الشريف هذا يصبح سبباً لانضمام أهلها إلى الغزاة ويتحوَّلون إلى خوَنة، فلأنَّ شرفها لم يُنتَهك تُقرِّر قبيلتها مكافأة الغزاة بالتحالف معهم. وسواء بذلت المرأة شرفها أو صانته، فهي الباب المشرع أمام خيانة الوطن، وقوس النصر الذي يمرُّ عبره الغزاة[23].

تستمر التشابهات مع قصص فتوحات أميركا وغزو نابليون لمصر، فكما فعل الإسبان في أميركا، حيث كانوا يقبضون على المواطنين ويرسلونهم إلى إسبانيا ليعودوا من هناك ويخدموا توطيد سلطة الفاتحين؛ وكما فعل نابليون حين أمر بإرسال خمسمئة من أبناء المصريين إلى فرنسا ليكونوا عوناً للفرنسيين

---

22 المرجع السابق، الصفحة السابقة.

23 من السمات المُهمّة للثيمات المستعادة في خطاب الفتوحات أنَّها تمرّ بتحولات مختلفة حسب تباين السياقات التي تُستعاد فيها. إنَّ حكاية المرأة الخائنة في قصَّة غزو محمَّد علي للسودان تكشف طابعها الممعن في الذكورية عندما تصبح علامة على تمتع زعيم الشايقة، الملك صبير والد صافية، بما يمكن تسميته "أخلاق وفاء" وليست "أخلاق خيانة"، رغم انحيازه للغزاة، وذلك بتصويره حريصاً على أن يردّ الدَين لمَن صانوا شرف ابنته وبوفائه هذا يُبرّأ من أخلاق الخيانة، بينما تُتَّهم المرأة وإن صانت شرفها بأنَّها هي التي تفرض على والدها الخضوع للغزاة وخيانة الوطن. في قصَّة فتح السودان تنقلب الأدوار التقليدية في حكاية المرأة الخائنة: فالرجل، الذي هو الخائن الحقيقي تتم تبرئته بمبرر الوفاء، وتُدان المرأة التي لم تخطئ.

عندما يعودون إلى مصر؛ كذلك فعل محمَّد علي مع السودانيين، فأمر بأخذ بعض أطفال الزعماء إلى مصر ليتعلَّموا هناك، مستهِلّاً خطَّة إيجاد نخبة وطنية تعينه على حكم وطنها[24]. والطهطاوي، الذي لا يربط هذه الخطَّة بتوطيد سيطرة الغزاة ويربطها بما يسمِّيه "رغبة محمَّد علي في نشر التقدُّم في السودان"، يقول:

"وممَّا يدلُّ على حسن مقاصد المرحوم محمَّد علي أنَّه في عودته من البلاد السودانية استصحب معه عدة غلمان من أبناء وجوه السودان إلى مصر..."[25].

كما فعل نابليون، أخذ محمَّد علي معه إلى السودان مجموعة من العلماء بزعم أنَّه يريد أن يحقِّق اكتشافات علمية، أولها استكشاف منابع النيل. يقول تقرير الرحلة إنَّ الباشا أراد من ذلك "تحقيق كتب الجغرافيا ليكون عمله تذكاراً وهدية للأخلاف"، فأوفد لهذه الغاية باحثين وستين جندياً وثلاثة رسَّامين، بالإضافة إلى كاتب تقارير"[26]. فحتى ذلك الوقت لم يكن للأوروبيين أيَّة معرفة بمنابع النيل، وكانت الكتب العربية التي كتبها الرحَّالة في العصور الوسطى فقط هي التي تورد معلومات عنها، إلى جانب القليل مما دوَّنه بطليموس.

وفقاً لقالب قصص الفتوحات الأوروبية الحديثة، الذي تلتزمه قصَّه غزو شرق إفريقيا، لابد أن يتحوَّل محمَّد علي في السودان إلى شخصيَّة مقدَّسة. ولأنَّ معظم السودانيين كانوا مسلمين مثل محمَّد علي، لم يكن ممكناً أن ينسب له تقرير الرحلة أو لجنوده أُلوهيَّة على طريقة الإسبان في أميركا، ولا نبوَّة على طريقة طارق في الأندلس، أو نابليون في مصر، فوجد كاتبو التقرير حلّاً في شخصية مقدَّسة لدى المسلمين لها مكانة وسطى بين الأنبياء والبشر، هي (الخَضر). فيقول التقرير بعد أن يصف السودانيين بالجهل المطبق:

---

24 انظر: **رحلة ...**، ص 51.

25 الطهطاوي: **الأعمال..**، ص 452.

26 **رحلة ...**، ص 34.

"ولكن الله قيَّض لأولئك الهائمين في وادي الحرمان مولانا ولي النعم العادل الرحيم، فجاءهم كالخضر من لدن الربّ المجيد. وكان لمقدمه السعيد فيض وبركة، ونفخَ روح الحياة في سكان البلاد الذين كانوا كالأموات فعادوا إلى الحياة أنضر وأقوى مما كانوا"[27].

وفقاً لتقاليد الرواية التاريخية الأوروبية، من اللازم لقصَّة الفتح أن تجعل قائد الغزاة رسول خلاص ينفخ الروح في البلد "الميِّت" الذي يغزوه، فيحييه. وكما صاغ نابليون تعارضاً بين أرض مصر الواعدة بالغِنَى وجهل المصريين، لكي ينسب إلى نفسه دور المخلِّص؛ كذلك صاغ مثقَّفو محمَّد علي للسودانيين صورة شعب كسول يسكن أرضاً غنيَّة، فجاء في تقرير رحلته:

"ومن المجزوم به أنَّ كل ما يُزرع هنا ينتج، كما أنَّ أصحابه ينالون المحصول بدون كلفة وعناء، وكثيرون مستغرقون في غياهب الجهل والكسل، لأنَّهم لم يوفَّقوا إلى سيِّد رحيم يوجِّه إليهم أنظاره ويشملهم برعايته منذ أن خلقهم الله إلى هذا العصر"[28].

بدلاً من أن يستنتج كاتب التقرير من جودة الإنتاج الزراعي للسودانيين نشاطهم واجتهادهم، لأنَّ نجاح الزرع هو نتاج جهد المزارع حتى إن كانت التربة والجو ملائمَين، فإنَّ كاتب التقرير يفترض أنَّ زراعتهم نتاج الطبيعة وحدها، ويصف السودانيين بالكسل ليستنتج أنَّهم في حاجة إلى من يقودهم ويوجِّههم. إنَّه يستعيد مبرِّرات الغزو ذاتها التي تكرِّرها نصوص الأوروبيين، فالحاجة إلى الخلاص هي ما يمنح محمَّد علي دور مُنقذٍ للسودانيين، يملك قدرات فوق بشرية ترفعه إلى مكانة (الخَضِر)، ذلك الرجل الذى يتمتَّع بمكانة روحية رفيعة في التراث الديني للمسلمين، تضفي عليه قداسة تقرِّبه من الأنبياء.

---

27 **تقرير رحلة ...**، ص 50.

28 المرجع السابق، 49 - 50.

بعد أن ثبَّت محمَّد علي حكمه في الخرطوم، اتَّخذت الأوضاع مساراً آخر، لم يستطع السيطرة عليه. فبعد حوالي خمسة عشر عاماً من الغزو أصبح المسيطرون على السودان فعلياً، والذين ينهبون ثروته ويستفيدون من إخضاع شعبه، هم الأوروبيون. فقد وصفهم المؤرِّخ روبرت كولينز بأنَّهم شكَّلوا:

"جالية تجارية أوروبية كبيرة الحجم والنفوذ في الخرطوم استطاعت تحت حماية القناصل الأجانب، وبالتحالف مع الفاتيكان، أن تدخل المسيحية بين الأفارقة غير المسلمين في جنوب السودان. وكان محمَّد علي قد أُجبِر عام 1838م على إنهاء الاحتكار الحكومي للتجارة مع السودان"[29].

هكذا كان مشروع محمَّد علي في واقعه مشروع توسُّع للنفوذ السياسي والتجاري للأمم الأوروبية، التي كانت تحت غطاء التحديث تمارس كل النقائض: فهي تمارس الاحتلال في الخارج بينما تدافع عن الحرية في بلادها، وتتبنَّى العلمانية في أوروبا بينما تنشر المسيحية في الخارج، وتمجِّد الديموقراطية بينما تقمع شعوب العالم. ولقد فهم الثوَّار السودانيون الأوضاع الجارية في بلادهم بعد الغزو التركي بطريقة صحيحة، فقائدهم محمَّد أحمد المهدي وصف السلطان العثماني وحكام مصر بأنَّهم حلفاء الأوروبيين في غزو بلاد المسلمين، الذين لم يعتدوا لا على الأتراك ولا على الأوروبيين. وبهذه الحُجَّة نزع محمَّد أحمد المهدي ورفاقه عن السلطان العثماني لقب خليفة المسلمين.

يتأكَّد تماثل قصَّة غزو محمَّد علي للسودان مع قصَّة غزو أميركا أيضاً في عنصر (الاكتشاف)، بوصفه مكمِّلاً لسلسلة التماثلات السابقة. ففي المشروع الحداثي يتأسَّس حق امتلاك الأرض التي يتم غزوها على اكتشافها، وليس من الممكن تصوُّر الإمبراطوريات الحديثة من دون أن تقوم بعمليات اكتشاف لمَن تغزوهم، كما فعل الإسبان في أميركا وفعل الإنجليز في هاواي وأستراليا، أو يُكتَشَف تاريخهم كما فعل الفرنسيون في مصر، فكان لا بدَّ لمشروع محمد علي الحداثي من تقديم رواية للعالم عن (اكتشاف إفريقيا) ترافق رواية (فتحها).

---

29 روبرت أو كولينز: **تاريخ ...**، ص 33.

في رحلة استكشاف المناطق الإستوائية التي تتوقَّع المخيِّلة الاستعمارية أن تسودها الغرابة، ستظهر بقية العناصر الموازية لقصَّة فتح أميركا التي ما كان ممكناً أن تظهر في الجزء الخاص بغزو شمال السودان، الذي يسكنه المسلمون. فهناك ستظهر ثيمات اعتقاد المواطنين بأُلوهيَّة الغزاة، وأكلهم لحوم البشر، فشعوب شمال السودان وإن كانوا يُعتبرون لدى الغزاة الأتراك جزءاً من عالم البربرية، فهم لا يندرجون في نطاق الغرابة بالنسبة إليهم، لأنَّهم مسلمون. سارت حملة (اكتشاف) منابع النيل تحت قيادة قبطان اسمه سليم، لتستكمل قصَّة الفتح.

في كتابه (مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية) وصفَ الطهطاوي حملة سليم بأنَّها جاءت على سُنَّة قدماء ملوك مصر وملوك العجم والأسكندر والبطالسة وقياصرة الروم في استكشاف البلاد"[30]. ولكي يجعل من تلك الرحلة حدثاً تاريخياً كبيراً، ألحقها بتواريخ حضارات البحر الأبيض المتوسِّط، محاولاً إدراج تاريخ المصريين فيها. ومثلما قالت النصوص العربية إنَّ أهل شمال إفريقيا كانوا يغزون الأندلس دائماَ، لتبرِّر غزو المسلمين لها، وكما ادَّعى الإسبان أنَّ أسلافاً لهم حكموا المكسيك قديماً، وكما ربط الفرنسيون حملتهم على مصر بغزو الرومان لها؛ كذلك سعى الطهطاوي للعثور على دليلٍ تاريخي يبرِّر به غزو محمد علي لمنطقة شرق إفريقيا، فقال إنَّ قدماء المصريين كانوا يغزون السودان دائماً[31].

في أكثر من خمس عشرة صفحة من تقرير حملة القبطان سليم، يتكرَّر القول بأنَّ مواطني المناطق الاستوائية يستقبلون قادتها على أنَّهم مبعوثون من

---

30 انظر: تقرير رحلة سليم قبودان: **الرحلة الأولى للبحث عن ينابيع البحر الأبيض**، (القاهرة: مكتبة مدبولي، 1996). ص. 89.

31 في الحقيقة، كان الغزو متبادلًا بين السودانيين والمصريين، كما هو حال معظم الأمم المتجاورة. وقد حكم السودانيون مصر كلها فترة طويلة في عهد ملوك مروي، وهم الذين يمثلون الأسرة الخامسة والعشرين في التاريخ المصري القديم، بينما لم يحكم المصريون إلا أجزاء محدودة من شمال السودان لفترات متقطِّعة.

عند الله، ويلقون بأبقارهم لرجال الحملة معتقدين أنَّهم رُسُل الله إلى إفريقيا[32]. ويُكثِر التقرير من إيراد الإشارات التي كان رجال الحملة يفسِّرونها بهذا المعنى، فيدّعون أنَّ أفراد القبائل كانوا يرفعون أيديهم ابتهالاً إلى الله عندما يشاهدونهم، شكراً له على إرسالهم. ويشير إلى أنَّ النساء كُنَّ يؤدِّين طقوس عبادة رجال الحملة بالسجود لهم[33]. ويضيف التقرير:

> **"إنَّ [رجال] قبيلة الكيك جاءوا رافعين أيديهم إلى السماء كالمبتهلين وقالوا عنا إنَّنا رُسلٌ من عند الله، وكان معهم عِجل، وكل ما استطعنا أن نفهمه من صياحهم وحركاتهم أنَّهم يدعوننا إلى قبول العجل"**[34].

في تقريره، ينكر سليم الوضعية التي انتهى إليها بحملته، وضعية العاجز الذي حوصر في مياه النيل الأبيض لشهورٍ كاد فيها رجاله أن يهلكوا جميعاً، لا بسبب الطبيعة وحدها، وإنَّما بسبب المقاومة التي لقيتها الحملة من المواطنين، والتي لم يُشِر إليها التقرير إلَّا بطريقة ملتوية. فالخوف من محاربي القبائل السودانية هو الذي أبقى رجال الحملة داخل المياه أشهراً عديدة، إذ كانوا يُقتَلون بمجرَّد إظهار أي نوع من السلوك العدائي نحو المواطنين. وحسب ما كتب سليم نفسه، تعرَّضت الحملة إلى هجوم عنيف من قبيلة يسمِّيها (الكيك)، رغم ادّعائه أنَّ أفرادها "اعتبروا رجال الحملة مرسلين من الله"[35].

كما هو متوقَّع في خطاب الفتوحات الحديثة، لا بدَّ أن يظهر في قصَّة فتح السودان آكلو بشر، مثلما نسبت قصص الإسبان إلى شعوب أميركا تلك العادة. يجد قبودان بين المواطنين الذين يدلُّونه على منابع النيل الأبيض مَن يخبره بأنَّه فيما وراء الجبال التي تلي منطقتهم تسكن قبيلة اسمها كلكور، تأكل

32 المرجع السابق، ص 62-45.

33 المرجع نفسه، ص 53.

34 المرجع نفسه، ص 71.

35 المرجع نفسه، ص 48.

البشر[36]. وهذا يماثل تماماً قول كولمبس في تقرير رحلته إلى أميركا أنَّ بعض المواطنين أخبروه بوجود قبيلة تسكن وراءهم اسمها "كاريبو"، تأكل البشر. هكذا استكمل تقرير قبودان جميع العناصر التي كانت تنقص قصَّة فتح السودان، فيورد حكايات أكل البشر وتقديس الغزاة وتحوُّل المواطنين إلى أدلَّاء للغزاة.

كانت النتيجة الطبيعية للتصرُّف وفق الأوهام، والمسلَّمات المسبقة الخاطئة، أن فشلَ محمَّد علي في تحقيق أهدافه من غزو إفريقيا، فلم يجد العدد المطلوب من الرجال لجيشه، وعجز عن استخراج الذهب، ولم يحصل على منتجات زراعية. فانهارت آماله التحديثية في مصر بسبب اضطراب الأوضاع في السودان، واستمرار الثورة منذ بداية الغزو وحتى نجاح السودانيين في تحقيق التحرُّر النهائي. وصفَ الطهطاوي الإحباط الذي أصاب محمَّد علي بعد أن تأكَّد من فشل محاولات استخراج الذهب، عقب زيارته للسودان، بقوله:

> **"فمن هذا الوقت سقطت قيمة المعادن الذهبية من أعين الجميع وقلَّ اعتبارهما، فتغيَّر خاطر المرحوم محمَّد علي من ذلك وداخَلَه اليأس من رواج معادن السودان"**[37].

إلى جانب كل هذا، فشلت محاولات الوصول إلى منابع النيل وفتح المنطقة الاستوائية أمام الرحلات النهرية، فرجعت حملة القبطان سليم بلا نتائج بعد أن نجت من حصار طويل في النيل الأبيض، ضربته حولها القبائل النيلية.

بفشل الأتراك في السيطرة على السودان، لفتوا نظر الأوروبيين إلى إمكانية التوسُّع في إفريقيا التي كانت بعيدة عن اهتمامهم. فبعد أن هزم السودانيون الأتراك، رأى الإنجليز الذين كانوا قد احتلوا مصر ضرورة غزو السودان لتأمين الحدود الجنوبية لمصر، التي كان السودانيون يعدُّون العدَّة لمهاجمتهم فيها.

---

36 المرجع نفسه، ص 41.

37 رفاعة رافع الطهطاوي: **الأعمال..**، ص 450.

وباتِّخاذ قتل الثوار السودانيين للضابط الإنجليزي تشارلس غردون ذريعة هاجم الإنجليز السودان وقضوا على حكمه الوطني في سنة 1898م.

في الصومال وسلطنة هَرَرْ الإسلامية، التي صارت اليوم جزءاً من إثيوبيا، حدث شيء مماثل. ففيهما حلَّت الجيوش الأوروبية محلَّ قوات أسرة محمَّد علي الضعيفة، التي غزت مناطق المسلمين هناك في محاولة لاستكمال مشروع محمد علي لغزو شرق إفريقيا، لكنها لقيت هزائم عديدة فيهما، كما في السودان. وربما لو لم يُدخِل محمَّد علي تلك البلاد تحت دائرة التهديد الخارجي، لقلَّ احتمال تعرُّضها لموجة الغزو الأوروبي الذي جرى فيه اقتسام إفريقيا في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، وكان علامة على بلوغ الإمبريالية الأوروبية قمَّتها.

يخلص هذا الفصل إلى أنَّ السمة المميِّزة للحضارة الأوروبية، وهي استنادها إلى تقاليد موروثة لخطاب يبرِّر الغزو، أتاحت لكثير من دول أوروبا أن تنضمَّ لمشروع غزو العالم، لأنَّ خطاب الفتح اصطنع للغزاة صورة أُممٍ متقدِّمة تنقل الحضارة إلى شعوب (متوحِّشة). وكما ساهمت السرديَّة التي ركَّزت على أُلوهيَّة الأوروبيين في تحويل جهود القبطان كوك البحرية إلى "اكتشافات عظيمة"، وساهم التركيز على المعرفة العلمية في تصوير غزو نابليون "حملة حضارية"؛ فإن التركيز على فكرة التمدين في غزو محمَّد علي لشرق إفريقيا ساهم في تصوير حكمه لمصر على أنَّه "مشروع حداثة" يقوم على قصَّة (فتح) لإفريقيا.

إنَّ المثقفين العرب الذين يتبنَّون اليوم الصورة الزائفة التي اصطنعها محمَّد علي لمشروعه الاستعماري، ويستمرُّون في تصويره كمشروع حداثي، لا يلاحظون وجود فرق جوهري بين تجربة التحديث الأوروبية وتجربة محمَّد علي. لقد تحقَّق التحديث في أوروبا بأن تغزو أممٌ مستقِلَّة دولاً أخرى لتتَّخذ

منها مستعمرات، أمَّا في تجربة محمَّد علي فقد سعى لتحقيق حداثة عبر غزو تقوم به دولة هي نفسها مستعمَرة، فمصر كانت مستعمرةً يصُبُّ خِراجها في تركيا وأوروبا. إنَّ قابلية خطاب الفتح للاستعارة هي التي أوهمت محمَّد علي بقابلية الحداثة للاستعارة، فلم يدرك شرطها العميق، وهو حُرِّية الدولة القوميَّة الاستعمارية.

بهذه الطريقة توسَّعت خريطة استعارة قصَّة فتح أميركا في أوروبا، فمرَّت من إسبانيا إلى بقيَّة دول غرب أوروبا، مثل إنجلترا وفرنسا، ومنها إلى أُمم أوروبية أُخرى ليس لها تقاليد استعمارية، مثل ألبانيا التي ينتمي إليها محمَّد علي. لقد صار قالب قصَّة الفتح في الثقافة الأوروبية أشبه بوصفة جاهزة، تزوِّد الحكَّام بخارطة ذهنية (mental map) لتحقيق حداثة مقترنة بالغزو.

القسم الثالث

ما وراء سرديَّات الفُتُوحات الأوروبيَّة

المصادر العربية لتاريخَي فتح الأندلس وفتح أميركا

سواء بين المؤرِّخين الغربيين أو العرب، يوجد كثيرون من المتخصِّصين في تاريخ إسبانيا القديم والحديث، ملمِّين بتاريخي فتح المسلمين للأندلس وفتح الإسبان لأميركا. فلماذا لم يفكِّر أي منهم في إجراء مقارنة بين نصوص التاريخَين خلال الخمسمئة سنة الماضية، الممتدَّة على طول العصر الحديث؟ يصبح هذا السؤال ملحَّاً عندما نلاحظ أنَّ بعض المؤرِّخين العرب والأوروبيين انتبهوا إلى وجود تماثل بين بعض ثيمات تاريخَي الفتحين؛ لكنهم لم يتوسَّعوا في بحث العلاقة بين القصَّتين، رغم أنَّ هناك سبباً قوياً يدعو إلى ذلك وهو أنَّ التاريخَين يخصَّان أُمَّة واحدة هي الأُمَّة الإسبانية، ولذا فمن المعقول جداً افتراض أن تتماثل التصوُّرات التي صاغتهما. ويصبح السؤال أكثر إلحاحاً عندما نلاحظ أنَّ الدراسات التاريخية المقارنة تمثِّل مجال بحثٍ معترفٍ به، وأنَّ دراسة الفترة المبكِّرة من العصر الحديث تتداخل مع دراسة المجتمعات المعاصرة وفهم مشكلاتها، وبالتالي فإنَّ حوافز البحث في الموضوع متوفِّرة، ومقارنة التاريخَين لها ما يستدعيها وإن لم تكن تماثلاتهما ظاهرة، دعك من أنَّها تكشف عن نفسها بوضوح حتى لغير المتخصِّص.

إلى جانب ذلك، فإنَّ حقل الدراسات الإيبيريَّة يمثِّل مجالاً أكاديمياً مستقلاً في الجامعات والمؤسَّسات البحثية الغربية، ويلتقي مع عدد من الحقول من بينها تاريخ أميركا اللاتينية والدراسات الثقافية ودراسات ما بعد الاستعمار، ويتَّصل بتحليل خطاب الثقافة الإسبانية في فتراتها القديمة والحديثة. فلماذا أُهمِل في كل هذه المجالات بحث العلاقة بين المعرفة الأندلسية والمعرفة الأوروبية الحديثة؟

بعد توضيح توفُّر محفِّزات المقارنة بين الطريقة التي كُتِب بها التاريخان الوسيط والحديث لإسبانيا؛ ينتقل هذا الفصل إلى بحث مواقف المؤرِّخين التي حالت دون الكشف عن العلاقة بين قصَّتَي الفتحَينِ طوال القرون السابقة. وفي البداية تُفحص مواقف المؤرِّخين الذين كانوا أقرب من غيرهم إلى افتراض تماثُل القصَّتين لاطِّلاعهم على تاريخَي الفتحَينِ، ثم تُعرَض مساهمات بعض الذين أشاروا إلى وجود تطابُق بين القصَّتين في عنصر واحد فقط، ثم يُربَط بين مواقف هاتين الفئتين من المؤرِّخين لتوضيح أنَّ سبب إهمال تماثل القصَّتين هو التسليم بتفوُّق المعرفة الأوروبية على معارف الشعوب الأخرى. ومن عرضه للمساهمات العربية في مجال نقد تماثلات قصص الفتوحات يتوصَّل الفصل إلى المصادر التاريخية التي استمدّ منها مؤرِّخو فتح الأندلس روايته. ولنبدأ أولاً بالتعرُّف على المؤرِّخين الغربيين الذين يُفترض أنَّهم كانوا أقرب من غيرهم إلى التوصُّل لتماثل القصَّتين.

كان المؤرِّخ الإسباني خوان أنطونيو كوندى ملمَّاً إلماماً واسعاً بتاريخ فتح الأندلس، وكتب عنه في القرن التاسع عشر كتاباً استغرق منه زمناً طويلاً، ولأنَّه كان بلا شك يعرف الكثير عن التاريخ الحديث لوطنه إسبانيا، المرتبط بفتح أميركا؛ يبدو من الغريب جداً ألّا يلاحظ العلاقة بين قصَّتي الفتحين. لخّص كوندى المصادر التاريخية العربية والإسبانية التي تناولت فترة حكم المسلمين لإسبانيا وقارنَ بينها، وكان يتمتَّع بملكة نقديَّة قوية أعانته على ملاحظة ما يتّخذ طابع الأسطورة والخرافة فيها، لكنه مع ذلك لم يورد تعليقات حتى على هوامش نصِّه حول تماثُل بعض عناصر تاريخ فتح الأندلس مع تاريخ فتح أميركا، كما فعل بعض المؤرِّخين الحديثين الذين كتبوا عن أحد التاريخين. ومثالهم المؤرِّخ الأميركي المعاصر لفرنغ لويس الذي كتب فصلاً حول فتح الأندلس في دراسته لأثر الإسلام على أوروبا في الفترة بين 750–1215م، وفيه

لاحظ التشابه بين سلوك نبلاء القوط تجاه الغزاة الأفارقة وسلوك نبلاء المكسيك تجاه الغزاة الإسبان، وعلَّق على ذلك بقوله:

"رحَّب جزء من النبلاء بطارق باعتبار ذلك ضرورة مؤقتَّة للتخلُّص من رودريك. كان أوليغاركية الفيزيقوط [...] قد خدعوا أنفسهم بافتراض مماثل لما افترضه أزتك مونتزوما [موكتزوما] عن بقاء الإسبان. لكن طارقاً وجماعته كانوا قد جاءوا ليبقوا أكثر من سبعمئة سنة"[1].

لدينا مثال لكاتب غربي آخر تثير نصوصه تساؤلات أقوى حول إهمال تماثل التاريخَين، هو واشنطن إرفنغ (Washington Irving: 1783–1859). كان إرفنغ يكتب التاريخ بطريقة سردية جاذبة للقُرَّاء، وأصدر كتباً تناولت فتح الأندلس، وفتح الإسبان لغرناطة، ووصول الإسبان إلى أميركا. وكان مطَّلعاً على وثائق كثيرة أصلية حول هذه الأحداث الثلاثة، لأنَّه عاش في إسبانيا فترةً من الزمن وعمل فيها دبلوماسياً للولايات المتَّحدة. ورغم أنَّ إرفنغ لم يكتب عن فتح المكسيك بالتحديد إلا أنَّه كتب عن وصول كولمبس إلى أميركا وأثره على التاريخ الإسباني، وهذا يؤكِّد أنَّه كان مُلمَّاً بقصَّة فتح أميركا لأنَّ جذورها توجد في ما يُسمَّى اكتشاف أميركا. وحتى إن كان إهماله لتماثل فتح الأندلس وفتح أميركا له أسبابه، فلماذا لم يلاحظ أنَّ رواية الإسبان لتاريخ فتح غرناطة تماثل روايتهم لقصَّة فتح الأندلس وأنَّهما جزء من خطاب تاريخي واحد، رغم أنَّه نقل القصَّتين إلى الإنجليزية؟

إنَّ تاريخ فتح غرناطة يمثِّل الحلقة الوسطى في مراحل استعادة الإسبان لخطاب الفتوحات العربية، لأنه الفتح الذي وُلدت منه إسبانيا الحديثة وتبلورت فيه عملية استعادة قصَّة فتح الأندلس. استمرت المدوَّنات الإسبانية على طول فترة حرب الاسترداد وحتى لحظة سقوط غرناطة، القريبة جداً من لحظة فتح أميركا، تستجمع ما ورثته من المعرفة التاريخية العربية وتدمجها بتقاليدها

1 Lewis, David Levering: *God's Crucible: Islam and the Making of Europe, 570-1215*. (New York and London: Norton, 2008). P. 25.

التاريخية المحلِّية فتكوَّنت من هذا اللقاء تقاليد الكتابة التاريخية الإسبانية الحديثة، وبوجه خاص في مجال الفتوحات.

بما أنَّ الفترة التي شهدت استيلاء الإسبان على غرناطة في سنة 1492م تمثِّل جزءاً من فترة رواج الثقافة الأندلسية، التي لم تبدأ تصفيتها بطريقة رسمية إلا بعد ذلك بزمن طويل؛ فمن الطبيعي أن تنتمي النصوص التي أرَّخت لفتح أميركا إلى خطاب فتح الأندلس، لأنَّ فتح أميركا حدث بعد سقوط غرناطة بأقل من ثلاثين سنة. هذا بالإضافة إلى أنَّ التكوين الفكري لمؤرِّخي فتح أميركا الأساسيين يعود إلى الفترة التي سادها تأثير الثقافة الأندلسية في إسبانيا، فمعظمهم نشأ وتكوَّنت ثقافته عندما كانت المعرفة العربية متداولة في إسبانيا، رغم وجود نوع من التضييق عليها. أيضاً، كان أبرز غزاة أميركا مشاركين في حروب الاسترداد التي دارت ضد المسلمين، بدءاً بكرستوفر كولمبس الذي شارك في حصار مدينة بازا حتى استسلامها للإسبان في سنة 1489م، ومروراً ببدريرياس أفيللا (Pedririas de Avilla) حاكم نيكاراغوا الذي شارك في حصار غرناطة، وانتهاء بمشاركة هرناندو كورتس في قيادة الحملة الإسبانية على الجزائر بعد غزوه للمكسيك. وكل هذا يبيِّن أنَّ الحروب التي أدارها الإسبان في أميركا كانت مرتبطة بحروبهم ضد الأندلسيين وأهل المغرب ومتداخلة معها، وحتى بعد تسليم غرناطة استمر الأندلسيون يعيشون في إسبانيا لفترة تقارب قرناً من الزمن بعد فتح أميركا، ولم يبدأوا الخروج منها إلا في سنة 1609م. كل هذا يؤكِّد أنَّ الإسبان الذين أداروا غزو أميركا كانوا متآلفين مع الثقافة الأندلسية، فكان طبيعياً أن تتأثَّر بها طريقة كتابتهم لتاريخ فتوحاتهم.

فيما يلي رصد مختصر للمسار الذي اتَّخذه تبنِّي الإسبان لخطاب الفتوحات العربية خلال فترة حروب الاسترداد وصولاً إلى لحظة سقوط غرناطة. فبعد فتح الأندلس مباشرة شرع مؤرِّخ إسباني مستعرِب، عاشَ وتثقَّف تحت حكم مسلمي الأندلس، في تدوين بعض جوانب قصَّة الفتح. كتب ذلك المؤرِّخ المجهول كتاباً

باللاتينية يُعرف اليوم باسم "مدوَّنة 754 التاريخية" (Chronicle 754)، وسُمِّي هكذا لأنَّ النص توقَّف عند منتصف القرن الثامن الميلادي من تاريخ إسبانيا، ويعتبر أول نص يوثِّق لفتح الأندلس لأنَّه كُتِب قبل النصوص العربية المتوفِّرة لدينا الآن[2].

تمتدُّ الفترة التي يغطِّيها النصُّ من سنة 610 إلى سنة 754 للميلاد، ويرصد فترات حكم الفيزيقوط (Visigoth)، وهم القوم الذين حكموا الأندلس وتسمِّيهم المصادر التاريخية العربية "القوط". وبالإضافة إلى تاريخ فتح الأندلس يحتوي النص أخبار فتوحات المسلمين المبكِّرة، مثل فتح بلاد الشام، وهذا يوضح أنَّ تاريخ مسلمي الشرق كان معروفاً للإسبان منذ وقت قديم. ورغم أنَّ النص كُتب بعد سنوات قليلة من غزو الأندلس، فإنَّ كاتبه لا يتحدَّث عن المسلمين كغرباء ويحكم عليهم من خلال طريقة إدارتهم للبلد، ودورهم في نشر المدنيَّة. وربما لأنَّ الأندلس كانت تحت حكم الفيزيقوط الذين هم أجانب أيضاً، فإنَّ غزوها بواسطة الأفارقة لم يشكِّل اختلافاً كبيراً في طبيعة الحكم الخارجي بالنسبة إلى الإسبان، إلا من حيث الطريقة التي أداروا بها البلاد.

مع تطوُّر المواجهة الحربية بين مسلمي ومسيحيي الأندلس فيما بعد، بدأ الإسبان ينظرون إلى المسلمين بوصفهم غرباء، وبدأوا يستخلصون عناصر الخطاب التاريخي العربي ويلحقونها بقصص انتصاراتهم على المسلمين. كان الاستيلاء على خطاب الفتح الأندلسي يسير بموازاة الاستيلاء على الأراضي الأندلسية، وصارت كتابة التاريخ الإسباني عملية مكمِّلة لمنازعة الأندلسيين السلطة وفضِّ امتياز هويَّتهم وإبطال مزاعم شرعية حكمهم. ويمكن تتبُّع بدايات عملية الاستيلاء على خطاب فتح الأندلس من نهاية القرن الثاني عشر حيث

2 يُعرَف النصُّ باسماء أخرى أيضاً، منها: تاريخ المستعرب (The Mozarabic Chronicle) وتاريخ إسيدور البيجي (The Chronicle of Isidore of Beja).

تظهر ثيمة المرأة الخائنة لتفسر اجتياح مملكة نافارى (Navarre) بسبب بنت الملك يعقوب، خليفة الموحِّدين في بلاد المغرب.

في هذه القصَّة أغرت الفتاة زعيماً مسيحياً، هو سانشو ملك نافارى، بأنَّها ستتزوَّجه وتتحوَّل إلى الديانة المسيحيَّة. ووعده أبوها بمنحه أراض أندلسيَّة، فتوجَّه سانشو إلى إفريقيا لكنه وجد يعقوب قد توفِّي، وبقي هناك تحت تهديد ابنه الذي تولَّى مُلك المغرب، وفي غياب سانشو سقطت مملكة نافارى في يد مملكتي قشتالة وأراغون[3]. وإلى جانب حكاية المرأة الخائنة التي تتسبَّب في سقوط المملكة وضياع المُلك، تظهر في قصص حروب الاسترداد ثيمات أخرى وثيقة الصلة بقصَّة فتح الأندلس.

في عهد الملك الفونسو الثامن، كتب رودريغو خمينيث دي رادا عن بعض المعارك، محاولاً إثبات بطولة الإسبان وتفوُّقهم في الشجاعة على المسلمين، فجعل الفرق بين عددهم وعدد المسلمين، الذين كانوا من جيش الموحِّدين، كبيراً جداً في معركة منحدرات سييرا مورِنا (Sierra Morena)، التي دارت في سنة 1212م[4]. فذَكَر أنَّ المعركة التي انتصر فيها الإسبان انتهت بما يقارب مئتي ألف قتيل مسلم، بينما لم يتجاوز عدد قتلى المسيحيين ثلاثين فارساً. ويبقى مثل هذا الفرق محفوظاً في عدد من المعارك التالية، ففي مرة أخرى ينتصر ثلاثة آلاف مسيحي فقط على خمسة عشر ألف مسلم[5]. وعنده تظهر ثيمة أخرى هي أخذ المسلمين رهائن بواسطة الإسبان ليأمنوا خطر قوَّتهم الكبيرة[6]. وهذه الثيمات المتماثلة مع فتح الأندلس، والتي تظهر في قصص فتوحات

3 رغم أنَّ القصَّة وردت لدى مؤرِّخ أنجليزي، فهي تدور في الممالك الأندلسية، وقد شاعت في أوروبا حتى وصلت إلى إنجلترا. انظر:

Smith, Colin; Christians and Moors in Spain, Vol. II: 1195-1614,) Warminster- England: Ares and Phillips, 1989. P. 6-8.

4 المرجع السابق، ص 15.

5 المرجع نفسه، ص 33.

6 المرجع نفسه، ص 103.

متفرِّقة وليس في قصَّة واحدة، ستتجمَّع لترتبط ببعضها في تواريخ فتوحات الاسترداد المتأخِّرة لتشكِّل قصَّة واحدة.

رغم أنَّ باحثاً متخصِّصاً في تاريخ العصور الوسطى الإسلامية مثل روجر كولنز يرى أنَّ النصوص العربية عن تاريخ الأندلس غير مفيدة لأنَّها تقتبس بكثافة عن بعضها وتستعيد روايات ذات طابع أسطوري؛ فهو لا يلاحظ أنَّ كثيراً من تلك العناصر توظِّفها النصوص التاريخية الأوروبية دون أن توصف بصفات سالبة[7]. ومؤخَّراً فقط بدأ بعض الباحثين الغربيين يلاحظون أنَّ قصص الفتوحات الإسبانية تتميَّز أيضاً بطابع تكراري، فقد كتب باحث معاصر عن الطابع الأسطوري لقصَّة استيلاء الإسبان على غرناطة:

"إنَّ كل الاستباقات التاريخية والأسطورية لما سيتشكَّل في أيديولوجيا إعادة الفتح (reconquest) المسيحية، التي ستبلغ أوجها في سقوط غرناطة على يد الملكين الكاثوليكيين (فرديناند وايزابيلّا) في 1492م، كلها حاضرة هنا"[8].

وبعد أن عدَّدَ كثيراً من العناصر التي شكَّلت قصَّة فتح غرناطة موضِّحاً علاقتها بأدبيات فتح الأندلس، كتب:

"إنَّ إسبانيا القرون الوسطى لا تملك أدب فتح وأدب إعادة فتح مستقلَّين عن بعضهما، ولكنها تملك أدباً يضمُّ الاثنين معاً، فلا يمكن فهم أحدهما من دون الآخر ولا يمكن فصمهما، فهما يشكِّلان قوَّتين ملتحمتين داخل النص"[9].

هذا يشير إلى أنَّه في فترة غزو المسيحيين لغرناطة، القريبة جداً من فترة غزو أميركا، كان خطاب الفتوحات الإسبانية يُصنَع على نموذج خطاب فتح

7 Collins, Roger: *The Arab Conquest of Spain 710-797,* (Oxford: Blackwell, 1998). P. 8-9.

8 Hazbun, Geraldine: *Narrative of the Islamic Conquest from Medieval Spain*, (United States: Palgrave Macmillan, 2015). p. 3.

9 المرجع السابق، الصفحة السابقة.

الأندلس، لأنَّ النصوص التاريخية الإسبانية كانت قد أخذت معلوماتها من نصوص عربية، كان أهمُّها كتاب "تاريخ إسبانيا" الذي أشرف عليه الملك الفونسو العاشر في الفترة من 1252م إلى 1284م، وكتاب بدرو دي كورال (Pedro de Corral) "المدوَّنات التاريخية العربية" (Crónica sarracina)، الذي كُتب سنة 1430م، وتضمَّن القصَّة العربية لفتح الأندلس. ولأنَّ كل مؤرِّخ إسباني كان يدلي بدلوه في عملية الاقتباس، اتَّسع نطاق التماثل مع النصوص الأندلسية حتى استوعبها وتخطَّاها إلى خطاب فتوحات المسلمين في عمومه، فتبنَّت النصوص التاريخية الإسبانية ثيمات سردية استعادتها النصوص العربية عن مصادر تاريخية أكثر قِدماً. وعلى هذا الأساس فإنَّ الخطاب التاريخي الإسباني الحديث والخطاب الأوروبي الذي تأثَّر به في التأريخ للفتوحات، يصدُق عليهما القول بأنَّهما يعكسان انشغالات مجتمعات المؤرِّخين أكثر من أنَّهما يكشفان حقيقة الأحداث والفترات التي يؤرِّخان لها، بما أنَّهما مثل النصوص العربية يستعيدان قوالب قديمة وعناصر سردية مكرَّرة[10].

بعد أن تجمَّعت عناصر النسخة الإسبانية من قصَّة فتح الأندلس في خطاب حروب الاسترداد؛ تجلَّى تأثيرها على المؤرِّخين الإسبان بصورة أكثر وضوحاً عند كتابتهم لتاريخ فتح غرناطة إثر الحصار الذي أنهى حكم المسلمين باستسلام الملك أبي عبد الله للملكين فردناند وإيزابيلّا في بداية سنة 1492م. ولأنَّنا بصدد معرفة الدوافع التي دعت المؤرِّخين الغربيين المعاصرين إلى إهمال العلاقة بين الطريقة التي كتب بها الإسبان تواريخ فتوحهم وطريقة كتابة العرب لتواريخهم؛ ننظر أولاً في ما كتبه المؤرِّخ واشنطن إرفنغ عن قصَّة فتح غرناطة مهملاً تماثلها مع قصَّة فتح الأندلس، التي كان قد نقلها أيضاً إلى الإنجليزية.

10 يرى روجر كولنز أنَّ النصوص العربية التي تتناول التاريخ المبكر للأندلس تمثِّل "مرآة" لحاضرها، وليست "نافذة" على الماضي. لأنَّها، حسب رأيه، تعكس الانشغالات الذاتية لمؤلفيها واوضاع مجتمعاتهم وعصرهم، ولا تنقل صورة موضوعية عن ما جرى الماضي. انظر المقدمة في:

Collins, Roger; *Caliphs and Kings: Spain, 796-1031*, (UK: Wiley Blackwel, 2014).

نقل إرفنغ عن مؤرِّخين إسبان أنَّ حاكم غرناطة مولاي بن الحسن كان مستبدًّاً برعيته، ولأنَّه كانت له زوجتان، صوَّرته المصادر الإسبانية منشغلاً بشهواته. وكانت عائشة واحدة من زوجتيه، ولقبها "الحُرَّة"، أما الزوجة الثانية فكانت إسبانية أُسرِت في حربه ضد المسيحيين فتَسَرَّى بها. وأنجبت له عائشة ابناً سمَّته محمَّد، رأى المنجِّمون في طالعه أنَّه سيكون آخر حكَّام غرناطة، لأنَّها ستنهار عندما يرِث حكم أبيه، فاشتُهِر بعدها بلقب "سيِّئ الحظ"[11]. وعندما انتصرت غرناطة على مدينة زُهرة ودمّرتها، اجتمع عدد كبير من نبلاء الأندلس في قصر الملك لتهنئته بانتصاره؛ فسُمِع صوتٌ ينوح بين الحاضرين: "أسفي على غرناطة، إنَّ ساعات انهيارها تقترب، وبقايا زُهرة المخرَّبة ستنهار على رؤوسنا، إنَّ روحي تخبرني بأنَّ نهايتنا قد أوشكت"[12]. وحين التفت الناس إلى مصدر الصوت رأوا رجلاً طاعناً في السن من نوع أُولئك المتديِّنين الذين يتنبَّأون بالمستقبل، وانطلق الرجل نائحاً في شوارع المدينة وهو ينعى مصير غرناطة الموشكة على الانهيار، وأنَّ سيوف الفاتحين ستجزُّ رؤوس رجالها قريباً[13].

هذه النبوءات عن فتح غرناطة، التي جاءت في وقت سبقَ غزو أميركا بقليل، تماثل ما سيرويه المؤرِّخون الإسبان من أنَّ نبوءات المنجِّمين لموكتزوما أخبرته بزوال عرشه وسقوط المملكة في عهده، وما أوردته أيضاً عن سماع أصوات تنوح في الشوارع ليلاً وتخبر بقرب سقوط مملكة الأزتك. وتماثل أيضاً نبوءات زوال مملكة القوط في زمن الملك رودريك، كما جاء في قصَّة فتح الأندلس.

---

11 Irving, Washington: *A CHRONICLE OF THE CONQUEST OF GRANADA, From the Mss. OF FRAY ANTONIO AGAPIDA. To which is added LEGENDS OF THE CONQUEST OF SPAIN,VOL. 1,* (London: Henry G. Bohn, York Street, Covent Garden, 1850). P. 32

12 المرجع السابق، ص 11.

13 المرجع نفسه، ص 12.

بدأت حرب الإسبان ضد غرناطة بقيادة فرديناند ملك أراغون، فانتصر على المسلمين في مدينة الحما وأسر أعداداً كبيرة منهم وحصل على ذهب وفضَّة ومجوهرات كثيرة، وهنا أدرك المسلمون بدء تحقُّق نبوءة سقوط مملكتهم[14]. وبدأ فرديناند يخطِّط لغزو غرناطة فأرسل جزءاً من جيشه للاستيلاء على ربوة تشرف على المدينة لتسهِّل مهاجمتها، وفي ذات الوقت يتمكَّن من مراقبة المنطقة وحماية معسكره. ومن قلعته الواقعة خلف جسر كان العطَّار، قائد جيش المسلمين، يراقب تحرُّكات جنود فرديناند ويحصي أخطاء قادتهم، متتبِّعاً "عورات" جيشهم، حسب التعبير الأثير لمؤرخي الفتوحات العربية. وفي اليوم الرابع من وصول فرديناند أخفى العطَّار عدداً من جنوده على جانبَي الطريق وعبَرَ الجسر إلى حيث يعسكِر الجنود الإسبان فناوشهم ثم تظاهر بالهرب، واندفع وراءه الإسبان بأعداد كبيرة، ولمَّا ابتعدوا كثيراً عن معسكرهم سمعوا صرخات تصدر من كل جانب، ورأوا المسلمين الذين كمنوا لهم خلف الصخور يندفعون نحوهم من كل صوب ويسدُّون عليهم الطريق من الخلف، وعندما أدرك الإسبان أنَّهم وقعوا في كمين استداروا ليعودوا إلى معسكرهم، فانقلب عليهم العطَّار بجنده ووقعوا في قبضة المسلمين من الأمام والخلف. وسقط كثير منهم ضحايا، ورجع العطَّار منتصراً.

مثلما أنَّ ثيمة الملك المستبد ونبوءة سقوط المملكة وحصول الفاتحين على الكنوز، الواردة في هذا الجزء من قصَّة فتح غرناطة، تتطابق مع ما سبق وروده في فتح الأندلس؛ فإنَّ حيلة الكمين التي استخدمها العطَّار تكرِّر حيلة موسى بن نُصير ضد القوط، بكل تفاصيلها. وبغضِّ النظر عن تبادُل الأدوار بين المسيحيين والمسلمين، فإنَّ الأحداث الأساسية في مجريات الفتحين تبقى هي نفسها، وتستمر قصَّة سقوط غرناطة في بقية مراحلها لتستعيد عدداً من عناصر قصَّة فتح الأندلس. وبالطبع، لن تظهر العناصر جميعها بما أنَّ فتح

14 المرجع نفسه، ص 35.

غرناطة لا تقوم به أُمَّة متحضِّرة ضد أُمة بربريَّة، كما في فتح الأندلس أو فتح المكسيك. فلم يكن ممكناً للإسبان أن يُصوِّروا الأندلسيِّين أصحاب عقلية أسطوريَّة يعتقدون بأُلوهيَّة الغزاة وأكلهم البشر، وغير ذلك من خرافات.

إن كانت هذه التماثلات بين قصَّتَي فتح غرناطة وفتح الأندلس قد استعصى على إرفنغ أن ينتبه إليها، رغم أنَّه كان الأكثر تأهيلاً بين المؤرِّخين الغربيين لأن يلاحظها؛ فإنَّ باحثين عرب لاحظوا أنَّ قصَّة فتح الأندلس تقتبس من قصص فتوحات سابقة لظهور الإسلام شهدها العرب، أبرزها غزو الحبشة لليمن. ولأنَّ تاريخ فتح الأندلس لم يُكتب إلا بعد حوالي مئة عام من حدوثه، اعتمد تدوينه على حكايات مختزَنة في ذاكرة الجماعات العربية التي لها تقاليد سردية تتناول تاريخ الفتوحات منذ زمن قديم، مثل شعوب جنوب شبه الجزيرة العربية.

يرى عددٌ من الباحثين العرب المعاصرين أنَّ غزو الأحباش لليمن بقيادة أبرهة يمثِّل لحظة تاريخية مؤثِّرة، لا في تاريخ اليمن وحدها بل في تاريخ شبه جزيرة العرب ككل. ويشير بعضهم إلى أهمية هذه اللحظة في التاريخ العربي، ودورها في تكوين هويَّة الشعوب العربية في الفترة القريبة من ظهور الإسلام. وهذا الرأي واضح لدى قدماء الكُتَّاب العرب، أمَّا المعاصرون منهم فكان من السبّاقين في الإشارة إليه عبده بدوي، الذي أوضح في كتابه "السُّود والحضارة العربية" الدور المهم الذي لعبه غزو الأحباش للجزيرة العربية في دفع العرب نحو بناء صورة جماعية عن ذاتٍ تعرَّضت لتحدِّيات واحدة فواجهتها بإرادة واحدة.

يرى بدوي أنَّ الغزو الحبشي دعمَ فكرة المصير الموحد التي صارت أساساً لإنشاء هويَّة واحدة للمجموعات العربية التي كانت موزَّعة الانتماءات قبل ذلك. ويبدو هذا الرأي معقولاً لأنَّ فكرة الأُمّة الواحدة تتطلَّب تصوُّراً عن

تقاسُم أعضائها زماناً مشتركاً ومكاناً واحداً، وخبرة تعايشٍ وثقافةٍ متوارثة. وتكمن أهميَّة المخيِّلة التاريخية للجماعة في أنَّها تختزن خبرة العيش المشترك في خطاب عن الماضي يلهم الجماعة تصوُّرها لذاتها، ويزوِّدها بتصوُّر عن مصيرٍ واحد ومستقبل واحد أيضاً.

من الذين أكَّدوا أهمية الغزو الحبشي في التاريخ العربي نادر كاظم، الذي أشار في دراسته لعلاقة الشعر العربي بالسرديَّات التي سبقت ظهور الإسلام إلى التطوُّر الذي طرأ على طريقة تعريف العرب لأنفسهم عقب اجتياح الأحباش بلادهم، وفي تطوير تصوُّرهم لذاتهم، إثنياً وتاريخياً وجغرافياً[15]. أما خالد زيادة فيرى أنَّ استمرار علاقة العرب بالأحباش حتى ظهور الإسلام، واستضافتهم لصحابة رسول الله، أضفت على الأحباش صورة أُمَّة مؤمنة فضَّلها المسلمون على العرب أصحاب العقيدة الوثنية، الذين اضطهدوهم[16].

رغم أهمية علاقة العرب بالأحباش بين فترة حكمهم لليمن والفترة التي أجارَ فيها ملك الحبشة مهاجري المسلمين في بداية الدعوة، لا بدَّ أنَّ وعي العرب بهُويَّتهم نشأ عن عناصر مركَّبة وليس فقط من هزيمتهم أمام الأحباش. فقد كان موقفهم من الفرس الذين انقلبوا عليهم عنصراً مُهمَّاً أيضاً، فبعد هزيمتهم للأحباش تحوَّلَ الفرس إلى محتلِّين لبلاد العرب، واستبدُّوا بهم. والراجح أنَّ رغبة التحرُّر من السيطرة الخارجية والخلاص من وضعية التقلُّب بين الغزاة استثارت إرادة التوحُّد لدى العرب، فالوعي الذاتي هو الذي يصنع المواقف من المؤثرات الخارجية[17].

---

15 نادر كاظم: **تمثيلات الآخر: صورة السود في المتخيَّل العربي الوسيط**، (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر،2004). ص 25.

16 خالد زيادة: **تطور النظرة الإسلامية إلى أوروبا**، (بيروت: معهد الإنماء العربي، 1983). ص 11.

17 بخلاف ما يرى الباحثون العرب الذين ذُكرت آراؤهم سابقاً، لم يكن التعرُّض للغزو الخارجي هو العنصر الوحيد الذي استدعى تبلوُر الهوية العربية. فإرادة مقاومة السيطرة الخارجية الحبشية والفارسية والرومية، هي التي زوَّدت المخيِّلة العربية بعناصر صدرت من الثقافة العربية صاغت وعياً جماعياً أتاح للعرب فهم اللحظة الفاصلة التي مروا بها، والتي استندت إلى خبرة محلية في الغزو والمقاومة والدفاع عن الذات عبَّرت عنها سردياتهم التاريخية الشفاهية التي سمّوها "أيام العرب".

إنَّ قصَّة انتصار الأحباش وتحالُف الزعيم اليمني سيف بن ذي يزن مع الفرس لطردِهم، تقارِن انتصار أبرهة في اليمن بفشله في غزو وسط الجزيرة العربية، التي كانت تسيطر عليها قبيلة قريش، وتسرد ما أصاب جيش الغزاة وموت قائدهم. وفي هذه الفترة من تاريخهم طوَّر العرب وعياً جماعيَّاً إيجابياً، فقد كتب الطبري:

"لمَّا ردَّ الله الحبشة عن مكة، فأصابهم ما أصابهم من النقمة، عظّمت العرب قريشاً، وقالوا: أهل الله، قاتل الله عنهم، فكفاهم مؤونة عدوهم"[18].

في الفترات التي سبقت حملة أبرهة كان وصول الحبشة إلى شبه جزيرة العرب يقف أثره عند بلاد اليمن فقط، أما بعد وصول أبرهة إلى مكة فقد تغيّر وعي العرب وبرزت عندهم فكرة النطاق الجغرافي الواحد والتاريخ الجامع بين القبائل العربية المختلفة، وارتبط ذلك بتحالفهم مع الفُرس. وفي تلك اللحظة، التي تداخلت فيها عوامل أخرى اقتصادية واجتماعية وسياسية، اتَّجهت المخيِّلة العربية الجماعية نحو منطقة وسط الجزيرة العربية والخليج وانفصلت عن منطقة البحر الأحمر، وبالتدريج بدأ العرب ينسبون أنفسهم إلى الفضاء الواقع إلى الشمال من أرضهم، وطوَّرت مخيِّلتهم هويَّة قرّبتهم من شعوبه[19]. من هنا نفهم كيف ساهم اليمنيون في إضفاء التماسك على العناصر السردية لقصَّة فتح الأندلس، بصبِّها في قالب سردي مستعار من قصة غزو الأحباش لأرضهم.

عند اليمنيين تردُ حكاية غزو الأحباش لأرضهم في سائر أنماط الأدب الشعبي، فبعضها يظهر في شعرهم الذي يروي قصص الممالك القديمة، وبعضها يظهر في قصص الأبطال الشعبيين، وتحديداً أرجوزة سيف بن ذي يزن التي كانت تُحكى في كثير من البلاد العربية حتى وقت قريب. وعند

---

18 الطبري: **تاريخ ...**، ج 2، ص 139.

19 لاحظ نادر كاظم أنَّ اللحظة التي دعا فيها الزعيم اليمني سيف بن ذي يزن الفُرس لنصرته ضد الأحباش مستنداً إلى الرابطة التي تجمع بين الشعوب البيضاء، تعبِّر عن تحوُّل نظرة العرب إلى أنفسهم. انظر: نادر كاظم: **تمثيلات...**، ص 22.

قدامى المؤرِّخين العرب تتَّضح أهمية الغزو الحبشي في أنَّ العرب اتَّخذوه لحظة يؤرِّخون بها للأحداث المهمَّة التي وقعت بعده. تحت عنوان "ذكر ابتداء التأريخ" كتب ابن حبيب، نقلاً عن الواقدي، أنَّ عمر بن الخطاب كان أول من كتب التاريخ بعد استشارته لعلي بن أبي طالب. يقول ابن حبيب:

"وذلك أنَّ العرب لم تكن تؤرِّخ التأريخ من قبل على أصلٍ معلوم، وإنَّما كانوا يؤرِّخون بالقحط والعامل يكون عليهم، حتى كان زمن الفيل، فأرّخوا بالفيل، ثم بعده ببنيان الكعبة، فلم تزل العرب على هذا حتى كان زمن عمر، فافتتح بلاد الأعاجم ودوَّن الدواوين، وجنَى الخراج، وأعطَى الأعطية"[20].

إنَّ اتِّخاذ العرب غزو أبرهة لبلادهم لحظةً فارقة يؤكِّد أهمِّية ذلك الحدث الذي استهلّ معرفتهم بالتأريخ، الذي تطوَّر فيما بعد إلى تدوينٍ سردي يستند إلى لحظة مرجعية متَّفق عليها. فجميع المصادر العربية تؤكِّد غزو الأحباش لجزيرة العرب، رغم اختلافها حول سنَتَه وأسماء قادة الطرفَين، اليمني والحبشي[21].

أمَّا كيف انتقل التراث التاريخي اليمني إلى الأندلس، فمن المعلوم أنَّ كثيراً من الذين دخلوا الأندلس كانوا من جزيرة العرب وانقسموا إلى عرب الشمال، وهم عدنانيُّون ومُضرِيُّون، وعرب الجنوب، وهم يمنيُّون[22]. وكان كثير من

---

20 ابن حبيب: **التاريخ...**، ص 109.

21 ذكر جواد علي أنَّ كتاب "الطبوغرافيا النصرانية" (Cosmas Indicopleutas) الذي كتبه صاحبه في وقت كان يترجِم فيه كتاب بطليموس لملك الحبشة، يقول إنَّ سبب غزو الأحباش بلاد العرب هو مهاجمة اليمنيين لتجار دولة الروم، التي كانت الحبشة حليفة لها. من جهتها، تذكر المصادر اليونانية أنَّ قائداً إثيوبياً اسمه (Elasbas)، وهو الذي يرد عند العرب باسم "أصبحة"، غزا اليمن في عهد حاكمها (Dunaas)، الذي تشير إليه القصَّة العربية باسم "ذو نواس. والنص الأكثر أهمية الذي يؤرِّخ لغزو الأحباش جزيرة العرب هو ما كتبه أبرهة على صخرةفي إثناء قيامه بترميم سد مأرب في العامين542-543م. ومعه نص آخر أشار فيه أبرهة إلى غزوه قبيلة معد في عام 535م، ويُعتقد أنَّه كان يقصد غزوه مكة، ففيه أطلق على نفسه لقب "ملك سبأ وذي رَيدان وحضرموت ويمنَتْ". ويذكر نقش أبرهة أنَّه عقب استيلائه على اليمن جاءته وفود الروم والفرس، وأنَّ الأحباش كانوا أكثر ميلاً إلى الروم، وهذا يفسر دعم الفرس لليمنيين، بعد الغزو، لاستعادة بلادهم. انظر:

جواد علي: **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام**، (بيروت: دار العلم للملايين، بغداد: مكتبة النهضة، 1980). ص 460-462.

22 سلمى الخضراء الجيوسي: **الحضارة...**، ص 65.

الشخصيات المؤثِّرة في التاريخ السياسي الأندلسي من اليمنيِّين، فالسمح بن مالك الخولاني كان من أوائل حكَّام الأندلس، ومنهم أيضاً ثعلبة بن سلامة الجذامي، وتلاه عليها أبو الخطَّار حسام بن ضرار الكلبي، الذي وصفه المؤرِّخون بأنَّه كان متعصِّباً ليمنيِّي الأندلس[23]. ومعظم الذين تكوَّن منهم جيش موسى بن نُصير في فتح الأندلس كانوا من اليمنيين[24]. وشكَّلوا قوة عسكرية كبيرة ومؤثِّرة، وكانوا أقوى المجموعات العربية التي قامت على حراسة الساحل، الذي سُمِّي "أرش اليمن"[25]. وفي تفصيل اليعقوبي لأصول سكان مدن الشام الذين هاجروا إلى الأندلس، بمن فيهم عرب الشمال، فهو يُرجِع أصول معظمهم إلى اليمن[26]. ويقول إنَّ أبا الخطَّار فرَّقهم في جميع مناطق الأندلس، فسكنوها ولم تخل منهم بقعة[27]. وعلى أساس هذا الانتشار الواسع للمجموعات اليمنية في الأندلس يُفهم كيف استطاع تراث سرديَّاتهم التاريخية أن يؤثِّر في الذاكرة الجماعيَّة للأندلسيين، ويصوغ الإطار العام لقصَّة فتحها.

يؤكِّد المؤرِّخ عبد الحليم عويس أنَّ اليمنيين سرَّبوا أخبار غزو الأحباش لليمن إلى قصَّة فتح الأندلس[28]. وبعض أوائل مؤرِّخي الفتح يذكرون بوضوح أنَّهم تلقَّوا قصَّته عن الحكايات الشفاهية المتداولة في الأندلس، وذلك بعد زمن

23 المقري: **نفح ...**، ص 237.

24 Lewis, Levering David: **God's ...**, p. 127.

25 استحق اليمنيون تلك المكانة لخبرتهم باستطلاع السواحل، وما عرفوا به من حسن إدارة المواجهات العسكرية في الحملات البحرية. ولا يقول ذلك المؤرِّخون المعاصرون وحدهم فقد سبقهم إليه القدامى، مثل ابن الرستة الذي يقول إنَّ أجناد الشام الذين التحقوا بالأندلس بعد فتحها كانوا يمنيين. انظر: ابن الرستة: **الأعلاق...**، ص107..

26 اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب): **البلدان**، (بيروت: دار صادر، د. ت.). ص 336 - 337.

27 يقول لسان الدين الخطيب إنَّ العرب الذين دخلوا الأندلس مع موسى بن نُصير، وكانوا يسمَّون "البلديين"، رفضوا نزول أصحاب الأصول اليمنية من الشاميين معهم، ولهذا السبب وزّعهم أبو الخطار على بقاع الأندلس. انظر:
لسان الدين الخطيب: **الإحاطة في اخبار غرناطة**، مج1، (مصر: دار المعارف د. ت.). ص 108.

28 لاحظ عويس أنَّ أسلوب السرد في النصوص العربية التي أرَّخت لفتح الأندلس، والذي يتميز بالطابع الأسطوري، يقارب ما يرد في القصص اليمنية القديمة المتوارثة في الأدب الشفاهي، خاصة قصَّة سيف بن ذي يزن. انظر: عبد الحليم عويس: **قضية...**، ص 21 - 32.

طويل من وقوع الغزو ووفاة الذين عاشوا أحداثه. فقد ذكر المؤرِّخ الأندلسي أبو بكر بن القوطية أنَّه نقلَ بعض ما دوّنه حول الفتح من أرجوزة صاغها تمَّام بن علقمة، إضافة إلى ما نقله عن ابن حبيب الذي كان أول مَن ضبط أجزاءً من أرجوزة تمَّام على هيئة الرواية التاريخية[29]. وكانت الأراجيز هي الشكل الأساسي لرواية التاريخ اليمني القديم، لأنَّها تضعه في قالب شِعري يسهل حفظه وتداوله بين أعضاء الجماعة.

وردت قصَّة غزو الأحباش لليمن لدى عدد من كبار المؤرِّخين العرب، أبرزهم الطبري والبلخي وابن خلدون. يقول مختَصر رواية الطبري، إنَّه قبيل ظهور الإسلام اغتصبَ حُكم اليمن ملكٌ ظالمٌ اسمه ذو نواس، كان يضطهد شعبه. وبتوجيه من حاكم الحبشة، غزا قائدٌ حبشي اسمه أبرهة اليمن لحماية المسيحيين من اضطهاد (ذو نواس) لهم. ولأنَّ الأحباش لم يملكوا سفناً، نقلهم قيصر الروم بسفنه إلى اليمن وتحالفت معهم مجموعات من المواطنين، فانتصر الغزاة[30]. ثم ثار خلاف بين أبرهة وملك الحبشة فبعث إليه الملك بحملة للقبض عليه، لكن أبرهة قضى على قائدها وضمَّ قواتها إلى جيشه واسترضى الملك بغنائم الفتح، فسامحه وأجازه حاكماً على اليمن[31]. ومن عناصر قصة غزو الأحباش لليمن، المماثِلة لعناصر قصَّة غزو الأندلس؛ نوع العنف المفرط الذي مارسه الغزاة الأحباش، وهي تظهر لدى معظم المؤرِّخين، فالبلخي يقول:

> **"وجاءت الحبشة واستولوا على اليمن ورئيسهم أبرهة الأشرم، فخرَّبوا المدن وقتلوا الرجال وسبوا النساء والولدان ولم يبعثوا إلى النجاشي بشيء من ذلك، فبعث النجاشي أرياط في جيش فقتل أبرهة أرياط، فازداد غضب النجاشي واستعطفه أبرهة واسترضاه، فعفا عنه"**[32].

---

29 انظر مقدِّمة المحقق لكتاب ابن القوطيَّة: **تاريخ...**، ص 21.

30 الطبري: **تاريخ...**، ج 2. ص 125-129.

31 البلخي (أبو زيد أحمد بن سهل): **البدء والتاريخ**، ج 3 (باريز: ارنست لرو، 1903). ص 182.

32 البلخي: **البدء ...**، ص 182.

تروي قصَّة غزو الأحباش لليمن فتحاً من مرحلتين: مرحلة أولى حبشية وأخرى فارسية، وهي تحتوي معظم عناصر قصَّة فتح الأندلس، بما في ذلك النبوءات التي تسبق وقوع الفتح[33]. فابن خلدون والطبري والبلخي وابن خرداذبه يوردون ما تداوله اليمنيون من أنَّ نصوصاً قديمة مكتوبة على باب مدينة ظفار، وهي مدينة أثرية باليمن، تنبَّأت بأنَّ الأحباش سيملكون اليمن ويليهم الفرس، وبعدهم يسود العرب[34]. وبالفعل، سارت الوقائع على ذلك النحو حسب القصَّة.

كما في فتح الأندلس، ارتبطت امرأة يمنية ذات مكانة اجتماعية رفيعة بقائد الأحباش، وكان لها ابن اسمه سيف، أنجبته من زعيم يمني اسمه ذي يزن. وعندما كبر سيف استعان بالفُرس لطرد الأحباش من وطنه. يتأكَّد التماثل بين قصَّتي غزو اليمن وغزو الأندلس في الفارق الكبير بين أعداد جنود الطرفين اللذَين يخوضان المواجهة. فالبلخي يقول إنَّ جيش الفُرس ضمَّ حفنة رجال لا تزيد عن ثمانمئة، واجهوا مئة ألفاً من الأحباش. عند نزوله ساحل اليمن حرق قائد الفُرس سفنه لقطع الطريق على من يطمع من جنوده في الرجوع، ثم خطب فيهم مخيِّراً إيَّاهم بين الموت والحياة، فحارب جنوده حتى انتصروا، يقول مؤرِّخ:

> **"... خرج وهرُز إلى السفن التي جاء فيها فأحرقها ودعا بكل نادٍ كان مع القوم وجمعهم، وقال: كُلوا. ثم أمر بما فضل فأُلقِي في البحر وعمد إلى فراشهم ورحالهم كلّها فأحرقها. ثم قام فيهم خطيباً فقال: أما ما أحرقت من سفنكم إلّا وأردت أن أُعلِمكم أنَّ لا سبيل إلى بلادكم، فإن أطاق أحدكم أن يركب البحر بلا مركب فليعبر [...] وحضّهم على الموت"**[35].

ارتفعت هِمَّة جيش الفرس وقويت رغبتهم في تحقيق النصر، ودارت معركةٌ قتل فيها قائد الفُرس ملك اليمن الحبشي بعد أن عرفه بزينته المَلَكيَّة، حيث

33 ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمَّد بن محمد، 808هـ): **ديوان المبتدأ والخبر**، ج2، تحقيق: خليل شحادة (بيروت: دار الفكر، 1988). ص 67-74.

34 ابن خرداذبه (أبي القاسم عبيد الله بن عبد الله): **المسالك والممالك**، (بيروت: دار صادر بيروت، 1989). ص 145.

35 المرجع السابق، ص 191.

ظهر في ساحة المعركة وعليه تاج به جوهرة كبيرة حمراء، جعلت مظهره مميَّزاً بين بقيَّة الجيش.

إنَّ التماثُل الواضح لقصَّة غزو الأحباش لليمن مع قصَّة فتح الأندلس لا يعني أنَّ التراث اليمني هو المصدر الوحيد للقصَّة، فكما هو الحال مع فتح أميركا يمكن رد قصَّة فتح اليمن نفسها إلى تقاليد سرديَّة مبكِّرة سبقت الغزو، تتَّصل بتراثات مناطق وشعوب أخرى. فالعنصر السردي الأول، وهو نُذُر الشؤم التي تسبق وصول الغزاة، يظهر في تراث اليهود الذين سكنوا شبه جزيرة العرب قبل خمسمئة عام تقريباً من غزو اليمن[36]. والراجح أنَّ عناصر قصَّة غزو الأحباش لليمن مثلها مثل قصص الفتوحات الأوروبية التي تضمُّ بجانب المكوِّنات العربية عناصر من تاريخ الرومان، فالنصوص العربية تمزج بين التقاليد التاريخية للشعوب التي تداخلت في لحظة غزو اليمن، فمنها تقاليد يمنية وفارسية وحبشية.

إنَّ قصَّة غزو جزيرة العربية تساعد في فهم بعض الأحداث الغامضة في قصَّة فتح الأندلس وما يوازيها من أحداث في فتح المكسيك، مثل علامات الشؤم التي تهبط من السماء في صورة أجسام حارقة. فهزيمة الغزاة الأحباش تأتي من السماء بأن تهبط حجارة حارقة تقتل كلَّ من تصيبه من الغزاة وحاكمهم أبرهة، ويحدث ذلك في المكان المقدَّس لدى العرب، وهو الكعبة. وهذا يطابق تماماً وظيفة الحجارة والشُهب المشتعلة التي تهبط من السماء في قصَّتَي فتح الأندلس وفتح المكسيك، والتي تظهر في الأماكن المقدَّسة بوصفها رسالة من الربّ تنذر بموت الحاكم الظالم.

ملخَّص ما سبق، أنَّ المؤرِّخين العرب انتبهوا إلى الطابع التكراري لرواية فتح الأندلس مثلما لاحظها مؤرِّخون غربيون أيضاً، إلّا أنَّ الفرق بين الطرفين يكمن في أنَّ المؤرِّخين الغربيين لم يلاحظوا الطابع التكراري لقصص الفتوحات

36 انظر: يوسيفوس اليهودي: **تاريخ اليهود** (القاهرة: شركة الطباعة المصرية، 2006). ص 142.

الأوروبية الحديثة، وأنَّها تفعل فِعل النصوص العربية. وبينما توصَّل المؤرِّخون العرب إلى مصدر قصَّة فتح الأندلس، تجاهل المؤرِّخون الغربيون البحث عن المصادر الأندلسية لقصَّة فتح أميركا. ومع أنَّ نصوص الفتوحات الأوروبية تستعير عناصر الخطاب العربي الذي يدينه المؤرِّخون الغربيون بأنَّه يكتفي باستعادة الخرافات، فإنَّ معظمهم يرون أنَّ الخطاب التاريخي الغربي يقدِّم معرفة أكثر صحَّة من المعرفة العربية، وإنَّه يتَّصف بالموضوعية.

مؤخَّراً، بدأ بعض المفكِّرين الغربيين يدركون أنَّ فكرة نقاء التاريخ الأوروبي ذات طابع مصطنع. فقد طالب المؤرِّخ إريك وولف بإعادة النظر في تفاسير نشأة العصر الحديث القائمة على المركزية الأوروبية، وأوضح ضرورة نقد تاريخ الغرب القائم على اعتقاد عميق بوجود استمرارية داخلية، فكتب في هذا المعنى:

"تعلَّمنا في فصول الدراسة وخارجها أنَّه يوجد كيان اسمه الغرب، وأنَّه يمكن للإنسان أن يفكِّر في هذا الغرب بوصفه مجتمعاً وحضارة باستقلال عن، وبالتضاد مع المجتمعات والحضارات الأخرى. حتى إنَّ كثيرين منَّا نشأوا وهم يصدِّقون أنَّ لهذا الغرب أصولاً تطوَّر عنها، فاليونان القديمة أنجبت روما، وولدت روما أوروبا المسيحية، ثم أنجبت أوروبا المسيحية النهضة التي أنجبت بدورها التنوير، وأنتج التنوير الديمقراطية السياسية والثورة الصناعية. وعند تقاطع الديمقراطية مع الصناعة وُلدت الولايات المتَّحدة، حاملةً حقّ الحياة والحرية والسعي لتحصيل السعادة"[37].

يعلِّق وولف على هذا التصوُّر حول ماضي وحاضر الغرب، الذي يعتمد على فكرة تتابع التحولات الثورية من عصر النهضة إلى الثورة الصناعية، فيضيف:

"إنَّ مخطّطاً تطوُّرياً كهذا مُضلِّلٌ؛ لأنَّه في المقام الأول يحيل التاريخ إلى حكاية نجاح أخلاقي مستمر، سباق زمني يقوم فيه كل متسابق بتسليم

37 Wolf, Eric R. : *Europe and the People without History,* (Berkley: University of California Press , 1982). P.5.

شعلة الحرية إلى من يليه. وبهذه الطريقة يُحوَّل التاريخ إلى حكاية عن الفضائل، [تحكي] كيف ينتصر الخيِّرون على حساب السيئين [...] وإن كان التاريخ هو تحقيق غاية أخلاقية في الزمن، فإنَّ من يدّعون أنَّهم يرومون تلك الغاية يصبحون هم الفاعل التاريخي"[38].

يرى وولف أنَّ ذلك المسار الذي تصوِّره سرديات التاريخ الأوروبي كتقدُّم خطِّي يبدأ من اليونان وينتهي إلى الولايات المتحدة بوصفها تحقُّقاً أسمى للمثال الغربي، يتحوَّل من سردية تاريخية إلى حكم أخلاقي يمجِّد ذلك المسار، فيصبح الخير هو ما تحقَّق في تاريخ الغرب وحده. وبدلاً من الحكم على ذلك المسار وتقييم لحظاته من خارجه، يصبح معيار التقييم هو الانضواء تحت ذلك المسار، فالخير كله هو الالتحاق به، والشر كله هو مخالفته. وهذا بالضبط ما يشكِّل أسطورة الحداثة، إذ تجعل من تجربة التقدُّم الأوروبية معياراً أخلاقياً للتقدُّم الإنساني في عمومه، استناداً إلى سرديَّات مصطنعة. ومن هنا تكتسب جهود فضِّ سرديات التاريخ الأوروبي الحديث أهميتها، بما أنَّها تنزع عن تاريخ العصر الحديث تمركزه حول التجربة الأوروبية، وبذلك تبطل السمة الإقصائية للحداثة.

يخلص هذا الفصل إلى أنَّ إهمال تماثل قصَّتَى الفتحَين، وبالتالي إهمال تأثُّر المعرفة الأوروبية بالمعرفة الأندلسية؛ إنَّما هو نتاج معقولات نظام المعرفة الغربية، وتصوُّراتها التي ترسم حدود ما يُمكن معرفته وما لا يُمكن معرفته، وتحدِّد المعايير التي تفصل بين ما هو علم وما هو خرافة. وتوصَّلَ هذا الفصل أيضاً إلى أنَّ المعرفة العربية في مجال تاريخ الفتوحات اتَّصفت بطابع نقدي أكثر ممَّا اتَّصفت به المعرفة الأوروبية، المسمَّاة حديثة، وذلك بسبب التسليم المسبق لدى المؤرِّخين الغربيين بانفصال تاريخ أوروبا عن تاريخ الشرق.

---

38 المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

إن كان القول باتِّصال المصادر السردية لتاريخ فتح أميركا بالتراث اليمني يبدو غريباً وغير مألوفٍ، فإنَّ المؤرِّخين الغربيين يردُّون مصادره إلى لحظة تاريخية أبعد من ذلك بكثير. من برنال دياز وغُمارا إلى غيبون وبرسكوت وصولاً إلى مؤرِّخين معاصرين؛ يردُّ الغربيون تقاليد الكتابة التاريخية إلى الإغريق والرومان، وبذلك يذهبون إلى لحظة موغلة في القدم تبعد عن غزو اليمن بأكثر من خمسمئة عام. وإن كان استناد المؤرِّخين الإسبان إلى المصادر اليمينة يثير الغرابة، فإنَّ الأغرب من ذلك أن تستمرَّ بقيَّة أمم أوروبا في استعارة القالب السردي لفتوحات أميركا فتأخذه من الإسبان وتوظِّفه في تدوين تواريخ فتوحات تصنع بها مكانة عظيمة لنفسها، كما فعل البريطانيون في غزوهم لجُزر جنوب المحيط الهادئ، وفي حملة نابليون على الشرق، وغزو محمَّد علي لإفريقيا.

إن كانت الدلالة الأساسيَّة لتكرار واستعادة قصَّة فتح الأندلس هي أنَّ كتابة الأوروبيين لتواريخ فتوحات أميركا لا تكشف عن الكيفية التي جرت بها الأحداث؛ فإنَّ فحص طبيعة ومقدار العنف الذي مُورس في ممالك أميركا يساهم، إلى حد كبير، في توضيح كيف تمكَّن الأوروبيون من السيطرة على شعوبها. ويرصد الفصل التالي نوع ممارسات العنف التي حسمت الصراع بين الإسبان وشعوب أميركا، وحقَّقت للغزاة سيطرة تصفها النصوص التاريخية الأوروبية بأنَّها (فتح).

ما وراء فتح أميركا: إباداتٌ ومقاومة

في الفترة من القرن السادس عشر الميلادي إلى القرن الثامن عشر، صارت الأميركتان ساحة صراع بين مختلف أمم غرب أوروبا، فتناهَشَها الهولنديون والفرنسيون والبريطانيون، بالإضافة إلى البرتغاليين الذين كانوا قد استولوا مبكِّراً على البرازيل. وفي تلك الظروف أصبح تاريخ فتح ممالك أميركا موضوع صراع بين الغزاة، وحاولت كل أُمَّة كتابته بطريقة تمنحها شرعية الاستحواذ على أراضي أميركا، والحصول على مكانة رفيعة في تاريخ العالم الحديث. فصار موضوع التنافس هو إنتاج خطاب تاريخي يخدم مَهمَّة الاستيلاء على الأرض عن طريق تقديم قصَّة فتح تستثير ذاكرة فتح المكسيك. فأعاد الإسبان كتابة القصَّة لتواكب أوضاع الصراع التي شهدها القرنان السابع عشر والثامن عشر، وكان ذلك يعني ضرورة تحديث القصَّة لتوافق نوع المعرفة السائدة في تلك الفترة. كان التحوُّل الرئيسي هو أن صيغت القصَّة في إطار يصوِّر إسبانيا قوة عالمية معنية بنشر الحضارة لا بنشر المسيحية، كما كانت تقول النسخة الأولى من قصَّة فتح المسكيك.

شهد القرن الثامن عشر تحولاً واضحاً في نظرة الأوروبيين إلى الدولة والمجتمع والتاريخ، ارتفعت فيه مكانة العقل والعلم على حساب الدين والقومية، فأعيد تأسيس الفرق بين الأمم الأوروبية الغازية والشعوب التي جرى غزوها على أساس ذلك، فأُعِيدت كتابة التاريخ بفكرة أنَّ الأوروبيين أُممٌ متحضِّرة، وأنَّ

غيرهم من الشعوب بدائيُّون. وفي سياق هذا التحول، ومن أجل تحسين صورة الغزاة الإسبان الذين مارسوا أفعالاً همجية في أميركا، جرى التقليل من أحداث العنف الوحشي التي صاحبت الغزو، وازداد التركيز على تصويره ناتج تفوُّق حضاري يعبِّر عنه تفوق الرجال قليلي العدد الذين حقَّقوا الفتح.

عوداً إلى قصَّة فتح المكسيك، إذا تركنا جانباً عناصر القصَّة المطابقة لعناصر قصَّة فتح الأندلس، فلن يبقى إلا نوعان من الأحداث، لا يخدم أي منهما نجاح الفتح ولا يشكِّل خطوة نحو تحقُّقه. أولها الأعمال التي تنتهي بالفشل، مثل دخول الإسبان إلى العاصمة وخروجهم منها مهزومين، ومنها صناعتهم منجنيقاً فاشلاً في أداء مَهمَّته تحطَّم عند أول محاولة لاستخدامه، ومنها أيضاً أسر الملك موكتزوما واتِّخاذه رهينة، فيموت في أيديهم ولا يستطيعون استغلاله لتحقيق أي مكسب. والنوع الثاني من تلك الأعمال هي أفعال العنف الوحشي التي ارتكبها الإسبان. ففي معظم الأحوال كانت عمليات القتل والتعذيب والمذابح الجماعية تثير مقاومة، بعكس ما كان يرجوه الإسبان، فكان عنفهم الذي تزايد حتى بلغ مستوى الإبادات الجماعية، هو الذي محق قدرة شعوب أميركا على المقاومة. فالعنصر الوحيد الذي يمكن أنَّ يفسِّر نجاح الإسبان في السيطرة على تلك الشعوب، ليس ما ترويه النصوص الغربية حول شجاعتهم وتمتُّعهم بذكاء وإرادة نادرتين، وإنَّما ممارستهم لعنفٍ غاشمٍ بعزمٍ لا يلين.

لم تتعرَّض الفصول السابقة إلى أعمال العنف التي روتها نصوص الإسبان الذين عارضوا الفتح، مثل لاس كاساس ودوران، لأنَّ موضوع الكتاب هو فضّ أوهام المعرفة التاريخية الغربية حول عظمة الفتوحات التي تمَّت في العصر الحديث، والتي يُقال إنَّها أحداث حقيقية نتجت عن تفوُّق أوروبا الحضاري. وبعد أن اتَّضح أنَّ كثيراً من عناصر قصص تلك الفتوحات مستعارٌ من خطاب

الفتوحات العربية في العصر الوسيط، ينظر هذا الفصل في ما يبقى من تاريخ فتح أميركا بعد تنحية عناصر السرد المستعارة، حيث لن يبقى سوى العنف.

كثيرة هي أمثلة المجازر التي ارتكبها الإسبان ضد مواطني المكسيك، وأوَّلها تلك التي دبَّرها القائد بدرو الفارادو في مدينة مكسيكو. نقلاً عن ساهاجون، تقول رواية الأزتك إنَّه في صباح الاحتفال بأحد الأعياد نهض المكسيكيون مبتهجين، وبدأوا بتزيين تمثال الإله هويتزالبوتشيلي بكثير من الزينة الطقوسية؛ فرفعوا على إحدى يديه راية الدم، وربطوا إلى جنبه سكِّيناً من الورق طُلِيت بلون أحمر فبدت كأنَّها ملوَّثة بالدم، ووضعوا في يده درعاً وأربعة سهام. ويقول الراوي: ربما كان تمثال الإله المنتصب بكامل عدَّته الحربية هو الذي أثار رعب الإسبان، المتوجِّسين دوماً، فاعتقدوا أنَّ وقت الصدام قد حان وأنَّ عليهم الغدر بمحاربي المكسيك.

عند بدء الاحتفال وصل الراقصون وضاربو الطبول، وتجمع آلاف المكسيكيين العُزَّل من كل سلاح، وهم في أبهى زينة. وفي مقدِّمة الحفل جلس عدد كبير من أصحاب المكانة الرفيعة، المدعوين من أماكن بعيدة لمشاركة أهل المدينة احتفالهم. ودخل الساحة عدد كبير من محاربي المكسيك الشجعان بلا سلاح، وهم يلبسون زيَّ الراقصين، يحملون أزهاراً في أيديهم يلوِّحون بها للجماهير، وأجسادهم مزيَّنة بألوان زاهية.

في ذلك الجو الاحتفالي المليء بالبهجة، بدأ الإسبان تنفيذ خطَّة كانوا قد اتَّفقوا عليها دون أن يفطن المكسيكيون إلى ما يجري. ففي البداية اتَّجه الإسبان إلى أبواب ساحة المعبد، ووقفوا هناك لإغلاق المخارج، وانتشر البقية على أطراف الساحة. ولمَّا كان الإسبان يتحرَّكون دائماً في المدينة بكامل عتادهم الحربي، لم يشك المكسيكيون في سوء نيَّتهم. ومع بدء ضربات الطبول ودخول

الراقصين إلى الساحة، انطلقت صيحات الفرح والأغنيات في هدير "كأنَّه تكسُّر الأمواج على الصخور"، حسب وصف الراوي، عندئذ نزل الإسبان إلى الساحة وبدأوا عرضهم الوحيد الذي يتقنونه:

"ضربوا قارع الطبل وقطعوا يديه، ثم ضربوا عنقه فطار رأسه بعيداً، ثم بدأوا طعن الجميع في البطون بالرماح، فكانت أحشاؤهم تندلق خارج بطونهم. وضربوهم بالسيوف فكانت الجماجم تتهشَّم وتتناثر قطعاً قطعاً، وضربوا بين الأكتاف فكان الجسد ينفتق لتوِّه ....، وانتشرت في الساحة رائحة نتنة كرائحة الكبريت. وكان كلٌّ من حاول النجاة قد لقي طعنة أو ضربة... فتظاهر بعضهم بالموت، وكان الإسبان إذا وجدوا بين الموتى من يتنفَّس طعنوه، حتى جرت دماء المحاربين الذين كانوا يرقصون مثل الماء، وصارت الأرض زلقة من الدماء وتصاعدت رائحتها..."[1].

أمَّا المؤرِّخ دوران، وهو كان من القليلين الذين وقفوا ضد ممارسة العنف في أميركا، فكتب عن الحادثة معتمداً على روايات المواطنين:

"بعد أن فضَّ الإسبان تجمُّع المكسيكيين وتوجَّهوا إلى المعبد لمواصلة المذبحة، بدت ساحة الرقص خلفهم ملأى بالأحشاء الممزَّقة [...]. وكان بعضهم يتحرَّكون بأحشاء مندلقة نتيجة طعن الرماح وبقر البطون بالسكاكين، حقاً كان ذلك شيئاً مرعباً. وكانت أكثر اللحظات إثارة للأسى، عندما تشقُّ الفضاء الصرخات المرعبة وعويل الضحايا، دون أن يغيثهم أحد"[2].

كتب دوران وصف بؤس مدينة مكسيكو وسوء حال سكَّانها بعد نهاية المجزرة:

"صارت كل المدينة نتنة، وكان نواح الأطفال والنساء المخيف يتردَّد صداه في الجبال المحيطة بما يكفي لجعل الحجارة تتفتَّت من الألم والأسى. لقد

1 Lochart, James: *We* …, p. 136.

2 Duran, Diego; *History*…, p. 357.

تم تمزيق ما بين ثمانية إلى عشرة آلاف من نبلاء مدينة مكسيكو وجرى تحويلهم إلى أشلاء في ساحة المعبد، دون أن يفعلوا شيئاً يستحقُّون عليه هذا المصير، إلا أن يكونوا عوقبوا على تنازلهم عن ممتلكاتهم لإشباع نهم الإسبان وإرواء عطشهم"[3].

لم تكن تلك هي المرَّة الأولى التي يغدر فيها الإسبان بمواطنين غير مسلَّحين، اعتقاداً منهم بأنَّهم قد يبادرون بالهجوم. فقد كتب دوران بخصوص الفترة التي سبقت وصول كورتس إلى مدينة مكسيكو:

"لقد ارتُكِب كثير من أفعال البربرية في الطريق إلى مدينة مكسيكو [...]. فهناك في ساحة المعبد، حيث كان كورتس مقيماً؛ قُتِل عددٌ من الرجال الذين جاءوا للترحيب بالإسبان وهم يحملون لهم الماء وأخشاب الطبخ والتدفئة وحشيش الخيل، إلى جانب مؤن أُخرى. فقد اعتقد كورتس أنَّهم متآمرون جاءوا للإضرار به لأنَّهم كانوا كثيري العدد، فارتكب في حقهم مذبحة لم تبقِ على أحدٍ منهم"[4].

نجد لدى لاس كاساس تفاصيل حول هذه المذبحة أكثر ممّا أورده دوران، فهو يقول إنَّ الإسبان سألوا الزعيم أن يطلب من قادة الأقاليم التابعة له الحضور لإجراء محادثات معهم، وعندما تجمَّعوا داخل بناء خُصِّص للاجتماع أُسِروا جميعاً دون علم أتباعهم المنتظرين بالخارج. وكان كورتس قد طلب أن يحضر مع كل زعيم خمسة أو ستة آلاف من مواطنيه لمساعدة الإسبان في نقل عتادهم ومؤنهم، ويقول لاس كاساس:

"حينما استقرَّت جموع الحمّالين كلها في الساحة العامة خارج المبنى، خرج إليهم الإسبان وقد شهروا سيوفهم ورفعوا رماحهم وبدأت مذبحة ضد أولئك الأبرياء المساكين، لم ينج منها أحد. وحتَّى بعد يومين، حينما خرج بعض

---

3 المرجع السابق، الصفحة السابقة.

4 المرجع نفسه، ص 528.

الجرحى الذين كانوا قد سقطوا تحت جموع الموتى وعجزوا عن الحركة تحت سجَّادة الجثث التي غطَّت الساحة؛ فخرجوا حبواً تغمرهم دماء رفاقهم من رؤوسهم حتى الأقدام وهم يترجُّون الإسبان الإبقاء على حياتهم، وعيونهم ملأى بالدموع؛ وحينها لم يُظهِر الإسبان رحمة بهم أو عطفاً عليهم، فتعرَّضوا جميعاً إلى مجزرة ثانية"[5].

تمضي شهادة لاس كاساس لتوضِّح أنَّ أحد الزعماء الشجعان تمكَّن من تحرير نفسه ومعه حوالي عشرين أو ثلاثين آخرين، ولجأوا إلى غرفة معبد المدينة الكبير ودافعوا عن أنفسهم طوال اليوم، لكن الإسبان أشعلوا النار في المعبد فحرقوهم بداخله وهم أحياء[6]. وهذه المذبحة لم يوثِّقها لاس كاساس وحده، فقد أكَّد وقوعها أندريس طابية (Andres de Tapia 1498–1561)، الذي كان جندياً تحت كورتس [7]. أمَّا نصّ (المدوَّنة الفلورنسيَّة) الذي جمعه برناردينو ساهاجون من رواة محليِّين، فيؤكِّد أيضاً إنَّ الإسبان غدروا بأهل المدينة[8].

لقد صرَّح كورتس نفسه بأنَّه قتل آلاف الأطفال والنساء العُزَّل عندما حاصر مدينة مكسيكو. فقد وصَف لملك إسبانيا هجومه على المدنيِّين والعائلات في رسالة قال فيها بنبرة المنتصر: "في ذلك اليوم قُتل منهم أكثر من ستة آلاف، رجالاً ونساءً وأطفالاً"[9]. وإن كانت رسائل الفاتحين إلى الملك قد تضمَّنت توثيقاً لجرائم كهذه، فمن الطبيعي أن تحتوي الوثائق الملكيّة كثيراً من الأخبار حول أعمال العنف الوحشي، فقد ذكر بيتر مارتير مؤرِّخ البلاط الإسباني، ضمن

5 Las Casas, Bartolome; *A short* ..., p. 45-46.

6 المرجع السابق، الصفحتان السابقتان.

7 كان طابية داعماً لكورتس في كل مواقفه، وقد عينه كورتس على مدينة تشلولا ليتلقى دخلها ويديرها. انظر مادة (Andres de Tapia)، في:

Seaman, Rebecca M.; *Conflict* ..., P. 362.

8 Schwartz, Stuart (ed.): Victors…, P. 21.

9 Cortés, p. 175.

ما ذكر عن الأحداث التي لازمت حملة القائد الإسباني فاسكو نونيز بالبوا (Vasco Nunez de Balboa)، والتي لعب فيها استخدام الإسبان للكلاب دوراً مُهمَّاً؛ ذكر أنَّه: "في مرَّة واحدة ذُبح ستمئة مواطن بجانب زعيمهم، كأنَّهم حيوانات حقيرة ...، وأمر فاسكو أن تُمزِّق الكلاب أربعين منهم"[10].

لقد أوردت وثائق إسبانية كثيرة حقائق مروِّعة حول الطرق التي استخدم بها الإسبان الكلاب ضد مواطني أميركا. وقد دافع فارغاس ماتشوكا عن استخدام الكلاب الجائعة لأنَّ لاس كاساس أورد قصصاً مثيرة للرعب حول تلك الطريقة في أسر المواطنين بغرض إخضاعهم للعمل الشاق. من تلك القصص ما رواه لاس كاساس عن المصير الذي لقيته واحدة من المواطنات عندما شنَّ الإسبان واحدة من حملاتهم، حيث كتب:

> **"قرَّرت امرأة عجزت عن الهرب أن لا تسمح للكلاب بتمزيقها كما فعلت بجيرانها. فأخذت حبلاً، بعد أن ربطت طفلها الذي يبلغ عاماً واحداً على قدمها، وعلَّقت الحبل على عمود مرتفع وشنقت نفسها. لكن ذلك لم يمنع الكلاب من تمزيق طفلها إرباً، رغم أنَّ قسِّيساً وصل وقام بتعميد الطفل قبل موته"**[11].

بالإضافة إلى ما تسرَّب إلى نصوص الفاتحين من قصص وردت بطريقة عارضة حول المذابح التي قاموا بها؛ فإنَّ ما ورد في نصوص مواطني أميركا، على قِلَّته، يتضمَّن توثيقاً لحوادث كثيرة. فبعض النصوص المكتوبة باللغات المحلِّية أوردت أعمالاً لا تقلُّ فظاعة عمَّا وثَّقه لاس كاساس. منها ما جاء في مدوَّنات شعب تلاتلولكو (Tlatelolco)، الذي يقطن منطقة طرفيَّة في مملكة المكسيك، وذلك حينما نزل الإسبان بجوارهم عند وصولهم أرض المملكة.

10 Todorov, Tzvetan; *The Conquest* …, P. 141.

11 Las Casas, Bartolome; *A short* …, p. 74.

في وثيقة كتبت بلغة الناهواتل في سنة 1528م، يرِد وصف لضعف الإسبان عند بلوغهم أرض تلك القبائل، بسبب طول المسافات التي قطعوها. وعن حسن الضيافة التي تلقَّاها الإسبان، كتب زعماء القبائل:

"في البداية تلقَّيناهم بسعادة بالغة، لقد عانقناهم، ورحَّبنا بهم بكثير من الدموع. ورغم أنَّنا لم نكن على معرفة بهم، ولم يعرفهم لا آباؤنا ولا أجدادنا، إلا أنَّنا تآلفنا معهم برحمة من الربِّ. وبما أنَّهم صاروا جيراننا فقد أحببناهم، ولم نَعتدِ عليهم أبداً. لقد أطعمناهم وخدمناهم بحقّ، فقد وصل بعضهم في حالة إعياء، فحملناهم في أيدينا وعلى ظهورنا، وخدمناهم بطرق كثيرة لا يمكن أن نحكيها هنا"[12].

حسب الوثيقة، فإنَّ الإسبان بمجرَّد تعافيهم من مشقَّة الطريق بمساعدة أهل المنطقة، بدأوا يشنُّون الحرب على جيران مضيفيهم. وحتى في هذه الأفعال المشينة آزرهم الزعماء باعتبارهم جيراناً وضيوفاً تجب نصرتهم، لكن ردَّاً على هذا الجميل انقلب الإسبان، بعون كلابهم المتوحِّشة، على مضيفيهم أنفسهم وأسروا بعض الزعماء والحكماء وشنقوهم"[13]. وتُختَم الوثيقة، التي هي في الأصل خطاب وجَّهه زعماء القبيلة إلى ملك إسبانيا، برجاء مؤثِّر بأن يُرفَع عنهم الخراج الجائر الذي يجمعه الحاكم الإسباني ويرسله إلى الملك، وكان مقداره أربعة عشر ألفاً وثمانمئة من العملة الإسبانية، بالإضافة إلى كل محصولهم السنوي من الحبوب التي يعيشون عليها.

هكذا انتهى الحال بشعوب أميركا التي أجارت الإسبان في أرضها، إحياءً لتقاليد الضيافة ونُصرة الغريب، وقد تكرَّرت اعتداءات الأوروبيين ضد مضيفيهم من المواطنين على مدى زمني طويل بعد ذلك. وحدث ذلك في مناطق مختلفة بالأميركتَين، وليس في المناطق التي غزاها الإسبان فقط، ومنه

12 Leon- Portilla, Miguel; *The Broken*…, p. 156.

13 المرجع السابق، ص 144.

ما فعله الإنجليز والهولنديون في أميركا الشمالية، وساهم فيه، إلى جانب رجال السياسة والمثقَّفين، رجال الدين أيضاً[14].

لم يقف إيذاء الإسبان للمواطنين عند التعذيب الجسدي والقتل، فبلغ الأذى النفسي أيضاً حدوداً بعيدة. فمنه أنَّهم كانوا يأخذون من تستهويهم من زوجات وبنات المواطنين بالقوة ويتَّخذونهن للمتعة والخدمة، وصار ذلك سلوكاً إسبانياً معروفاً في معظم بلاد أميركا، ففي غواتيمالا سمح الفارادو لرجاله بالتصرُّف في أعراض المواطنين:

> **"لقد سمح لجنوده بإذلال الرجال عن طريق الاستيلاء على نسائهم وبناتهم، وأجاز لجنوده وبحَّارته حملهنَّ على سفنهم التي شحنوها بالمواطنين إلى سقفها، لكن جشعه كان سبباً في موتهم جميعاً جوعاً وعطشاً"**[15].

بهذا النوع من الفظائع، وبجهود الغزاة الذين تدفَّقوا في موجات متتابعة على مدى زمني طويل تحفِّزهم قصصٌ حول فتوحات ناجحة وحكم مستتب؛ تمكَّن الإسبان من السيطرة على بلاد أميركا، ولم يكن ذلك نتيجة فتح تحقَّق بمواجهة عسكرية حاسمة كما تدَّعي قصص الفتوح، فقد استمرَّت مقاومة المواطنين للغزاة زمناً طويلاً.

في كل ما كتبه، ظل لاس كاساس يؤكِّد أنَّ ما حدث في المكسيك لم يكن فتحاً، وإنَّما كان سلسلة مذابح استمرَّت خمس وعشرين سنة، بدأت في 1518م وانتهت في 1542م، وهي الفترة التي كتب فيها لاس كاساس كتابه حول الإبادات التي مورست في أميركا. وما توصَّلت إليه الفصول السابقة من أنَّ

14 للاطلاع على صورة واضحة حول عنف الإنجليز في مختلف مناطق أميركا الشمالية، خاصة في خليج ماساتشوستس، انظر:

Jennings, Francis: T*he Invasion of America, Indians, Colonialism, and the cant of Conquest,* (United States of America: The University of North Carolina Press, 1997).

15 Las Casas, Bartolome; *A short* …, p. 63.

قصَّة فتح المكسيك تستعير عناصر قصَّة فتح الأندلس يؤكِّد، بأدلَّة مستخرجة من النصوص الإسبانية، صواب وجهة نظر لاس كاساس حول زيف قصَّة الفتح.

يقول لاس كاساس إنَّ العنف في بدايته تواصل في المكسيك حوالي اثني عشر عاماً، فبدأ مع وصول الإسبان ثم انخفض قليلاً بين سنتي 1530 و1533، لأنَّ كثيرين من الغزاة توجَّهوا إلى بيرو التي كان الإخوة بيزارو قد بدأوا غزوها، وانتشرت في المكسيك أخبار غناها بالذهب فيمَّم الغزاة شطرها، لكنهم لم يلبثوا أن عادوا بأعداد كبيرة إلى المكسيك يمارسون العنف ويخرِّبون[16]. ويقدِّر لاس كاساس أعداد الضحايا في تلك الفترة بأكثر من أربعة ملايين قتيل في المكسيك وحدها، وأعداداً مماثلة في بلادٍ مجاورة، فيقول إنَّ فنزويلا أيضاً قُتل فيها أربعة ملايين مواطن. وبغض النظر عن مدى دقّة تقديرات لاس كاساس، فإنَّ تزايد وتيرة العنف واتساع نطاق ممارسته يوضِّحان أنَّ سيطرة الإسبان على ممالك أميركا كانت تأتي بعد ذيوع خبر فتحها، لأنَّ قصَّة الفتح كانت تجذب موجات من الغزاة والراغبين في الثروة. والشيء الذي يؤكِّد ذلك هو ارتباط انخفاض العنف في المكسيك بالفترة التي راج فيها خبر فتح بيرو، ثم ارتفاعه بعد ذلك بسبب عودة الغزاة الذين كانوا قد توجهوا إليها، ما يدلُّ على أنَّهم لم يجدوا في بيرو ما أشاعته قصَّة فتحها.

كان اصطناع خبر الفتح جزءاً من عملية إنجاحه، فاجتهد المؤرِّخون في صنع صورة فتوحات عظيمة لكثير من بلاد أميركا، وصارت كتابة قصص الفتوحات عملاً مكمّلاً لتسويق فرص العمل والكسب في ما سمَّاه الأوروبيون "العالم الجديد". وكان لا بدَّ لكل فاتح يريد الترويج لنفسه أن يتَّخذ من أحد المؤرِّخين أو المثقَّفين سكرتيراً، ليصنع له ولفتوحاته صورة عظيمة.

---

16 المرجع السابق، ص 43.

لنستكمل صورة ما جرى في أميركا، يجب أن نفهم الطريقة التي ردّ بها المواطنون على العنف الذي مورس ضدهم، أي كيف قاوموه. وبطبيعة الحال كانوا قد بذلوا كل مقاومة ممكنة، لكن من الطبيعي أن ينتصر الطرف الذي يتَّخذ العنف خياراً وحيداً ونهائياً، ويضع حياته موضع خطر ليحصل على ما يريد، بينما يخسر الطرف الذي يقع عليه واجب الحفاظ على مجتمعه. في مقابل الأساليب الوحشيَّة التي اتَّبعها الإسبان كان على المكسيكيين في البداية مضاعفة الجهد لتعويض الأعداد الكبيرة من القتلى، وسدُّ النقص الناتج عن نزف الأرواح الذي فُرِض عليهم. ولأنَّه كان يلزمهم الاستمرار في واجبات بناء المجتمع وإعادة إنتاجه؛ كان لا بدَّ من المحافظة على نظام الأسر الممتدَّة واستقرارها، لأنَّ اعتماد المكسيكيين على الزراعة تطلَّب منهم العيش قرب الحقول وتضامُن أكبر عدد من أعضاء الأُسَر في العمل.

ليستمرَّ توفُّر الغذاء، كان ضرورياً أن يوجد عدد كافٍ من المزارعين. وصار القيام بهذه الواجبات، إلى جانب مهام تربية الأطفال ورعاية كبار السنِّ وبناء المساكن وغيرها من الضرورات اليومية، مستحيلاً في ظروف التعرُّض لعنف الغزاة، وتفاقم الحروب المتَّصِلة التي وجد المواطنون أنفسهم أمامها. فكانت حماية المجتمع هي نقطة الضعف الأساسية لمحاربي أميركا في مواجهة الإسبان المتفرِّغين لممارسة العنف، والذين شكَّلوا مجتمع محاربين ليس له مسؤوليات مجتمعية، مَهمَّته الأساسية ممارسة الدمار، بخلاف المواطنين الذين وقعت عليهم مسؤولية الإنتاج والبناء. كان ذلك هو الفرق الأساسي الذي رجَّح كفَّة الإسبان، وزوَّدهم بنَفَسٍ طويل في مشوار الصراع المستمر، وأتاح لهم في النهاية التفوُّق على مواطني أميركا.

اعتمدت استراتيجية الإسبان الهجوميَّة على تشتيت قوَّة المواطنين عن طريق تهديد حياة أُسَرِهم، والتدمير المباشر لمصادر الغذاء. وكان حرق البيوت

والحقول ونهب مخازن المحاصيل هي الخطوة التي يبدأ بها الإسبان حروبهم. فكانت جهود المواطنين تتشتَّت في عدَّة جبهات بغير نظام، وتتوزَّع بين الدفاع عن القرى، وتأمين الأطفال والنساء وكبار السن، وحراسة مخازن الغذاء، وحماية الحقول المزروعة. ولأنَّ تأمين حياة أفراد الأسرة كان يتطلَّب نقلهم إلى مناطق بعيدة ومرتفعات عالية يصعب على الغزاة تهديدهم فيها، كان الذهاب والإياب بين القرى وتلك المناطق شاقاً جداً على الرجال الذين كان عليهم أن يحاربوا أيضاً. وأمام هذه المصاعب كان الخيار الثاني هو الخضوع للغزاة الذين استمروا يكرِّرون عمليات النهب والحرق والتدمير الجنوني بين ليلة وأخرى. ومع ذلك استمر معظم المواطنين يقاومون.

وصَفَ لاس كاساس كيف تسبَّب عنف الإسبان في تحويل سياسة المهادنة التي اتَّبعها المواطنون في البداية إلى مقاومة عنيفة؛ فكتب موثِّقاً ممارسات أحد القادة الإسبان الذين أحسن المكسيكيون ضيافته:

> **" يُقال إنَّ هذا الرجل مسؤول بطريقة مباشرة عن نهب وتخريب ثمانمئة مدينة وقرية في مملكة جالسكو (Jalisco) وإنَّه بسبب معاملته القاسية انتهى المواطنون، الذين رأوا كل من حولهم يتلاشون تحت هيمنة الإسبان، إلى حافة اليأس، فهربوا نحو الجبال. وفي النهاية بدأوا يواجهونه بمقاومة منظَّمة، وقتلوا حفنة من رجاله وكان لهم حقّ في ذلك، كما هو الحال في كلِّ فعلٍ عادل"[17].**

استنبَقَ لاس كاساس قوله هذا بسرد نماذج من ممارسات ذلك القائد، منها أنه أراد أن يأخذ فتاة أعجبته ليُشبع شهوته، فمنعته أُمُّها وأمسكت بها، فما كان منه إلَّا أن جرَّد سيفه وقطع يد الأم، ولما قاومته الفتاة أيضاً طعنها فقتلها[18].

---

17 المرجع نفسه، ص 69.

18 المرجع نفسه، ص 68.

بعد وقت غير طويل، لاحظ المواطنون تزايُد أعداد الإسبان، فأدركوا أنَّ استمرارهم في الدفاع عن بلادهم يعني ضرورة أن يتفرَّغوا للحرب نهائياً، ويفقدوا مصادر الغذاء والقدرة على العناية بأسرهم. أمَّا الغزاة الإسبان، الذين كانوا يحاربون في شروط أفضل بكثير لأنَّ أُسرَهم في إسبانيا آمنة من كلِّ عنف، فلم يكونوا في حاجة إلى العمل لأنَّهم كانوا ينهبون قوت المواطنين ونتاج عملهم. وفي الحقيقة لم ينجح الأوروبيون في السيطرة على المواطنين لأنَّهم كانوا يمتلكون قدرات حربية متطوِّرة، أو لأنَّهم تفوَّقوا عليهم عقلياً كما يزعم المؤرِّخون الغربيون، بل لأنَّهم مارسوا عنفاً مدمِّراً على أكثر من جبهة، شملَ البشر والبيوت والمزارع. فمَن يُهاجَم في عقر داره وبين أهله يجد نفسه في وضع عسير، لأنَّه مهدَّدٌ من جميع النواحي. أمَّا مَن يحارِب في أرض غيره فيصعب تهديده لأنَّه ليس لديه الكثير ليخسره، سوى روحه التي قرَّر سلفاً أن يغامر بها.

هذا هو الشرط الذي أتاح، على مرِّ التاريخ، إخضاع الشعوب المتحضِّرة. فمكَّن الرومان قديماً من اجتياح بلاد الإغريق، وأتاح للقبائل الجرمانية اجتياح الإمبراطورية الرومانية، ومكَّن العرب من هزيمة الفُرس والروم، وهو الشرط نفسه الذي أتاح للأوروبيين في مستهلِّ العصر الحديث اجتياح أميركا وتدمير حضاراتها العريقة، المنضبطة باقتصاد يتحكَّم به نظام زراعي يعتمد على أساليب ري صناعي متقدِّم، وعمل جماعي منظَّم على مدار العام، لا يقبل إهمالاً أو فوضى.

أوضح ماتشوكا أنَّ الإسبان حين عجزوا عن هزيمة الأرواك، وهم شعب تشيلي، أمعنوا في حرق المحاصيل الزراعية لتشديد الضغط عليهم حتى يستسلموا، لكن الأرواك استمروا في المقاومة بإستراتيجية جديدة، فامتنعوا عن الزراعة لتحقيق غرضين: التفرُّغ للدفاع عن أسرهم وقراهم ضد الغزاة، وتجويع الإسبان الذين لا يعرفون كيف يجدون الغذاء. فهجر بعض الأرواك قراهم

واستمرُّوا يعيشون مع أُسرِهم لفترة عامين على نبش الجذور وجمع الثمار البرِّية، وهي خبرة تتطلَّب نوع ثقافة غذائية لم يعرفها الإسبان، وتميَّزت بها شعوب أميركا.

مع مرور الزمن بدأ الإسبان الجوعى يتناقلون ويتبادلون ما يتجمَّع لديهم من معرفة بكيفيَّة الحصول على الغذاء البرِّي. وفي هذا الوقت بدأت المجاعة تنتشر بين الأرواك الذين أهملوا حقولهم وتفَّشى بينهم المرض وكثُر موت أطفالهم، فأدركوا أنَّ المقاومة عن طريق الامتناع عن زراعة المحاصيل الغذائية تضرُّ بهم قبل أعدائهم بسبب ضغوط الحياة الأُسريَّة التي يعيشونها، بينما كان بوسع الإسبان الصبر على الظروف القاسية لعدم وجود مسؤوليات اجتماعية لديهم. وأخيراً، لكي يتمكَّن مواطنو تشيلي من حفظ حياة أطفالهم ونسائهم وكبار السنِّ من أهلهم، يقول ماتشوكا إنَّهم "قبِلوا أن يحرثوا ويزرعوا الأرض مرة أخرى بحيث يستطيع الجميع أن يأكلوا ويتحاربوا. وبعد أن كانوا يزرعون مساحة معيَّنة صار عليهم زراعة مثليها، واحدة لهم والأخرى لجنودنا"[19]، ويخاطب ماتشوكا قرّاءه الأوروبيين، مفتخراً بنتائج ممارسات الإسبان، فيقول:

> **"منذ بداية الزمن لم يُرَ أو يُسمع بشيء كهذا: أن تُلزم أمة نفسها بزراعة المحاصيل للعدو الذي يحاربونه طوال وقتهم. فقد نقل الأرواك إلى الإسبان أنَّهم لا يريدون أن ينقص الغذاء مهما كان نوعه، وأنَّ الطرفين سيحصلان عليه ويتحاربان إلى أن ينتصر أحدهما على الآخر"**[20].

هذا الشرط الاضطراري الذي أتاح للأرواك الحفاظ على محاصيلهم وإطعام من يعولونهم، مكّنهم من إخراج المحاصيل من دائرة الصراع، ولم يعد الغذاء يشكِّل عنصر ضغط عليهم، فانحسرت المجاعة والأمراض، واستعادوا قدرتهم على محاربة الإسبان. ويتابع ما تشوكا:

---

19 Lane, Kris (ed.): *Defending* ..., p. 134.

20 المرجع السابق، الصفحة السابقة.

"لقد زوَّدهم هذا الوضع بشجاعة وقوَّة كبيرتين بحيث أنَّنا بدأنا نشكّ في قُرب إخضاع هذه الأقاليم، ولكن في النهاية، ولمّا كانت الأيَّام تهيِّئ لنا وسائل جديدة، وكان جانبهم يزداد ضعفاً، بدأ خضوعهم يتحقَّق"[21].

بعد أن شاع خبر فتح المكسيك الغنية، ازداد تدفُّق الإسبان إلى أميركا، واتَّسع نطاق ممارستهم للعنف والتدمير، وتيقَّنت شعوبها من فشل سياسة التوفيق بين واجبات الحرب والزراعة، لأنَّ الإسبان كانوا المستفيد الأول من تلك الوضعية. وبعدها انتقلت المقاومة إلى مرحلة جديدة اتَّبع فيها المواطنون أسلوباً دفاعيَّاً محضاً، دفعوا به ثمناً غالياً هو تفكيك نظامهم الحضاري ومجتمعاتهم. فصاروا بمجرَّد اقتراب الإسبان من منطقتهم ينقلون الأطفال والنساء وكبار السن إلى المناطق الوعرة في أعالي الجبال، ويحرقون محاصيلهم بأنفسهم ويدمِّرون منازلهم لإثارة اليأس لدى الإسبان من إمكانية الحصول على الغذاء، لأنَّهم أدركوا أن اقتسام الغذاء مع الغزاة يعينهم على شنِّ مزيد من الحرب. وشيئاً فشيئاً هجَرَ المواطنون أراضيهم الواسعة الخصبة التي حفروا قنواتها بجهد كبير، واستصلحوا أراضيها واستأنسوا حيواناتها وطوَّروا خبرة استثمارها لزمن طويل. وتُقدِّم الرسائل التي كتبها كورتس إلى ملك إسبانيا أدلَّة واضحة على هذا العنف المريع، فقد كتب فيها عن الحملات التي أرسلها إلى أطراف المكسيك وهندوراس:

"عندما وصل الإسبان كان الهنود قد أرسلوا نساءهم وممتلكاتهم عبر نهر كبير يجري قريباً من هناك وبقي الرجال؛ لأنَّهم ظنُّوا أنَّ الإسبان لن يستطيعوا عبور تلك المسافة الطويلة إلى أرضهم، وحينما رأوهم يقتربون أشعلوا النار في المدينة وهربوا عبر النهر، بالقوارب أو سباحة، فغرق كثيرون منهم"[22].

21 المرجع نفسه، ص 134.

22 Cortés, p. 349.

على طول الطريق كان كورتس يجد المدن مدمَّرة، والمزارع مهجورة والمحاصيل محروقة بيد المواطنين أنفسهم[23]. وبدلًا من أن يحاول إيقاف عنف الإسبان، يقول إنَّه أصدر أحكاماً ضد الزعماء الذين لا يزرعون أرضهم تقضي بحرقهم واستعباد شعوبهم. ولم يكن ممكناً أمام عقل كهذا، لا يرى بديلاً للعنف سوى مزيد من العنف، إلَّا أن تفشل كل مقاومة.

عقب اتِّباعهم تكتيك هجر المدن والقرى وحرق المزارع، اعتقد المواطنون أنَّ الإسبان سيعجزون عن العيش في مناطق ليس فيها من ينتج لهم الغذاء. وليحافظوا على أسرهم وحريتهم، ارتضى المواطنون هجر أرضهم وتحوَّلوا إلى جماعات مشتَّتة تسكن طبيعة قاسية ووحشيَّة، وترتَّب على ترك بيئاتهم الطبيعية تحلُّل ثقافاتهم وخبراتهم وبدء تلاشي تقاليدهم الحضاريَّة، وهكذا صار شرط صعود أوروبا الحديثة هو تدمير حضارات أميركا. وهذا هو المسار نفسه الذي سيمرُّ به الاستعمار الأوروبي في مختلف مناطق العالم: تطوير الذات الذي يلازمه تدمير الآخرين. ومع هذا، قاومت شعوب أميركا في كثير من المناطق وحافظت على وجودها. وعندما صعب على الأوروبيين إخضاع كل شعوب أميركا رأوا ضرورة التوسُّع في استعباد الأفارقة وجلبهم للعمل في الأراضي الزراعية. فازداد نقل المختطفين من غرب إفريقيا، وصار استرقاقهم مجالاً لتنشيط التجارة وتدوير المال واتَّسع اقتصاد المستعمرات، وساعد ذلك على جذب مزيد من المهاجرين الإسبان إلى أميركا وتضاعفت قدرتهم على قهر المواطنين.

في المناطق التي تركَّز فيها وجود الأوروبيين، فشل أسلوب المقاومة بالهروب إلى الجبال وحرق القرى والمزارع واضطرَّ المواطنون إلى استخدام آخر سلاح يلجأ إليه من يتمسَّك بحريته حتى النهاية، وهو الحدُّ من الحياة. فلأنَّ الإسبان كانوا يضغطون عليهم بتعذيب أطفالهم وتقطيعهم ورميهم للكلاب

23 المرجع السابق، ص 353-350.

الجائعة؛ امتنع الرجال عن معاشرة الزوجات، وتوقَّفت النساء عن الحمل والإنجاب. وتشير بعض المصادر الموثوقة إلى تفشِّي الانتحار وقتل الوالدين لأطفالهم أيضاً[24].

لقد حفَّزت الحضارة الأوروبية ميلاً لتدمير الذات لدى كثيرين من الذين تعرَّضوا لقهرها، وانتقلت خبرة مقاومة الاضطهاد بتفكيك الأسرة وهجر الأقارب والانتحار من المواطنين الأصليِّين إلى أولئك الذين خُطِفوا من بلادهم واستُعبِدوا في أميركا. وما زالت تلك الظواهر مستمرَّة في مجتمعات الأميركيِّين أصحاب الأصول الإفريقية مثل استمرارها في مجتمعات الأميركيين الأصليِّين، وهي تمثِّل "مقاومة الرمق الأخير" أمام عدو لا يعرف حدوداً للعنف.

هل أوجدت تلك الأشكال من المقاومة مخرجاً لشعوب أميركا من ظُلمة المصير الذي أحدق بها؟ على العكس، لقد فتحت الباب أمام الأوروبيين لاتِّهامهم بافتقاد العقل، وادِّعاء أنَّ الأوروبيين أكثر منهم إنسانية، فصار ذلك مدخلاً جديداً لصناعة الامتياز. يقول ماتشوكا: إنَّ من حقِّ الإسبان أن ينتزعوا من الهنود أبناءهم لأنَّهم لا يحسنون تربيتهم وإنَّ البعض منهم يقتل أطفاله[25]. ولم يقتصر استثمار الإسبان لذلك الادِّعاء على انتزاع أبناء المواطنين ولكنه قاد إلى انتزاع زوجاتهم أيضاً. برَّر ماتشوكا انتزاع زوجات المواطنين بأنَّهم غير قادرين على منحهنَّ حقوقهنَّ الجسدية، لأنَّهم يتزوَّجون نساء كثيرات، بخلاف الإسبان الذين يتزوَّجون واحدة[26].

إنَّ في نصوص سيبولفيدا وماتشوكا وهيغل، وكثير من المفكِّرين الأوروبيين الحديثين، ما يكفي لتوضيح التآخي التام بين توسُّع مشروع غزو العالم وتطوُّر

24 Lane, Kris (ed.); *Defending* ..., p. 7.

25 المرجع السابق، ص. 70.

26 المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

المعرفة الغربية الحديثة، وتآزرهما في سدِّ سُبُل المقاومة التي سلكتها الشعوب من أجل التحرُّر. إنَّ ممارسات القهر والتهديد المستمر للحياة التي يُقال إنَّها جعلت كراهية الذات جزءاً من تقاليد شعوب أميركا، لم تنشأ فقط عن الاضطهاد والعنف الجسدي الذي مارسه الغزاة والحكام الأوروبيون، لكنها نشأت أيضاً عن ممارسات فكرية وثقافية ودينية. فالمؤرِّخ المكسيكي دومينغو تشيمالباهن الذي أرَّخ للأوضاع الاجتماعية والسياسية في العاصمة المكسيكية أكَّد استمرار العنف لما يقارب المئة عام من لحظة وصول كورتس[27].

مؤخَّراً، أوضح الباحث في شؤون مواطني أميركا الأصليين جورج تنكر، وهو واحد من مثقَّفي قبائل الشيروكي التي تقطن أميركا الشمالية، مدى تدهور أوضاع مجتمعاتهم في الولايات المتَّحدة، واستمرار ذلك إلى اليوم. فكتب:

> **"يحصل الشعب الهندي على الدخل الأقل بين أيَّة جماعة إثنية في الولايات المتَّحدة، ويعاني أعلى نسبة انتحار بين الشباب ممَّن هم دون سن العشرين، ويبلغ مستوى البطالة 60% من عدد العاطلين في الولايات المتَّحدة، ويبلغ معدَّل العمر أقل من 60 عاماً للرجل والمرأة على السواء"**[28].

فسَّر الكاتب تردِّي أوضاع المواطنين الأصليين بقوله:"إنَّ مجتمعات الشعوب المضطهدة تتبنَّى الاضطهاد وتقبل بالصورة النمطية السالبة التي يصوغها لهم من يضطهدونهم"[29]. فالمعرفة الغربية تستبعد مساهمات معظم الشعوب وتقلِّل من مكانتها لتجعل تاريخ أوروبا وشعوبها هي الوحيدة التي تملك قيمة. وقد انعكس هذا سلباً على وعي معظم الأمم التي غزاها الأوروبيون ولم يقتصر على مستعمرات الإسبان وحدها، فساد البلاد التي غزاها الإنجليز والفرنسيون، كما أوضحت الفصول التي تناولت قصص كوك ونابليون ومحمد علي.

27 Lockhart, James, Schroeder, Susan and Namala, Doris (eds.),; *Annals ...,* P. 59.

28 Tinker, George E. ; *Missionary Conquest: The Gospel and Native American Cultural Genocide,* (Minneapolis: Fortress Press 1993). P. 3.

29 المرجع السابق، الصفحة السابقة.

في مصر والسودان أيضاً اعتمد استمرار حكم الغزاة على ممارسة العنف لقمع المقاومة الشعبية، ولم يعتمد حكمهما على فتحٍ تحقَّق بنصرٍ حاسم. فالتنكيل بالمواطنين، وخاصَّة القيادات ذات المكانة الرفيعة، لم يكن يُمارَس عند الضرورة، وإنَّما كان ينفجر بطريقة عبثيَّة وفي لحظات غير متوقَّعة، وفي أماكن عامة: في الساحات الشعبيَّة والأسواق وحتى في دواوين الحكَّام، وذلك بهدف التذكير المستمر بأنَّ جبروت الغزاة قابل للانبثاق في أية لحظة من تلقاء نفسه، لتزويد المواطنين بذاكرة جماعية عن عسف الغزاة وجاهزيَّتهم للعنف. مثال ذلك: أنَّ أحد الشيوخ السودانيين ممن يُعتبرون قادة وطنيِّين، دخلَ على الحاكم التركي لينقل إليه خبراً ساراً، مضمونه أنَّ الحقل الخاص بالحاكم قد استوى محصوله وحان وقت حصاده، فما كان من الحاكم إلا أن اتَّهمه بأنَّه يراقب الحقل لأنَّه يريد حصاده لنفسه، وأمرَ بخلع أسنان ذلك الشيخ[30].

كانت ممارسات كهذه تهدف إلى استخدام الشخصيَّات الوطنية لوحات إعلانية متحرِّكة، تنبِّه المواطنين إلى سطوة الغزاة التي تُعرَض على أجساد كبرائهم، فالقيادات الوطنية مثل المواضِع الإعلانية المميَّزة، أكثر قدرة على لفت النظر والتأثير في المواطنين. وهذا يطابق تقاليد العنف المسرحي التي مارسها الإسبان والتي كانت تقوم على قطع الأيدي وإرسال الضحيَّة إلى أهله، فيما سُمِّي "الرسائل التي تمشي على قدمين". وكانت هذه الممارسات الهمجية تُوارَى خلف البطولات الزائفة التي ترويها القصص المستعارة من خطاب فتوحات المسلمين.

في السودان ومصر أيضاً روَّجت قصص الفتوحات لوعود التحديث، وتبنَّتها النُخب الوطنية التي كتبت تواريخ الغزوات التي تعرَّضت لها أوطانها على أنَّها مشاريع تأسيس للدولة الحديثة وتحرُّر من قيود الماضي، وانتقال نحو الحداثة.

30 محمَّد سعيد القدال: **تاريخ ...**، ص 55.

وتجاهلت العنف الغاشم الذي وقع على البشر ونهب الثروات والقسر الذي دمَّر نظم المجتمعات ليخضعها إلى نظام دولي يخدم مصالح الغزاة ويدرجها في الرأسمالية العالمية. وبقبولها أساطير الفتوحات ونشرها محلياً نابت النخب الوطنية عن الغزاة في مَهمَّة إعادة إنتاج الخضوع وتجذيره في عقول شعوبها.

لا ينبغي أن تقتصر دراسة قصَّة فتح أميركا على مقارنتها بغيرها من قصص الفتوحات للكشف عن ارتباط تاريخ أوروبا بمصادر غير أوروبية، وإنَّما يجب أن تُستخلَص منها نتائج تتَّصل بالقضايا والانشغالات العالمية المُعاصِرة. إنَّ الدراسة المقارنة للخطاب التاريخي الحديث تكتسب معناها الكامل عندما تستهدف نقد نظام المعرفة الغربية في شموله، من أجل فهم تأثيراته على العالم الحالي.

لا بدَّ من كلمة أخيرة حول مدى تأثير سياسات عنف الغزاة على المواطنين، فبخلاف ما يُستنتج دائماً من انتهاء المواطنين إلى تبنِّي تقاليد الانتحار ومحق الذات، كان ذلك يجرى في أماكن محدودة غلبت عليها أعداد الأوروبيين. أما في كثير من مناطق أميركا الأخرى فقد استمرَّت شعوبها الأصلية مسيطرة على مصالحها. ففي تشيلي، التي استعصى فيها على فالديفيا إخضاع قبائل الأرواكان، اضطر الإسبان بعد سنوات عدة من الفشل إلى التزاوج مع المواطنين لتنشئة جيل جديد من المولَّدين يساهم في العمل الزراعي لصالح الإسبان، ويقاتل إلى جانبهم أيضاً[31]. ورغم أنَّ قوة المولَّدين صبَّت في مصلحة الإسبان من الناحية العسكرية، إلّا أنَّه لا ينبغي تجاهُل دور الأمهات في التنشئة التي أكسبت أولئك المولَّدين ثقافة محلية لا يمكن معها القول بأنَّهم كانوا أقرب إلى الإسبان من حيث تصوُّرهم لذاتهم. ويوجد من المصادر غير الأوروبية ما يتضمَّن معلومات تفيد باستمرار بقاء شعوب أميركا حتى في الأماكن التي

31 Bendict, Ruth; Two Patterns of Indian Acculturatio, *American Anthropoligist*, Vol. 45 No. 2, (1943), 207-212. P. 211.

تقول المصادر الأوروبية إنَّ وجودهم فيها تلاشى. وبعض النصوص التاريخية العربية، على محدوديتها في هذا الجانب، يمكنها أن تساهم في توضيح هذه الصورة.

في رحلة الموصلي، ذلك المسيحي العربي الذي توجّه من بلاد الشام إلى بيرو زائراً في القرن السابع عشر، يوجد ما يؤكِّد أنَّ أهل بيرو استمرّوا حتى وقت زيارته، يعيشون في مناطق لم يتمكَّن الإسبان من الوصول إليها. ويميِّز الموصلي بين المناطق التي تعايش فيه المواطنون مع الإسبان، وتلك التي سكنها المواطنون وحدهم[32]. ويذكر أنَّ بعض أهل بيرو كانوا يهدِّدون الإسبان، مثل سكَّان الجبال التي يسمِّيها "بارامو"، والنهر الذي يقول إنَّه ينحدر منها[33]. ويدلِّل على أنَّ الإسبان لم يستولوا على زمام الأمور في بيرو حتى القرن السابع عشر، بأنَّ بعض المواطنين كانوا يعيشون في مستوى مرتفع من الغنى[34].

إنَّ هذه المعلومات تعارض ادِّعاء أنَّ شعوب أميركا خضعت للسيطرة بسهولة وتلاشت بعد الغزو من تلقاء نفسها، للتقليل من تأثير حملات الإبادات. لقد غذت قصص الفتوحات مخيِّلة المؤرِّخين الأوروبيين بأوهام التفوُّق، فزعم هيغل أنَّ مواطني أميركا كانوا "يتلاشون بمجرد أن تقترب منهم الروح"، ويقصد بالروح حضارة الغرب التي تعبِّر عنده عن تطوُّر "الروح العالمي" وبلوغ الكمال[35]. إنَّ وهم التفوُّق الأوروبي لم يقتصر على المؤرِّخين وحدهم، فقد تبنَّاه عددٌ كبيرٌ من المفكِّرين الغربيين، ودافع عنه معظم الفلاسفة أيضاً.

---

32 الياس الموصلي: **الذهب والعاصفة: أول رحلة شرقية إلى العالم الجديد 1668-1683**، (بيروت: دار السويدي للنشر والتوزيع- المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2001). قارن الصفحات 55 - 56 بالصفحات 66 - 67.

33 المرجع السابق، ص 63.

34 المرجع نفسه، ص 61 وصفحة 67.

35 ج ف ف هيغل : **محاضرات في فلسفة التاريخ** ، الجزء الأول (العقل في التاريخ)، القاهرة: دار الثقافة للطباعة والنشر، 1980. ص 205 - 206.

تتبَّعَ هذا الفصل أثر أساليب العنف والاضطهاد التي مارسها الأوروبيون في أميركا، وأساليب المقاومة التي واجه بها أصحاب الأرض ذلك العنف. فأوضح أنَّهم لم ينهزموا بسبب التفوُّق الحضاري وذكاء الإسبان وشجاعتهم، كما هو شائع في نصوص المؤرِّخين الغربيين، وبيَّن أنَّ كثافة العنف التي مورست هي التي أزاحتهم عن المدن التي سيطر عليها الإسبان والتي توسَّعت لاحقاً. والنتيجة التي توصَّل إليها هذا الفصل تدعم قول لاس كاساس بأنَّ ما جرى في أميركا لم يكن فتحاً حضاريَّاً، وإنَّما كان سلسلة من المذابح الهمجيَّة. وهي نتيجة تدحض أسطورة الاجتياح الشامل لأميركا، وأنَّ شعوبها اندثرت أمام حضارة وُصِفت بأنَّها كانت تعيش نهضة شاملة. وهذا يفتح إمكانيات جديدة أمام دارسي تاريخ شعوب أميركا لبحث أنماط المقاومة التي أتاحت لها البقاء وحفظ ثقافاتها وصون هويَّاتها. كما تفتح المجال أمام فهم نشأة العصر الحديث وظاهرة الاستعمار الأوروبي من منظور تعدُّديَّة التواريخ المحلِّية وتداخُل الحضارات، لا من منظور مركزيَّة التاريخ الأوروبي وأساطير نقاء الذات وأحاديَّة الهويَّة.

خطاب الفُتُوحات وضحاياه:
إعادة إنتاج الخضوع

يتناول هذا الفصل تأثير خطاب الفتوحات الأوروبية على وعي الشعوب التي غُزيت بلادها، وكيف صاغ تصوُّرها لذاتها وللعالم، وحَدَّد مكانتها فيه. يرصد الفصل كيف خدمَت قصص الفتوحات، وما زالت تخدم، السيطرة على الشعوب عن طريق تزويدها بصورة زائفة عن تاريخها وتدنِّي مكانتها، مقارنة بالأوروبيين الذين اصطُنعت لهم صورة أُمم متفوقَّة رُفِعت مكانتها في التاريخ العالمي.

أوضحت المقارنة بين فتوحات المسلمين القديمة وفتوحات إسبانيا الحديثة أنَّ تاريخَيهما صيغا بالاحتكام إلى مخيِّلتَين جماعيَّتَين استمدَّتا المعرفة التاريخية من سرديَّات متوارثة لدى هاتين الأُمَّتَين، وليس من معرفة حقيقيَّة بالماضي. ومن هنا تتَّضح أهمية نزع الطابع الأسطوري عن استيلاء الإسبان على غرناطة في سنة 1492م، ذلك الحدث المركزي الذي صاغ نظرة العرب والإسبان لماضيهما وما سيتلوه من تاريخ حديث. واليوم يعتقد الأوروبيون أنَّ طرد مسلمي ويهود الأندلس وتنقية إسبانيا من التعدُّد الإثني والثقافي شكَّل لحظة مولد الأُمة الإسبانية الحديثة ومفارقتها للعصور الوسطى، لأنَّه حقَّق قطيعة مع التراث الأندلسي ووُلِدت معه إسبانيا الأوروبية. وبالمِثل، اعتقد العرب ومسلمو

شرق وجنوب المتوسِّط أنَّ خروج الأندلسيين من أوروبا يمثِّل قطيعة نهائية مع تاريخهم وتراثهم الحضاري فيها، وأنتج هذا التصوُّر وعياً بهويَّة منقوصة أمام الأوروبيين وشعوراً عميقاً بالهزيمة الروحية. وقد نما وعي الهزيمة في شرق وجنوب المتوسِّط لأنَّ الحضارة هنا أيضاً كانت، في جذورها العميقة، تستند إلى تصوُّر تراتبي مماثل لفكرة التفوُّق الأوروبي الحديث، فمواطنو شمال أفريقيا والعرب منحوا أنفسهم حقّ غزو أوروبا والسيطرة على شعوبها لأنَّهم وضعوها في مكانة أدنى منهم.

مع ذلك، يوجد فرقٌ مهمٌّ بين الخطاب العربي للفتوحات وخطاب الفتوحات الأوروبية، وهو أنَّ المؤرِّخين العرب لا ينكرون الطابع التكراري لخطابهم واستناده إلى قالب نمطي (Archtypal format) وظيفته تقريب التفسير للفهم. فقد وصف بعضهم التاريخ بأنَّه دروس و"اعتبار بالماضي" و"اتِّعاظ بأخبار الأوائل"، وأدركوا أنَّ أحد أهداف تدوين التاريخ هو استخلاص ما يقبل التكرار. أما خطاب التاريخ الغربي، الموصوف بأنَّه حديث، فيدَّعي أنَّه لا يقوم على صيغ نمطية، وإنَّما يعتمد على منهج بحث يتيح التعرُّف على الماضي في حقيقته، فاستُخدِمت المعرفة التاريخيَّة لكي تميِّز بين الأمم الأوروبية والشعوب الأخرى، باعتبار أنَّ الأولى صاحبة معرفة علميَّة وعقليَّة موضوعيَّة، وأنَّ الثانية صاحبة عقليَّة خرافيَّة ومعرفة أسطوريَّة. هكذا صارت المعرفة في العصر الحديث أداة لاصطناع الفروق المؤدِّية للتمييز بين البشر.

من الناحية العملية، ترتَّبت على الفتوحات الأوروبية نتائج مُهمَّة أيضاً، فبعد غزو إسبانيا لممالك أميركا توفَّر لها جيش ضخم من الغزاة غير النظاميين. وأتاح خطاب الفتوحات النمطي لقادة الغزو الحصول على مناصب عليا وزَّعها عليهم الملك بصفتهم فاتحين، فشجَّعت تلك الأوضاع الجديدة نزعة التوسُّع لدى الإسبان داخل أوروبا، وبسبب تدفُّق ذهب وفضَّة المكسيك وبيرو تضاعف نمو الجيش الإسباني وتطوَّرت صناعة السلاح الناري. وفي ظل توفُّر عنصرَي

المصلحة المادِّية والقوة العسكرية بدأ الإسبان يغزون مناطق عديدة في أوروبا الغربية، فضمُّوا إلى إمبراطوريتهم إيطاليا وهولندا والبرتغال وأجزاء من ألمانيا.

بحلول منتصف القرن السادس عشر تحوَّلت إسبانيا إلى آلة حربية هائلة، وكانت كل موجة غزو ناجح تغذِّي موجة توسُّع خارجي أخرى تليها. ففي سنة 1492م التي انتصر فيها الإسبان على مملكة غرناطة الأندلسية كان الجيش الإسباني يضم 60 ألف جندي تقريباً، أمّا بعد اكتمال غزو أميركا فأصبح يضم 150 ألفاً من الجنود، وفي نهاية القرن أصبح يضم 300 ألف، فكان حجم القوة العسكرية يتضاعف كل خمسين سنة تقريباً. وقد وُصِفت تلك الفترة المبكرة من تاريخ إسبانيا الحديثة بأنَّها شهدت "ثورة عسكرية"، لم تلبث أن انتقلت إلى دول أوروبا الغربية القريبة منها، خاصة بريطانيا وفرنسا، بسبب حاجتيهما للدفاع عن أراضيهما أمام التوسُّع الإسباني المتسارع. ولا يمكن فهم دور ما يسمِّيه المؤرِّخون الغربيون "الثورة العسكرية"، التي ينسبونها إلى القرن السادس عشر، إلّا في سياق تزايد التوسُّع الخارجي. ورغم أنَّ فكرة الثورة تُستخدم لتفسير نمو القوة العسكرية داخل أوروبا فقط، إلَّا أنَّ النمو العسكري لإسبانيا لم يكن يستهدف أوروبا قدر استهدافه العالم الخارجي، فقد استهدف إخضاع الشعوب التي اعتبرها الأوروبيون أقل مكانة منهم.

من خلال تنافسها على رفع قدراتها الحربية صارت بقيَّة بلاد أوروبا الغربية مؤهَّلة لمشاركة إسبانيا في مشروع غزو العالم، الذي كان البابا نيكولا الخامس (Nicolas V: 1397–1455) قد أضفى عليه شرعية دينية عندما أجاز للأوروبيين في سنة 1452م، ثم في سنة 1455م، "غزو أراضي جميع الشعوب غير المسيحية"، كما ورد في البراءة البابوية التي أصدرها آنذاك[1]. بهذه الطريقة

1 Davenport, Frances Gardiner (ed.); *European Treaties Bearing on the History of the United States and its Dependencies to 1648,* (New Jersey: The LawBook Exchange, 2004). P. 12.

غذّت سيطرة إسبانيا على أميركا نزعة التوسع لدى أمم أوروبا الغربية في القرن السابع عشر، فبجانب إنجلترا وفرنسا طوّرت هولندا، التي كانت قد استقلت عن إسبانيا في سنة 1648م، خبرة غزوٍ تلقَّتها من تجربة الإسبان.

بدأت دول أوروبا الغربية مشاريعها التوسُّعية بتنظيم تحالفات بين التجار وأصحاب النفوذ السياسي اتَّخذت صورة شركات تملك جيوشاً غير نظامية، منحتها الدولة تصاريح رسمية لغزو مختلف المناطق الواقعة في جنوب العالم، بذريعة ممارسة التجارة فيها. وتمثَّلت أبرز النجاحات في غزو الشركات الهولندية لجنوب شرق آسيا، وغزو شركة الهند الشرقية الإنجليزية للبنغال، وتبعت ذلك نجاحات متعدِّدة في مناطق أخرى، وكان ذلك بداية التوسع الأوروبي الذي سيستشري في العالم، ولن ينتهي إلا في القرن العشرين بحربين شاملتين دارتا بين الأمم الأوروبية داخل أراضيها وخارجها، خلَّفتا بينهم عشرات ملايين القتلى ودماراً مادِّياً هائلاً، هذا بجانب ما ألحقته تلك القرون من أضرار بالشعوب غير الأوروبية.

مع تلقِّي أوروبا لخبرة إسبانيا في مجال الغزو الخارجي وتبنِّي أساليبها في ممارسة العنف الغاشم، تبنَّى الأوروبيون قالب قصَّة فتوحات أميركا الذي عمل كإطار قانوني لتبرير ممارسة العنف ضد من يتم غزوهم، ويضفي شرعية على سلطة الأوروبيين بوصفهم (متحضِّرين) يريدون تحقيق الخلاص للعالم من تأخُّره. وهنا تحوَّلَ قالب قصَّة الفتح، المستعار من قصَّة فتح الأندلس، إلى خطابٍ يدلُّ على وضعية امتياز، ينسب من يتبنَّاه إلى فضاء الحضارة ليمنحه حق المشاركة في مشروع غزو العالم. وبشيوعه في أوروبا، آلَ خطاب الفتح إلى نظام تفاهم تعاقدت أمم أوروبا ضمنيَّاً على التخاطب به، لتُثبِت حقَّها في امتلاك ما تدَّعي أنَّها "اكتشفته" من أرض في جميع بقاع العالم، مهما بعدت عن أوروبا. ومن هنا صار الوصول إلى أي بلد غير معروف للأوروبيين،

ترويه قصَّةً صيغت على قالب خطاب الفتح، كافياً لإثبات الحق في إخضاع شعوبه، فأصبحت الصيغة القانونية لسرديَّات الفتح ثمناً لامتلاك أراضي العالم.

على هذا الأساس استعار الإنجليز والفرنسيون ذلك الخطاب لعدد من الحملات التي ادَّعوا أنَّها استهدفت تحقيق "فتوحات" و"اكتشافات"، جاءت على مثال حملات "الاكتشافات الجغرافية" التي ادّعاها الإسبان والبرتغاليون. فالقصَّة التي رواها قادة الحملة الإنجليزية التي عُرفت بحملة "اكتشاف هاواي"، والتي وصلت تلك الجزيرة بالصدفة، صارت بمثابة وثيقة تستند إلى رواية شهود عيان، وتثبت حقَّ إنجلترا في امتلاك أراضي أستراليا والجُزر القريبة منها. وهي تحاكي تماماً قصَّة وصول كولمبس إلى جزر الكاريبي، التي كانت أيضاً قد حدثت بالصدفة وصيغت في صورة قصَّتَي اكتشاف وفتح، وترتَّب عليها أن مَنَح البابا أراضي قارَّة أميركا الجنوبية لإسبانيا.

لم تقتصر فاعلية خطاب الفتح المستعار على تبرير السيطرة فقد صار أداة يستخدمها المفكِّرون أيضاً لتفسير عدد واسع من الظواهر الاجتماعية، التي تتضمَّن عنفاً داخلياً أو خارجياً يؤدي إلى السيطرة على البلاد، مثل: تحولات نُظم الحُكم، والثورات الجماهيرية، والصدامات العسكرية، والحروب الأهليَّة. باختصار، أوجد خطاب الفتح لغةً مُتوافقاً على أنَّها تضبط علاقات التراتُب وتوزيع الحقوق بين الأطراف الأقوى والأضعف في العصر الحديث. وما زالت سمات خطاب الفتح تلوِّن لغة العصر الحالي، وتبرِّر نظام اصطناع الفروق المؤدِّي إلى الحفاظ على التراتب بين أمم الشمال والجنوب.هذه هي النتائج التي ترتَّبت على تبنِّي الأمم الأوروبية لخطاب الفتح، أمّا قبوله في بلاد الجنوب فقاد إلى ترسيخ السيطرة الأوروربية من باب آخر، هو إخضاع شعوبها عن طريق غرس مخيِّلة جماعية لديها تصوِّرها شعوباً عاجزة وتابعة.

ساهم تداول قصَّة الفتح بين شعوب أميركا في إضعاف قدرتها على تغيير واقعها؛ لأنَّ تاريخها أصبح يغذِّيها بتصوُّر سالب عن ذاتها. لقد تبنَّى مفكِّرو تلك الشعوب الصورة التي صاغها لهم المؤرِّخون الغربيون بأنَّها شعوب بلا إرادة، خضعت للأوروبيين بمجرَّد ظهورهم على أرضها فعظَّمتهم وقدَّستهم. ورغم ضخامة جيوشهم، عجز ملوكها عن الدفاع عن بلادهم أمام قلَّة من الأوروبيين لأنَّهم سلَّموا بأنَّهم كائنات ذات قدرات خارقة تفوق قدرات البشر. ولم تجد أجيال المواطنين التي وُلدت بعد الفتح تاريخاً ينقل ما جرى بطريقة واقعية، ويوضِّح أنَّ نصوص المؤرِّخين الإسبان تستند إلى قصص مستعادة، بما أنَّ معظم مخطوطات الجماعات المحلِّية التي تضم رواياتهم أبادها الأوروبيون. لقد حرق الإسبان عشرات آلاف الكتب التي ضمَّت معارف وتواريخ شعوب أميركا، ولم يبقَ منها اليوم إلا نسخ قليلة جداً.

في العصور الوسطى، اعتقد الأوروبيون أنَّ محو المعارف غير المستمدة من الإنجيل يعتبر خدمة جليلة تقدِّمها الكنيسة للرب، فصار حرق الكتب تقليداً محترماً في أوروبا، فبعد سقوط الأندلس حُرقت مئات آلاف الكتب العربية. وسيراً على هذا التقليد حرقَ عدد من كبار رجال الكنيسة كثيراً من كتب شعوب أميركا. فقد حرق الراهب تريبيو موتولينيا (Tribio Motolinia: 1482-1568)، الذي كتب بنفسه كتاباً عن فتح أميركا، عدداً من كتب الأزتك. ويعدُّ دييغو دي لاندا (Diego de Landa: 1524-1579)، الذي كان رئيساً لديوان التفتيش في المكسيك، من أبرز الذين ساهموا في إبادة كتب شعب المايا، فحينما جاءه الزعماء يعرضون بكل فخر كتبهم ومخطوطات أسلافهم التي يحتفظون بها منذ أزمان طويلة في أغلفة فاخرة وثمينة، لتعريف الإسبان بحضارتهم وثقافتهم العريقة؛ قرَّر دي لاندا من دون أية معرفة بمحتوى تلك الكتب أنَّها تضمُّ "خرافات وأساطير"، فعقد لها محرقة ضخمة أفناها بها. وقد أورثت تلك الحادثة

شعب المايا شعوراً عظيماً بالقهر والإذلال ساهم في نشر التمرُّد، وفي عهد دي لاندا تعرَّض كثيرون من زعماء المايا للتعذيب والإبادة بطرق لا تقل بشاعة عن المحارق التي أقامها لكتبهم. ومن جانبهم أقام رهبان وقسِّيسون وحكَّام إسبان آخرون محارق كثيرة للآلاف من الكتب. وهذا النوع من الممارسات الهمجية هو الذي بدَّد الذاكرة التاريخية لشعوب أميركا.

في الوقت الحالي، توجد نصوص قليلة جداً تحكي ما جرى في أميركا من وجهة نظر المواطنين، وهي حكايات تُعرف عند المؤرِّخين المعاصرين باسم "رؤية المهزومين" (vision of the vanquished). أبرزها الروايات التي وردت في كتاب "الرماح المكسورة"، الذي جمعه وحرَّره المؤرِّخ المكسيكي المعاصر ميغويل ليون- بورتيلّا (Miguel León–Portilla) المتخصِّص في دراسات الناهوا، وهي الحقل الأكاديمي الخاص بثقافة وتاريخ شعب المكسيك. والكتاب يعتمد، إلى حدٍّ كبير على الجزء الثاني عشر من كتاب المؤرِّخ الإيطالي برناردينو ساهاجون "المدوّنة الفلورنسية" (The Florentine Codex). ورغم أنَّ ليون- بورتيلّا أضاف إلى كتابه نصوصاً أخرى مستمدَّة من وثائق كتبها مكسيكيون، إلا أنَّه تبنَّى رواية الإسبان حول المواجهة بين الطرفين، مع التركيز على دور بعض المجموعات المحلية في إسقاط مدينة مكسيكو. وفي الغالب فإنَّ النصوص المنسوبة إلى السكان المحليِّين تكرِّر الرواية التي اصطنعها الإسبان، لأنَّ معظمهم كانوا من الذين تعلَّموا لغة الإسبان وعاشوا بينهم وتشبَّعوا بثقافتهم، وبالتالي تبنَّوا رؤية الإسبان لما جرى في أميركا، أو تأثَّروا بها إلى حد كبير.

لم تكن شعوب أميركا تستخدم كتابة صوتية لتدوين معارفها، واستخدمت كتابة تصويرية. ولأنَّ الإسبان حرقوا معظم مخطوطات تلك الشعوب؛ لم يعد بإمكانها رواية ما جرى في الفترة التي يُقال إنَّها شهدت أحداث الفتح. فبقيت

الحقيقة غامضة لا تصفها إلا القصص التي صاغها الفاتحون، والمتداولة إلى اليوم حتى في أرفع الأكاديميات الغربية. كتب ليون–بورتيلّا عن نصِّه المأخوذ من روايات المهزومين:

> **"هذا أول كتاب يوفِّر مختارات من التواريخ الوطنية، كُتب بعضها مبكراً منذ 1528م، بعد سبع سنوات فقط من سقوط المدينة [مكسيكو]. وتقدِّم هذه الكتابات تاريخاً مختصراً للفتح كما يرويه الضحايا"**[2].

لقد ظلَّ التحدي الكبير الذي استمر مؤرِّخو أميركا يواجهونه طوال القرون الخمسة الماضية، التي تمثِّل فترة العصر الحديث، هو كيف أمكن لأقل من خمسمئة رجل اسقاط إمبراطورية كان يحميها مائتا ألف محارب تقريباً؟ وكيف تحقَّقت فتوحات مماثلة في مناطق متعدِّدة من أميركا في الفترة نفسها بأعداد تقلُّ عن تلك الحفنة من الرجال، بحيث أنَّ أقل من ألف رجل أسقطوا ثلاثة ممالك ضخمة، ذات حضارات عريقة، لها جيوش تضم أكثر من نصف مليون محارب؟

لا يكاد يوجد مؤرِّخ جاد واحد من المعنيين بتاريخ أميركا لم يتساءل عن غرابة قصَّة فتحها. لكن الإجابة التي قنع بها معظمهم ودافعوا عنها كانت دائماً الإجابة نفسها: أنَّ العقلية الخرافية لشعوب أميركا كانت هي سبب هزيمتها، لعجزها عن مقاومة الأوروبيين الذين تميزوا عليها بفكرهم العقلاني. في الحقيقة، كانت العقلية الأسطورية هي عقلية الأوروبيين الذين استعادوا من ماضٍ موغلٍ في القِدم قصَّة شائعة في التاريخ العربي، واعتقدوا أنَّها تمثِّل حقيقة ما جرى في أميركا، ثم اتَّخذوها قالباً ثابتاً فسَّروا به أحداثاً مهمَّة في تاريخهم الحديث وتاريخ العالم.

---

2 Leon- Portilla, Miguel; *The Broken Spears: The Aztec Account of the Conquest of Mexico,* (Boston: Beacon Press, 1992). pp. xxv- i.

حتى الوقت الحاضر يتبنَّى الطرف المنتصر، الذي يمثِّله المفكِّرون الغربيون، والطرف المهزوم، الذي يمثِّله مثقَّفو شعوب أميركا وبقيَّة بلاد الجنوب؛ يتبنَّون خطاب الفتوحات الأوروبية الذي تطوَّر عن الخطاب العربي. ولهذا لم تحقِّق المعرفة التاريخية الغربية، المسمَّاة حديثة، تقدُّماً يُذكَر خلال الخمسمئة سنة الماضية في معرفة الكيفية التي خطت بها أوروبا أولى خطواتها نحو الحداثة. والكتب الأكثر رواجاً وقبولاً في الغرب حتى نهاية القرن العشرين وبداية الألفية الثالثة، تفسِّر ما جرى في أميركا بالفكرة القديمة ذاتها. ومنها كتاب تزفتان تودروف (فتح أميركا: سؤال الآخر)، الذي يزعم فيه أنَّ سبب فتح أميركا هو تفوُّق عقلانية الفكر الأوروبي على أسطورية فكر مواطنيها، وثقافتهم الخرافية.

يعيد تودروف إنتاج الفكرة الأوروبية القديمة مستخدماً أدوات تفسيرية تناسب عصر المعلوماتية وتطوُّر تكنولوجيا الاتصالات، مصدرها علم العلامات أو السميولوجيا. وهذا يُعدُّ أساس عملية تحديث أسطورة التفوُّق الأوروبي التي يلتزمها الفكر الغربي الحديث منذ زمن طويل، إذ يعيد تدوير المضامين القديمة بوضعها في أطر تفسيرية جديدة. في منتصف القرن العشرين كانت سيطرة الأوروبيين على أميركا قد فُسِّرت بفكرة التقدُّم التقني ممثَّلاً في صناعة السلاح الناري، رغم أنَّ النصوص التي كتبها قادة الفتح تؤكِّد أنَّه لم يكن للسلاح الناري أثر في حسم المواجهة بينهم وبين المواطنين المحلِّيين. في كل عصر يبتكر المنتصرون تفسيراً للتاريخ يثبت تفوُّقهم بطريقة تتناسب مع نوع المعرفة الأكثر إقناعاً في الزمن المعيَّن، وهذا جزء من تقنيات تحديث الفروق بين البشر التي تميِّز المعرفة الغربية، وتُصان بها السيطرة إلى اليوم.

أما من جِهة الطرف المهزوم، الذي يمثِّله مفكِّرو الجنوب، فقد قَبِل معظمهم التفسير الذي يستبطن فكرة التفوُّق الطبيعي للإنسان الأوروبي، فأعادوا إنتاجه

وبثّه بين مواطنيهم، وهضمَه هؤلاء أيضاً فصار عنصراً مكوّناً لفهمهم للعالم. باختصار، اندرج المفكِّرون الوطنيُّون في اقتصاد الفكر الغربي الحديث الذي يقوم على إنتاج وتوزيع واستهلاك الأفكار المتمركزة حول الغرب؛ بنفس القدر الذي اندرجت به النُخَب الوطنية الثرية في نمط الاقتصاد الرأسمالي الغربي؛ واندرجت نُخبها السياسية في النظام العالمي، فصارت التبعية هي الرباط الجامع للقطاعات الأكثر تأثيراً في مجتمعات الجنوب، التي تدير أجهزة ما يسمَّى الدولة الحديثة. وجوهر تلك الرابطة هو التبنِّي غير النقدي لنتاجات نمط حضاري قائم على السيطرة، فالاقتصاديون والسياسيون والمفكِّرون صِيغت معظم تصوُّراتهم عن ذاتهم وعن أُمَمِهم بواسطة النظرة الغربية التي تعتمد أساساً على المعرفة التاريخية، وأمثلة ذلك كثيرة جداً يمكننا هنا أخذ نماذج محدودة منها.

في كتاب حديث اشتُهِر وقُرِئ كثيراً في أميركا الجنوبية، لكاتب أورغواي المعروف إدواردو غاليانو (Eduwardo Galeano 1940–2015)، أُعِيد إنتاج قصَّة فتح أميركا بطريقة لا تختلف كثيراً عن الرواية الأوروبية، إلا فيما يخصُّ التاريخ القريب لدول أميركا اللاتينية. ورغم أنَّ غاليانو أراد لكتابه أن يكون إعلاءً لصوت شعوب أميركا فصدَّر صفحته الأولى بعبارة تقول: "لقد حافظنا على صمت أقرب ما يكون إلى الغباء"؛ رغم ذلك كتب أنَّ كورتس هزم مملكة المكسيك بخمسمئة جندي، وأنَّ بيزارو هزم مملكة بيرو بمئة وثمانين جندياً، وأنَّ مواطني مملكة غواتيمالا توسّلوا لجنود إسبان، تجاوزوا المئتين بقليل، أن يتركوهم مقابل التنازل لهم عن كل ذهب المملكة. ومتَّبعاً ما أشاعته نصوص المؤرِّخين الأوروبيين من صورة سالبة عن شعوب أميركا، يربط غاليانو هزائمهم وسقوط ممالكهم بضعف عزيمتهم وانعدام إرادة حكَّامهم وضعف عقولهم، فيقول:

”لقد هُزِم السكَّان الأصليون منذ البداية بسبب الذهول؛ تلقَّى الإمبراطور موكتزوما الأخبار الأولى في قصره: تلال ضخمة تتحرَّك في البحر، فظنَّ أنَّ ذلك هو الإله كويتزالكواتل وقد عاد من موطنه الأسطوري“[3].

في مقابل الصورة السالبة التي صاغتها الرواية الغربية لمواطني أميركا، وصفَ غاليانو حضارة أوروبا بصفة إيجابية في فترة الغزو، معتبراً أنَّها ”كانت حضارة تعيش حالة انفجار خلَّاق لعصر النهضة“[4]. إنَّ غاليانو يسلِّم بالحدث الذي تتَّخذه الرواية الغربية لحظة مفصلية في ظهور أوروبا الحديثة، وهو ”عصر النهضة“ الذي يُقال إنَّ أوروبا عادت فيه إلى تراث الإغريق والرومان وهضمته لتنتج حضارة مفارقة لتاريخ البشرية. وما يسلِّم به غاليانو يخالف حقيقة أنَّ أوروبا لم تنهض لأنَّها استعادت تراثاً إغريقياً رومانياً خالصاً؛ وإنَّما نهضت لأنَّها هضمت المعارف والخبرات التي تلقَّتها عن حضارات غير أوروبية معاصرة لها منها حضارة شرق وجنوب المتوسِّط، كما أوضح هنا تحليل خطاب الفتوحات الأوروبية.

في قصَّة بعنوان ”الساحلان“ (The Two Shores) أعاد الروائي المكسيكي كارلو فونتس كتابة نصِّ برنال دياز عن فتح المكسيك ناظراً إليه بعين جندي إسباني عاش مع المكسيكيين زمناً قبل وصول الإسبان بعد أن أَسَروه من الحملة الاستكشافية التي كان فيلاسكيز حاكم كوبا قد أرسلها إلى المكسيك قبل أن ينطلق كورتس بأسطوله. يستكشف الكاتب ما كان يمكن أن تكون عليه الأوضاع لو أنَّ المكسيكيين انتصروا، رائياً أنَّ إسبانيا كانت ستعود إلى حالها قبل غزو أميركا، فتستقبل اليهود والمسلمين الذين كانت قد طردتهم بعد سقوط غرناطة. ورغم أنَّ كارلو فونتس يعارض تصوُّر الإسبان عن أنفسهم

---

3 إدواردو غاليانو: **الشرايين المفتوحة لأميركا اللاتينية**، ترجمة علاء شنانة، (لندن: طوى للثقافة والنشر، 2016). ص 30 - 31. ويقصد بالتلال الضخمة سفن الإسبان.

4 المرجع السابق، ص 30.

بوصفهم أُمَّة أوروبية نقيَّة، معتبِراً أنَّهم بغزوهم أميركا اكتسبوا هويَّات متعدِّدة؛ فإنَّه يسلِّم بأنَّ التاريخ الحقيقي لما جرى في المكسيك هو ذلك الذي كتبه الغزاة الأوروبيون[5].

يظهر تسليم كارلو فونتس بصحَّة الرواية الإسبانية عندما يقول إنَّ أقل من ستمئة جندي إسباني: "أخضعوا إمبراطوريةً أكبر من إسبانيا تسع مرات من حيث أرضها، وأكبر منها ثلاث مرّات من حيث عدد السكَّان" لأنَّهم كانوا متفوِّقين من حيث السلاح والخيل[6]. وهو يسلِّم بأسطورة التفوُّق الأوروبي رغم أن نصَّه القصصي يكشف عن رفضه لمنظور الاستعلاء العرقي الذي كُتبت به قصَّة الفتح، ويتطلَّع إلى عالم تسوده العدالة والاعتراف بتساوي الشعوب وتعدُّد الثقافات. إنَّ الفارق الذي يصطنعه خطاب الفتوحات الأوروبية بين البشر وبموجبه يزيح شعوب الجنوب خارج نطاق التاريخ، يتأسَّس على تحويل مزاعم التفوق الأوروبي إلى "حقيقة" عبر سرد تاريخي يتلبَّس ثوب معرفة علمية، وبالمقابل يحوِّل فكرة تساوي البشر إلى خيال محض وتطلُّعات لا مكان لها إلا في فضاءات الأدب. والواقع أنَّ النصوص التاريخية الأوروبية حول الفتوحات لا تختلف عن النصوص الأدبية من حيث استنادها إلى المخيِّلة، وربما هي أقل منها من جهة أنَّ الأدب يستند إلى مخيِّلة ابتكارية، أمَّا النصوص التاريخية الأوروبية فتكرِّر قصصاً متوارثة ظلَّت تستعاد منذ العصور القديمة.

إنَّ تبنِّي النُخب الوطنية في بلاد أميركا الجنوبية لخطاب الفتوحات الأوروبية، يبيِّن أنَّ محو الإسبان لثقافات شعوب أميركا لم يدع مجالاً لمواطنيها ومفكِّريها للاحتفاظ بذاكرة تستطيع أن تنتقد الرواية التي اصطنعها الأوروبيون للتاريخ الحديث. لقد أهمل مفكِّرو أميركا اللاتينية تفكيك الأساطير المؤسِّسة

---

5 Schmitz, John Robert: When Lies become the truth: rewriting the conquest of Mexico in Carlos Fuentes's novella, The Two Shores, *Acta Scientiarum. Human and Social Sciences*, vol. 28, no. 1, (2006) 1-6.

6 المرجع السابق، ص 2.

للمركزية الغربية، مثل أسطورة النهضة وأسطورة الهويَّة النقيَّة وأسطورة الأصل الإغريقي للمعرفة الأوروبية، واعتقدوا بصدق التصوُّر الأوروبي للعالم والتاريخ، وأنَّه سبب التفوُّق على شعوبهم.

لم يكن تبنِّي الأوروبيِّينَ لخطابَ الفتحِ بلا عائد، بل كان رأسمالاً رمزياً يتيح لهم تشارُك مشروع حضاري واحد، صارت فيه عناصر خطاب الفتوحات بمثابة شفرة تمكِّن أمم أوروبا من التفاهم بلغة تسند توحُّدهم في سياق اضطلاعهم بمشروع غزو العالم. وتُعدُّ وحدة اللغة والخطاب من أبرز دعامات وحدة الثقافة والهوية والمخيلة، وبالتالي تصبح أساس وحدة الجماعات نفسها. وضمن هذا المغلّف الشامل الذي ترتبط فيه المعرفة بالعنف، والتنوير بالتدمير؛ قُدِّمت حداثة أوروبا إلى العالم.

مع قول كل المفكِّرين والمؤرِّخين الأوروبيين المعاصرين بالأصل الإغريقي– الروماني للمعرفة الحديثة، يعترف بعضهم بأنَّ علاقات الاقتباس والتأثير والتأثُّر بين حضارتي شمال وجنوب المتوسِّط كانت عميقة جداً في بداية العصر الحديث، ولكنهم يفهمون تلك العلاقات في ظل التعارض بين هاتين الحضارتين. يصف المؤرِّخ فرنان برودويل عمق التاثيرات المتبادلة بقوله:

> **"كلَّ شيء كان عرضة للتبادل والانتقال والاستعارة، من الناس والأفكار إلى أنماط العيش والمعتقدات وأساليب الحب وأشكال السكن والأخلاق والطعام"**[7].

مع إقراره بالاقتباس والتأثير المتبادل بين هذه الحضارات، يخلص برودويل إلى أنَّ "الغرب والإسلام كالهرِّ والكلب، يجمعهما تعارُض عميق يقوم على التنافس والعداء والاقتباس"، ويقول إنَّ الأول ابتكر الصليبية وعاشها بينما

---

7 فرنان برودیل: صعود الإمبراطوریات وانهیارها، **الاجتهاد** (العدد 27-26 1995)، 264-237. ص 251.

ابتكر الثاني الجهاد وعاشه[8]. وفي نص آخر يقول بروديل إنَّ إسبانيا كانت في القرن الخامس عشر الطرف الأوروبي الأضعف في مواجهة الحضارة الإسلامية، لكنها عندما تحرَّرت صارت الأقوى في مواجهتها. ثم يجعل من القرنين السادس عشر والسابع عشر فترة إشعاع مستمدٍّ من "القوَّة الروحية الهائلة للحضارة الرومانية والقوة الزمنية للإمبراطورية الإسبانية" حسب قوله. فيعود إلى فكرة نقاء الأصل الأوروبي رغم أنَّه كان يقول بالاقتباس المتبادَل بين حضارتَي أوروبا والعرب[9].

بسبب مزاعم نقاء تاريخ أوروبا الحديث وأصالته، الذي يُردُّ إلى تراث الإغريق والرومان، وإنكار التأثيرات التي تلقَّتها أوروبا من شعوب وحضارات العالم الأخرى؛ صارت المعرفة التاريخية العالمية مستمدَّة من المعرفة الغربية. وأضحت صورة الشعوب عن ذاتها منتقَصة لأنَّ المعرفة التاريخية الغربية تُزيح كل التواريخ الأخرى وتنصِّب تاريخها وحده على قمَّة التاريخ العالمي. ومن هنا تعود كل محاولات التخلُّص من المركزية الغربية إلى السقوط في أسرها من حيث تريد التحرُّر منها، لأنَّها تُصارعها بالاستمداد من تراثها الفكري نفسه، وتسلِّم بأنَّ مصدر المعرفة الصحيحة بتاريخ العالم هو المعرفة الغربية. والمثال على ذلك فيما يخصُّ تاريخ أميركا، هو كتاب ليون–بورتيلّا المذكور سابقاً، لأنَّه يستند إلى رواية مواطني أميركا الذين تلقَّوا ثقافة وتعليماً أوروبيِّين، وتبنَّوا ذات الروايات التي وضعها الأوروبيون. وهذا الكتاب الذي قُرئ، وما زال يُقرأ، على نطاق واسع في أميركا اللاتينية باعتباره توثيقاً للطريقة التي روى بها

8 المرجع السابق، الصفحة السابقة.

9 يرى بروديل أنَّ انتصار الإسبان على مسلمي الأندلس في نهاية القرن الخامس عشر شكَّل نهاية الحضارة الأندلسية ولحظة استعادة تراث الرومان ومولد ثقافة إسبانية نقيَّة، كأنَّما الثقافة الأندلسية سقطَت من ميراث المجتمع الإسباني بسقوط غرناطة في سنة 1492م. انظر: المرجع نفسه، ص 263.

السكَّان المحلِّيون تاريخهم، إنَّما يكرِّس الرؤيةَ الإسبانية التي تدَّعي سهولة وقوع الفتح وسرعة تلاشي شعوب أميركا واضمحلال حضاراتها أمام عظمة (العِرق) الأوروبي وتفوُّقه.

هذا التعتيم الذي تمارسه خطابات المؤرِّخين الإسبان على حقيقة ماجرى، كان لاس كاساس قد أشار إليه في وقت مبكِّر، حيث أوضح أنَّ العقلية الأوروبية التي بدأت تتطوَّر في زمنه، والتي ستوصَف لاحقاً بأنَّها (حديثة)، كانت أسيرة قوالب الماضي. وقد أشار بوضوح إلى أنَّ شيوع تقاليد الفتوحات يجب أن تُفهَم في سياق صراع الأوروبيين مع مسلمي شرق وجنوب المتوسِّط إبَّان حروب إعادة الفتح الإسبانية، فقال: "إنَّ كلمة (فتح) يجب أن تُستخدَم ضد المسلمين فقط، لأنَّهم سبق لهم أن فتحوا إسبانيا واستولوا على أراضيها"[10]. هكذا كان أوروبيو العصر الحديث قد أدركوا منذ بدايته أن توجُّه أُممهم لغزو العالم الخارجي غذَّته التقاليد والخبرات التي نتجت عن تعايشها مع الأندلسيين وصراعها معهم.

من قصَّة فتح بطولي وخارق لمملكة واحدة في أميركا، استولد المؤرِّخون الغربيون قصصاً متعدِّدة حول السيطرة على بقية مناطق القارَّة وبلاد العالم. فعناصر القصَّة كانت قد ظهرت بصورة جنينية في فتح غرناطة ثم فتح كوبا، واكتملت في فتح المكسيك واستُعيدَت في فتح بيرو وغواتيمالا وهندوراس وتشيلي وغيرها من بلاد أميركا، حتى أصبحت قالباً لمعظم فتوحات العصر الحديث، وهاجرت إلى بريطانيا وفرنسا وغيرها من بلاد أوروبا. وبهذا المعنى، يكون المؤرِّخون الإسبان صانعي النسخة الأولى من الخطاب التاريخي الأوروبي الحديث، الذي سيُقدَّم إلى العالم بوصفه عِلماً له أسسٌ موضوعية، يعتمد على جمع الروايات وتحليل الوثائق لاستخلاص حقيقة الماضي.

10 Las Casas, p. xxxix.

شكَّلت جهود الأب برناردينو ساهاجون المساهمة التأسيسيَّة في هذا المجال، لأنَّه صاغ أول تاريخ لفتح المكسيك يعتمد على رواية المواطنين، ورغم أنَّه لم يعتمد على رواية الإسبان إلا أنَّه أوحى بصدقها بأن نسبَها إلى المكسيكيين. وهذا بخلاف المؤرِّخين الأوروبيين الذين كتبوا نصوصهم مستندين إلى روايات الإسبان وحدهم، مثل أوفيدو وغُمارا وسالازار، أو الذين نقلوا عن روايات المكسيكيين الشفاهية، مثل دوران وأكوستا ولاس كاساس. جمع ساهاجون بعضاً من مواطني المكسيك الذين اعتنقوا المسيحية وتعلَّموا اللغة الإسبانية، ونظَّم لقاءات طويلة بينهم دوَّنوا فيها بطريقة جماعية رواية مواطنيهم لأحداث الفتح بواسطة كتابة تصويريَّة مشفوعة برسومات توضيحية. وبهذه الطريقة كتب أول تاريخ يستند إلى روايات الذين عاشوا الأحداث. ولأنَّ الرواية كتبها مكسيكيون عاشوا بين الإسبان وتأثروا برواياتهم حول الفتح؛ لم تختلف النتيجة كثيراً عن نصوص الإسبان، بل وافقتها في معظم جوانبها. وبهذا استطاع ساهاجون أن يضفي شرعية على الرواية الأوروبية بمنحها مرجعية مكسيكية، وأكسبَ المحتوى الأسطوري لرواية الفتح الأوروبية صورة بحث علمي يقوم على جمع مادَّة ميدانية، ويحلِّل أحداث الماضي بمنهجٍ يمكنه أن يكتب تواريخ جميع أمم العالم بموضوعية وحياد.

نتج عن هذه الحِنكة في إلباس خطاب الفتوحات القديم ثوباً جديداً، التسليم بصدق الروايات التاريخية الغربية، وبروز يقين بأنَّ الطابع الذي يميِّز المعرفة الغربية هو اتِّصافها بالموضوعية، وترتَّبَ على ذلك اعتقاد بحقِّها في استبعاد تواريخ المجتمعات الأخرى، بزعم أنَّ "الحقيقة الموضوعية" واحدة لا تتعدَّد. وهكذا رُسِم فرق مطلق بين المعرفة الغربية ومعارف المجتمعات الأخرى التي وُصِفَت بأنَّها "تقليدية"؛ وأصبح لفظ "حديث" أداة لترتيب البشر على أساس معرفي. بناء على هذا الامتياز استمرَّ تمجيد ذكرى غزاة أميركا، ففي نهاية

القرن العشرين قال كاتب عن الثقافة الغربية في سياق تمجيده لذكرى كولمبوس: إنَّها "تمثِّل أفضل ما لدى الإنسانية" لأنَّها "موضوعياً، هي الثقافة المتفوِّقة والأعلى"[11]. وهذا الاعتقاد مصدره التضخيم الذي لقيته روايات الاكتشافات والفتوحات الأوروبية، واليقين المطلق بأنَّ ما تتضمَّنه المعرفة التاريخية الغربية يمثِّل حقيقة موضوعية، وأنَّها تكشف حقيقة ما جرى في الماضي، ولا تستعير أو تأخذ من معارف شعوب أخرى.

11 Restall, Matthew; *Seven* ..., p. 132.

خاتمة

باحثاً عن المصادر التاريخية التي تطوَّرت منها خطابات الفتوحات في البلاد الواقعة حول البحر الأبيض المتوسِّط، استقصى هذا الكتاب المصادر المعرفيَّة لمشروع غزو العالم، الذي بدأته أمم أوروبا الغربية في القرن السادس عشر فصاغ أوضاع العالم الحديث، وامتدَّت آثاره إلى الوقت الحاضر. واستكشفت فصوله الجانب المعتم من مشروع الحداثة، المتمثِّل في منظومة التصوُّرات التي صاغتها الأمم الغربية في صورة معرفة (علميَّة) أتاحت لها تبرير وممارسة التمييز بين البشر. وبما أنَّ تطوُّر الحضارة الأوروبية مدِين إلى مشروع غزو العالم، الذي أعطته تلك الحضارة صورة فتوحات عظيمة؛ فإنَّ المقارنة التي أُجرِيت هنا وأوضحت استعارة خطاب الفتوحات الأوروبية من خطاب فتوحات المسلمين، تقود إلى نتيجة مضمونها أنَّ الحضارة الأوروبية استثمرت معرفة حكائية قديمة ومتوارثة لإضفاء صفة الحقيقة على وهم التفوُّق الطبيعي للأمم الأوروبية، وامتيازها على شعوب العالم، وتمكَّنت من استدامة هذا الوهم حتى وقتنا الحاضر تحت مزاعم (العلمية) و(الموضوعية).

أوضح هذا الكتاب أنَّ دور الثيمات المستعادة (topos) في خطاب الفتوحات الأوروبية لا يقتصر على التاريخ الباكر للعصر الحديث، ولكنَّه يمثِّل مكوِّناً مهمَّاً لحقبة الحداثة العليا، أو ما يُسمَّى الحداثة الناضجة، التي يُقال إنَّها تطوَّرت بعد القرن الثامن عشر. فقد روَّجت الحداثة لمشروعها بإكساب السرديَّات المستعادة ثوباً جديداً لوَّنته شعارات العلم والاكتشاف عند

الإنجليز، وشعارات الحرية والمساواة والعقلانية عند الفرنسيين، وكان ذلك في حقيقته توسيع لنطاق مشروع غزو العالم الذي بدأ بغزو الإسبان لأميركا وغزو البرتغاليين لإفريقيا وآسيا. وبهذا يمكن تعريف الحداثة بأنَّها تحديثٌ مستمرٌ لتقاليد قديمة توفِّر تغطية نظرية لعملية إعادة إنتاج السيطرة الأوروبية، التي ظلَّت تُمارَس منذ بداية القرن السادس عشر.

فيما يهمُّ شعوب الجنوب، يتَّضح أنَّ الأمم الغربية إذ تدَّعي امتلاك معرفة صحيحة بالماضي ذات طبيعة (علمية) و(موضوعية)؛ فهي إنَّما تستثمر قدرة الخطاب السردي على خلق تماسك بين الوقائع التاريخية بتوظيف قوالب قديمة تستمدُّ قدرتها على الإقناع من تقاليد السرد المقبولة للذاكرة الجماعية المتوسِّطية، للتعتيم على استمرار السيطرة. ومن هذه الزاوية، يبقى العنصر المميِّز لمشروع الحداثة هو إعادة إنتاج تقاليد العنف التي طوَّرتها حضارات المتوسِّط القديمة، باصطناع خطاب تاريخي يوظِّف حُجج التحضُّر والتقدُّم والتنوير، وغيرها، لصون التراتُب على النطاق العالمي بين أمم لها حق السيطرة وأخرى عليها الخضوع. هنا تكمُن فائدة المعرفة التاريخية الحديثة للمستفيدين من السيطرة، وخطورتها بالنسبة لمن تُمارس عليهم الهيمنة. وهذا يستوجب القيام بنقد جذري لنظام المعرفة الغربية بوصفه يتضمَّن استمراراً لتقاليد متوارثة في حضارات الشمال.

من حيث النتائج، فإنَّ أهمية الإلمام بالمصادر التاريخية لخطاب الفتح الحديث تتجاوز توضيح أنَّ المعرفة الغربية متعدِّدة المنابت؛ فهذه العناصر تفسِّر الأنماط السلوكية للجماعات المؤثِّرة في المجتمعات الغربية، مثل القادة والزعماء السياسيين والمصلحين الاجتماعيين ومنتجي المعرفة، وتكشف عن المحتوى المتوارث للمخيِّلة التي تلهمهم تصوُّراتهم عن أنفسهم ومعرفتهم بهويَّاتهم. فالكشف عن تلك المصادر يغيِّر طُرُق دراسة المعرفة الغربية ويجعلها

أداة لفهم مجتمعاتها وطُرُقها في التفكير وتقنيات صناعة الحقيقة لديها، بدلاً من أن تكون وعظاً أخلاقياً يدين السلوك الاستعلائي الغربي المستمرِّ تجاه شعوب العالم.

إنَّ النقد الأخلاقي لخطاب الاستعلاء الأوروبي الغربي، رغم أهميته وضرورته، ليس كافياً للتخلُّص من آثاره اللا إنسانية لأنَّ نظام المعرفة الحديثة هو الفضاء المكين لقناعات الامتياز الأوروبي. وبما أنَّ المعرفة الغربية تدَّعي العلمية والموضوعية وتنكر تحيُّزاتها، فهي تعيد إنتاج تقاليد الهيمنة وتغذِّي شروط استمرارها. لقد أعاد نظام المعرفة الغربية إنتاج أسطورة التفوُّق الأوروبي، التي وُلدت مع خطاب (الاكتشافات) الجغرافية، في خطاب الفتوحات الذي اصطنع تاريخ تفوُّق أوروبي باستعارة خطاب قديم موروث. ثم أعاد إنتاج وهم التفوُّق الأوروبي في خطاب تحولات تاريخية تأخذ صورة سلسلة أحداث تحقِّق قطائع جذرية مع الماضي لتُكسَب صورة ثورات متعدِّدة. وبهذا قدَّم خطاب الحداثة نفسه بوصفه تتويجاً شاملاً لسلسلة القطائع التي حقَّقتها الاكتشافات والفتوحات والثورات، في حلقات مترابطة. واليوم يعاود فكر الحداثة الانبعاث بأن يقترح مشروع حداثة متجدِّدة ومفتوحة، وما بعد حداثة (post-modernity)، وضد حداثة (anti-modernity) وغير ذلك من أشكال مختلفة هي في الحقيقة تحديث لأسطورة الحداثة ذاتها، بخطابات مستولَدة منها.

تتماثل خطابات الاكتشافات والفتوحات والثورات من جهة أنَّها تقوم على تصوُّر مضمونه أنَّ المجتمع الحديث يُولد ويتطوَّر نتيجة أحداث سريعة ومفاجئة يصنعها بشر متميِّزون عن غيرهم، تؤدِّي إلى تحولات جذرية تحقِّق للمجتمع التقدُّم. وهذه الفكرة، التي تقوم على تصوُّر قطيعة تقود إلى التقدُّم، يتوافق تماماً في بنيته مع تصوُّر "النهضة" الأوروبية، التي يُقال إنَّها نتجت عن الرجوع إلى الماضي وإحياء تراث الأغريق وبعثت العقلانية والعلم، واستهلَّت عصر

الاكتشافات الجغرافية التي زوَّدت أوروبا بدافع دائم للانطلاق نحو مزيد من التحديث. وفكرة النهضة، التي تقوم على عودة إلى زمن قديم، تؤكِّد أنَّ استعادة سرديَّات الماضي تشكِّل أساس المعرفة الغربية المسمَّاة "حديثة"، كما أوضح تحليل خطاب الفتوحات الأوروبية.

إنَّ تماثلات خطابَي الفتوحات الأوروبية والعربية تثبت وجود علاقات أكثر عمقاً بين حضارات شمال وجنوب المتوسِّط، يمكن للكشف عنها أن يُساهم في فض تمركُز المعرفة الحديثة حول الغرب، وينقض مزاعم أصلها الأوروبي الخالص. وهذا النوع من الدراسات المقارنة الذي يرى تاريخ العصر الحديث من خارج المركزية الأوروبية ليفهمه بطرق متعدِّدة، أثبت هنا أنَّه أكثر قدرة على فض أوهام طهرانية الذات الأوروبية، والاعتقاد بنقاء هويَّتها، وأحادية مصدر تراثها. وبتطبيق هذا النوع من الدراسات المقارنة على خطابات حقول معرفية أخرى يمكن الكشف عن الارتباطات الواسعة للمعرفة الأوروبية الحديثة، الموصوفة بأنَّها علمية، بمعارف الشعوب الأخرى وإبراز صلتها بالمعارف ذات الطبيعة الأسطورية.

إنَّ القول بأنَّ المعرفة التاريخية الأوروبية نتجت عن تلاقح التقاليد المعرفية لحضارات البحر الأبيض المتوسِّط، يعني أنَّ مقولات "الأصل" والأصالة والتأصيل تمثِّل النتاج الجانبي لخطاب التمركز الغربي الذي يرُدُّ المعرفة إلى أصل إغريقي، ليضع على المعرفة العلمية علامة ملكية أوروبية خالصة. وفي الواقع فإنَّ كل محاولة لردِّ أصول المعرفة والنتاجات الحضارية إلى تواريخ وجغرافيات وإثنيات بعينها، أوروبية أو غير أوروبية، ليست إلّا محاولة لاستدامة فكر التمييز الذي أتاح لأوروبا أن تفصل بين مجتمعاتها الموصوفة بأنَّها "حديثة"، ومجتمعات الشعوب الأخرى الموصوفة بأنَّها "تقليدية".

يخلص هذا الكتاب إلى أنَّ خطاب الفتوحات الحديث يؤدِّي أكثر من وظيفة، بحسب ما يستهدفه: فإلى جانب أنَّه قد يصف فتحاً فعلياً، يمكنه

أن يصطنع تاريخاً لفتحٍ لم يحدث، وقد يُبرِّر عملية غزو بأن يربطها بنشر الحضارة، وقد يضفي على الإبادات صورة مهام إنسانية، فوظيفته تتوقَّف على السياق وأوضاع المجتمعات. والغاية النهائية التي تستهدفها الوظائف المختلفة لخطاب الفتوحات الحديثة هي السيطرة على عقول الذين يتعرَّضون للغزو، مع إعطاء الغزاة مكانة تعلوهم. ومن هنا ارتبط ارتفاع مكانة أمم الشمال واستيلائها على أرض وثروات الجنوب بمَهمَّة "نشر الحضارة". إنَّ الوظيفة العمليَّة التي خدمتها قصص الفتوحات في تاريخ أوروبا، وما زالت تخدمها في تشكيل أوضاع العالم الحديث، هو أنَّها تقسِّم البشر إلى "متفوِّقين" يحقُّ لهم السيطرة، و"وضيعين" عليهم أن يخضعوا، وتحديث قصص الفتوحات واستمرار تداولها يضطلع بمَهمَّة استدامة هذا التراتُب.

هذا التقسيم التراتبي يسود جميع حقول المعرفة الغربية المعاصرة، فيسمح في علم الاجتماع بالتمييز بين المجتمعات الحديثة والمجتمعات التقليدية، وفي مجال الاقتصاد يميِّز بين مجتمعات النظام الرأسمالي ومجتمعات ما قبل الرأسمالية، وفي حقل السياسة يفصل بين مجتمعات الدولة ومجتمعات القبيلة، وفي ميدان الأنثربولوجيا يميِّز بين مجتمعات الثقافة ومجتمعات الطبيعة، وفي حقل التاريخ يميِّز بين المجتمعات الكاتبة والمجتمعات الشفاهية. وفي كل هذه المباحث فإنَّ الأول منها، والذي يعدُّ الأرفع مكانة، يُخصَّص للأمم الأوروبية، بينما يُنسب الثاني، وهو الأقل مكانة، إلى غير الأوروبيين. بهذا المعنى، تصبح مجالات الدراسة التي تُسمَّى "العلوم الإنسانية والاجتماعية" فضاءات لصون التراتُب بين البشر.

بالطبع، فإنَّ الموضع الذي يُقام فيه مؤشِّر التمييز، الذي يرسم الفرق بين المجتمعات "الرفيعة" و "الوضيعة"، يتمُّ اختياره عمداً ليتطابق مع خصائص المجتمع الأوروبي، ولا ينشأ اختياره عن حياد علمي أو معايير موضوعية. والمصدر الذي يزوِّد مجالات الدراسة هذه بنظام التمييز هو المعرفة بالماضي،

أي المعرفة التاريخية، لأنَّ معرفة الجوانب المختلفة للحياة الاجتماعية تُستمَد من معرفة الكيفية التي كانت تسير بها المجتمعات في ماضيها.

بناء على تقسيم المعرفة بالإنسان والمجتمع إلى فضاءات بحثية كهذه، أتاحت ثنائية الحداثة والتقليدية غرس المعرفة الغربية ذات الأساس التمييزي في عقول النُخب الوطنية للأمم التي استُعمِرت، فتبنَّته ونشرته بين أفراد مجتمعاتها وأورثتهم صورة سالبة عن أنفسهم. وبذلك أسهمت في ترسيخ السيطرة الغربية وإعادة إنتاجها على الصعيدين العالمي والمحلي، ومن هنا تنشأ أهمية فض السيطرة التي تتغذَّى على الآليات التمييزية التي تسكن نظام المعرفة الغربية.

في ظل المجتمعات المعاصرة، التي تتحكَّم بعقول البشر عن طريق حقنها بالمعرفة عبر مؤسَّسات التعليم وأجهزة الإعلام والثقافة؛ تصبح الفئات الاجتماعية التي تسيطر على هذه المؤسَّسات هي المتحكِّمة بسلوك البشر. وما ينتجه المفكِّرون المعاصرون من معرفة، وما يجادلون به من حُجج، إنَّما يصدر عن مؤسَّسات وأجهزة نشر الثقافة الحديثة التي انضبطت على مصالح الفئات المسيطرة في المجتمعات الأوروبية الغربية، وتأسَّست على السيطرة.

إنَّ استثمار قدرة التقاليد السردية التاريخية على خلق التماسك بين وقائع الماضي وإخفاء ما رافقها من تدمير وتفكيك يؤكِّد أنَّ المكِّون الأبرز لمشروع الحداثة هو التعتيم على الهيمنة التي رافقت صعود الحضارة الغربية. وليس من قبيل الصدفة أنَّ مفكِّراً كبيراً مثل إيمانويل والرشتين يرى أنَّ سؤال: من أين يستمدُّ الغرب مشروعية السيطرة على العالم؟ ما زال هو السؤال الأكثر إلحاحاً على الفكر الحديث. وهو السؤال نفسه الذي طرحه أولئك الذين عارضوا الغزو الإسباني لأميركا منذ بدايته، وظلت تطرحه شعوب العالم التي تعرَّضت للعنف الأوروبي طوال العصر الحديث. إنَّ استمرار سؤال طُرِح قبل حوالي خمسمئة عام يؤكِّد أنَّ مشروع الحداثة ما زال يكرِّر سماته السالبة التي بدأ بها، وأنَّه عاجزٌ عن مواجهة المهام المطروحة عليه، ولا مخرج له من أزمته.

مقابل فشل فكر الحداثة في التخلُّص من تركته السالبة، فإنَّ انكشاف المصادر غير الأوروبية للمعرفة الغربية يفتح أفقاً نقدياً جديداً، فنتيجته النهائية هي أنَّه لن يكون ممكناً بعد اليوم الاستمرار في ادِّعاء أنَّ المعرفة الغربية مكتفية بذاتها، وأنَّ كل مطلوبات فهم العالم والعصر الحديث تتوفَّر في أرشيفها وحده. ولن يكون البحث في الجذور الإغريقية والرومانية واللاتينية للعلم كافياً للتوصل إلى مصادر المعرفة الأوروبية التي تنفرد اليوم بفهم المجتمع والتاريخ، بعد أن تبيَّن أنَّ مصادر معرفة الأمم الأوروبية بتراثها وتواريخها تتداخل مع مصادر غير أوروبية.

إنَّ استجلاء المزيد من ارتباطات المعرفة الأوروبية بمعارف الشعوب الأخرى سيكشف عن تنوُّع أكبر للمصادر التي نشأت منها المعرفة الموصوفة بأنَّها حديثة، ويفتح الباب أمام مستقبلٍ للعالم يتأسَّس على أخلاقيات التعايش والاعتراف بمكانة الجميع وتساويهم في الحقوق. ويعارض تقاليد الصدام بين الأمم والقطيعة بين التواريخ، القائمة على اعتقادات التفوُّق الأوروبي وأوهام نقاء الهويَّة وأحادية الأصل، التي كُتِب على أساسها تاريخ العصر الحديث. وبما أنَّ استجلاء تلك الارتباطات بدأ هنا بخطاب الفتوحات، المتَّصل بفكرة (الاكتشافات) الجغرافية في كثير من جوانبه، فإنَّ فحص خطاب (الاكتشافات) سيُظهِر المزيد حول تعدُّد مصادر المعرفة الغربية وعدم اقتصارها على الميراث الأوروبي، وهذا موضوع بحث آخر.

المراجع

الكتب العربية:

ابن أعثم (أبو محمَّد أحمد الكوفي): **الفتوح**، المجلد الأول، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1986م).

ابن خلدون: **تاريخ ابن خلدون**، (الأردن: بيت الأفكار الدولية، د. ت.).

ابن الرستة (أبو علي أحمد بن عمر): **الأعلاق النفيسة**، (بيروت: دار صادر، دار بريل، 1893).

ابن عذاري (أبو العباس أحمد): **البيان المغرب في تاريخ الأندلس والمغرب**، ج 2، (بيروت: دار الثقافة، 1983م).

ابن القوطيَّة (أبو بكر محمَّد بن عمر): **تاريخ افتتاح الأندلس**، تحقيق محمَّد الأبياري، (القاهرة: دار الكتاب، بيروت: دار الكتاب اللبناني، 1988).

ابن كثير (إسماعيل بن عمرو): **البداية والنهاية**، ج 6، ج 12 (بيروت: دار عالم الكتب، 2003).

ابن كثير (إسماعيل بن عمرو): **تفسير القرآن العظيم**، ج 3، (دار طيبة، 2002).

ابن منظور (أبو الفضل جمل الدين أحمد): **لسان العرب**، ج 15، (بيروت: دار صادر، 2003).

أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها – رحمهم الله – والحروب الواقعة فيها بينهم، (مدينة مجريط: مطبعة ربندنير، 1867م).

الإدريسي (محمد بن محمَّد بن عبد الله): **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، ج 1-2، (القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، 2002).

إدوارد سعيد: **الاستشراق: المعرفة، السلطة، الإنشاء، ترجمة كمال أبوديب**، (بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية، 1981).

إدواردو غاليانو: **الشرايين المفتوحة لأميركا اللاتينية**، (لندن: طوى للثقافة والنشر والإعلام، 2016).

البلاذري (أبو العباس أحمد بن يحيى): **فتوح البلدان**، (بيروت، مؤسسة المعارف، 1987).

البلخي (أبو زيد أحمد بن سهل): **البدء والتاريخ**، ج 3، (باريز: ارنست لرو، 1903).

تزفتان تودوروف: **فتح أمريكا: مسألة الآخر**، (القاهرة: دار سيناء للنشر، 1992).

تقرير رحلة محمَّد علي باشا إلى السودان 1838 - 1839، تحقيق: حسن أحمد إبراهيم (الخرطوم: معهد الدراسات الإفريقية والآسيوية، 1980).

تيموثي ميتشل: **استعمار مصر**، (القاهرة: مدارات للأبحاث والنشر، 2016).

الجبرتي (عبد الرحمن بن حسن): **عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، ج 3، (القاهرة: دار الكتب المصرية، 1998).

ج. ف. ف. هيجل: **محاضرات في فلسفة التاريخ**، الجزء الأول (العقل في التاريخ)، (القاهرة: دار الثقافة للطباعة والنشر، 1980).

جواد علي: **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام**، (بيروت: دار العلم للملايين، بغداد: مكتبة النهضة، 1980).

الحميري (محمد بن عبد الله بن عبد المنعم): **صفة جزيرة الأندلس**، تحقيق إ. لافي بروفنصال، (د. ن، د. ت).

الحميري (محمد بن عبد الله بن عبد المنعم): **الروض المعطار في خبر الأقطار**، (بيروت: مكتبة لبنان، 1984).

خالد زيادة: **تطور النظرة الإسلامية إلى أوروبا**، (بيروت: معهد الانماء العربي، 1983).

الذهبي (شمس الدين محمَّد بن أحمد): **سير أعلام النبلاء**، ج 4، (بيروت: مؤسسة الرسالة، 2001م).

الرقيق (أبو إسحاق إبراهيم بن القاسم): **تاريخ إفريقية والمغرب**، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1980).

الياس الموصلي: **الذهب والعاصفة: أول رحلة شرقية إلى العالم الجديد 1668-1683**، (بيروت، دار السويدي للنشر والتوزيع-المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2001).

رفاعة رافع الطهطاوي: **الأعمال الكاملة**، ج 1، تحقيق محمَّد عمارة، (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1973)

روبرت أو. كولنز: **تاريخ السودان الحديث** (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2015).

سلمى الخضراء الجيوسي: **الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس**، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1998).

سليم قبودان: الرحلة الأولى للبحث عن ينابيع البحر الأبيض، (القاهرة: مكتبة مدبولي، 1996).

السيد عبد العزيز سالم: **تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس: من الفتح العربي حتى سقوط الخلافة بقرطبة**، (الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة، 2002م).

الطبري (أبو جعفر محمَّد بن جرير): **تاريخ الرسل والملوك**، (مصر: دار المعارف، 1971).

طريف الخالدي: **بحث في مفهوم التاريخ ومنهجه**، (بيروت: دار الطليعة، 1980)،

عبد الحليم عويس: **قضية إحراق طارق بن زياد للسفن بين الأسطورة والتاريخ**، (القاهرة: دار الصحوة للنشر، 1987).

عبد السلام هارون (محرر): **نوادر المخطوطات: المجموعة الثالثة**، (مصر: شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، 1973).

عبد الكريم غزال: **الغزوات الكبرى ومعارك الفتح**، (بيروت: الدار الشرقية للطباعة والنشر، 1990).

عبد الله إبراهيم: المركزية الإسلامية: **صورة الآخر في المخيال الإسلامي خلال القرون الوسطى** (الدار البيضاء–بيروت: المركز الثقافي العربي، 2001).

عبد المجيد عابدين: **قبائل من السودان الأوسط والسودان الغربي**، (الخرطوم: الدار السودانية للكتب، 1973).

عبد الواحد ذو النون طه: **نشأة تدوين التاريخ العربي في الأندلس**، (بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، 1988.

لسان الدين الخطيب: **الإحاطة في أخبار غرناطة**، مجلد رقم 1، (مصر: دار المعارف، د. ت).

مجهول المؤلف: **أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها –رحمهم الله– والحروب الواقعة فيها بينهم**، إبراهيم الأبياري (محقّق)، (القاهرة: دار الكتب الإسلامية ودار الكتاب المصري، بيروت: دار الكتاب اللبناني، 1981).

محمد أحمد جاد المولى بك، علي محمَّد البجاوي، محمَّد أبو الفضل إبراهيم: **أيام العرب في الجاهلية**، (الرياض: مكتبة الرياض الحديثة، د. ت).

محمد سعيد القدال: **تاريخ السودان الحديث 1820–1955**، (الخرطوم: مطبعة جامعة الخرطوم، 2018).

محمد عبد الرحمن حسن: **ذاتيات: فضٌّ نظرة الفلسفة الأوروبية إلى الإنسان والمجتمع**، (الخرطوم: وقف، 2020).

المقري (أحمد التلمساني): **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، ج 4، (بيروت: دار صادر، د. ت).

المقريزي (تقي الدين أحمد بن علي، ت: 1442م): **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار**، الجزء الأول، (القاهرة: مكتبة مدبولي، 1998م). ص 547.

مجموعة مؤلفين: **دراسة الأدب: من النقد إلى النظرية**، ترجمة محمَّد عبد الرحمن حسن، (الخرطوم: سلوم للنشر، 2010).

مؤلف مجهول: **تاريخ الأندلس**، تحقيق عبد القادر بوباية، (بيروت: دار الكتب العلمية، 2007).

مؤلف مجهول: **ذكر بلاد الأندلس**، تحقيق وترجمة لويس مولينا، ج1، (مدريد: المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، 1983).

نادر كاظم: **تمثيلات الآخر: صورة السود في المتخيل العربي الوسيط**، (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2004).

نازك سابايارد: **الرحالون العرب وحضارة الغرب في النهضة العربية الحديثة**، (بيروت: مؤسسة نوفل، 1979).

نسيم مقار: الرحالة الأجانب في السودان، 1730-1851، (القاهرة: مركز الدراسات السودانية، 1995).

اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب): **البلدان**، (بيروت: دار صادر، بيروت، د. ت).

يوسيفوس اليهودي: **تاريخ اليهود**، (القاهرة، شركة الطباعة المصرية، 2006).

الدوريات العربية:

فرنان بروديل: صعود الإمبراطوريات وانهيارها، **الاجتهاد**، العدد 27-26 (1995)، 264-237.

محمد عبد الرحمن حسن: المصادر التاريخية العربية للأسطورة المؤسسة للهوية الغربية: بين تاريخي فتح أميركا وفتح الأندلس، **أسطور**، العدد 10، (تموز/يوليو 2019) ص 87-101.

الكتب الإنجليزية:

Bentham, Jeremy; *On Government,* (Oxford, Oxford University Press, 1891).

Bethencourt, Francisco: *Racism: from the Crusadesto the Twentieth Century*, (Princeton: Princeton University Press, 2013.

Bitterli, Urs; *Cultures in Conflict: Encounters between Europeans and Non-European Culture, 1492-1800* (Stanford: Stanford University Press, 1989).

Blom, Ida; Hagmann. Karen and Hall, Catherine (eds.); *Gendered Nations: Nationalism and Gender Order in the Long Nineteenth Century*, (New York: Berg, 2000).

Brading, D.A: *The first America: The Spanish monarchy, Creole patriots and the liberal state 2492-1876,* (Cambridge: Cambridge University Press, 1998).

Buck- Morss, Susan; *Hegel, Haiti, and universal History,* (United States of America: University of Pittsburgh Press, 2009).

Campe, J. H: *Cortez, or the Conquest of Mexico,* (London: C. Cradock and W, Joy, 1811).

Carman, Glen: *Rhetorical Conquests: Cortés and Gómara, Renaissance Imperialism,* (U. S. A.: Purdue University, 2006).

Casale, Gincarlo: *The Ottoman age of Exploration,* (Oxford, New York: Oxford University Press, 2010).

Chacon R.J. and Mendoza, R.G (eds.): *The Ethics of Anthropology and Amerindian Research: Reporting on Environmental Degradation and Warfare* (New York, London: Springer, 2012).

Charles J. Folsom: *The Dispatches of Hernando Cortés,* (New York: Wiley and Putnam, 1843).

Chevaller, Michel: *Mexico: Before and After the Conquest,* (Philadelphia, Carey and Hart, 1846).

Clarke, Nicola: *The Muslim Conquest of Iberia, Medieval Arabic Narratives,* (London and New York: Routledge, 2012).

Clavigero, D. Francesco Saverio: *The History of Mexico, Collected from Spanish and Mexican Historians, Vol.3*, (Philadelphia: Thomas Dobson, 1817).

Collins, Roger: *Caliphs and Kings: Spain, 796-1031*, (U. K.: Wiley Blackwell, 2014).

Collins, Roger: *The Arab Conquest of Spain 710-797*, (Oxford: Blackwell, 1998).

Columbus, Christopher: *The Lo*g, (U.S.A., International marine Publishing, 1992.

Cook, James: *A Voyage to the Pacific Ocean Undertaken by the Command of his Majesty, for Making Discoveries in the Northern Hemisphere, to Determine the Position and Extent of the West Side of Northern America, its Distance from Asia; and the practicability of a Northern Passage to Europe* (Dublin: Chamberlaine, 1784)

Condé, Juan Antonio: *History of the Dominion of the Arabs in Spain* (London: George Bell and Sons, 1900).

Cortés, Hernán: *Letters from Mexico*, (New Haven and London: Yale University Press, 1986).

Cummins, Thomas B. F.; *Toasts with the Inca: Andean Abstraction and Colonial Image on Quero Vessels*, (United States of America: The University of Michigan Press, 2002).

Dalton, William: *Cortés and Pizarro: the Story of the Conquest of Mexico and Peru*, (London: Griffin –Bohn and Company, 1862).

Davenport, Frances Gardiner (ed.): *European Treaties Bearing on the History of the United States and its Dependencies to 1648,* (New Jersey: The LawBook Exchange, 2004).

De Acosta, Joseph: *The Natural & Moral History of the Indies*, (London: The Hakluyt Society, 1880).

Denning, Greg; *Mr Bligh's Bad Language: Passion, Power and Theatre on the Bounty* (United States of America; Canto, 1994).

Dodwell, Henry: *The Founder of Modern Egypt: A Study of Mohammad Ali*, (Cambridge: Cambridge University Press, 2011).

De Solis, Antonio: *History of the Conquest of Mexico by the Spaniards, Vol. 1*, (London: John Osborn, 1738).

Diaz, Bernal: *The History of the Conquest of New Spain*, (England: Penguin, 1963).

Duran, Diego: *History of the Indies of New Spain,* (U. S. A.: Oklahoma University Press, 2009).

Fernandez-Armesto, Felipe: *1492: The Year the World Began*, (New York: Harper One, 2010).

Frye, Northrop: *Anatomy of Criticism: Four Essays*, (Princeton and Oxford: Princeton University press, 2000).

Fuchs, Barbara: *Exotic Nation: Maurophilia and the Construction of Early Modern Spain*, (U.S.A.: University of Pennsylvania Press, 2009).

Fuchs, Barbara: *Mimesis and Empire: the New World, Islam and European Identities*, (Cambridge: Cambridge University Press, 2001).

Fuchs, Barbara, Brewer-Garcia and Ilika, Aaron (eds.): “*The Abencerraje” and “Ozmín and Daraja”: Two Sixteenth-Century Novellas from Spain* (Philadelphia; University of Pennsylvania Press, 2014).

Gómara, Francisco Lopez; *Cortés: The Life of the Conqueror by his Secretary,* (Berkley and Los Angeles: University of California Press, 1966).

Grab,Alexander: *Napoleon and the Transformation of Europe,* (New York: Palgrave- Macmilan, 2003).

Hazbun, Geraldine: *Narrative of the Islamic Conquest from Medieval Spain*, (United States: Palgrave Macmillan, 2015).

Helps, Arthur: *The Spanish Conquest in America, vol 1*,(London, John lane, 1900).

Ibn Abd-El-Hakam: *History of the Conquest of Spain*, (Gottenberg, London: John Harris Jones, 1858).

Irving, Washington: *Legends of the Conquest of Spain*, (London: John Murray, 1886).

Irving, Washington: *A Chronicle of the Conquest of Granada, Vol. 1*, (London: Henry G, Bohn, 1850).

Jennings, Francis: *The Invasion of America, Indians, Colonialism, and the cant of Conquest,* (United States of America: The University of North Carolina Press, 1997).

Bentham, Jeremy; *On Government,* (Oxford, Oxford University Press, 1891).

King, James: *A Voyage to the Pacific Ocean, vol. III* (London: Printed by W. and A. Strahan for G. Nicol, 1784).

Knapman, Gareth: *Race and British colonialism in South-East Asia, 1770-1870: John Crawfurd and the Politics of Equality,* (New York and London: Routledge, 2017).

Lafaye, Jacques: *Quetzalcoatl and Guadalupe: The Formation of Mexican National Consciousness 1531-1813,* (Chicago and London: The University of Chicago Press). 1987.

Lane, Kris (ed.): *Defending the Conquest: Bernardo de Fargas Machuca's defense and Discourse of the Western Conquests*, (U. S. A.: University of Pennsylvania Press 2010).

Lanre-Cherion, Pedro & Mendieta, Eduardo (eds.): *Latin America & Postmodernity*, (New York: Humanity Books, 2001).

Las Casas, Bartolome: *Ashort Account of the Destruction of the Indies*, (Londo: Penguin, 2004).

Le Clezio, J. M. G.: *The Mexican Dream: the interrupted Thought of Amerendian Civilizations*, (Chicago and London: The University of Chicago Press, 1993).

Leon- Portilla, Miguel: T*he Broken Spears: The Aztec Account of the Conquest of Mexico*, (Bosto: Beacon Press, 1992).

Levesque, Rodrigue: L*a Malinche: The Mistress of Hernan Cortés: from Slave to Goddess*, (Canada: Levesque, 2007).

Lewis, David Levering: *God's Crucible: Islam and the Making of Europe, 570-1215*. (New York and London: Norton, 2008).

Lockhart, James, Schroeder, Susan and Namala, Doris (eds.),: *Annals of His Time: Domingo de San Antón Muñón Chimalpahin Quanhtlehuantzin,* (Stanford, California: Stanford University Press, 2006).

Lockhart, James: We People here: *Nahuatl Accounts of the Conquest of Mexico, Repertorium Colimbianum Vol. 1*, (Berkeley and Los Angeles: Univerity of California Press, 1994).

Mitchell, Timothy: *Colonising Egypt*, (Berkley, Los Angle: University of California Press, 1991).

Montrose, Louis, The Work of Gender in the Discourse of Discovery, *Representations*, No. 33, (Winter, 1991),1-41, P. 5.

Myers, Kathleen Ann: I*n the Shadow of Cortés: Conversations Along the route of Conquest,* (United States of America: The University of Arizona Press, 2015).

Noth, Albrecht: *The Early Arabic historical Tradition: A Source Critical Study*, (New York : Darwin, 1994).

Obeyesekere, Cananath; *The Apotheosis of Captain Cook: European Mythmaking in the Pacific,* (Princeton -New Jersey: Princeton University Press & Bishop Museum Press, 1992).

Pigafett, Antonio; *The First Voyage Round the World, by Magellan* (London: The Hakluyt Society, 1874).

Prescott, William H.: *History of the Conquest of Mexico, Vol 1*, (Paris: Baudry's European Library, 1844).

Rabas, Jose: *Inventing America, Spanish Historiography and the Formation of Eurocenterism,* (Oklahom: University of Oklahoma Press-Norman, 1994).

Restall, Matthew and Asselberg, Florine: *Invading Guatemala: Spanish, Nahua and Maya Accounts of the Conquest Wars*, (Pennsylvania: The Pennsylvania State University Press, 2007).

Restall, Matthew: *Seven Myths of the Spanish Conquest,* (New York: Oxford University Press, 2003).

Robertson, William: *The History of America, Vol. III*, (London: W. Strahan, 1739).

Roth,Cecil: *Spanish Inquisition,* (New York: The Norton Library, 1964).

Sahlins, Marshall: *Islands of History,* (Chicago: The University of Chicago press, 1985).

Schwartz, Stuart (ed.): *Victors and Vanquished: Spanish and Nahua Views of the Conquest of Mexico*, (U.S.A.: Palgrave Mackmilan, 2000).

Seaman, Rebacca M.: *Conflict in the Early Americas: An Encyclopedia of the Spanish Empire's Aztec, Incan and Mayan* Conquests, (Santa Barbara, Denver, Oxford: ABC-ALIO, 2013).

Seed, Patricia: *Ceremonies of Possession in Europe's Conquest of the New World 1492-1640*, (Cambridge: Cambridge University Press, 1995).

Shoshan, Boaz: *The Arabic Historical Tradition and Early Islamic Conquests: Folklore, Tribal Lore, Holy War*, (New York: Routldge, 2016).

Sienkiewicz, Henryk: *In the Desert and Wilderness,* (Boston: Little Brown, 1917).

Sizgorich, Thomas: *Violence and Belief in Late Antiquity: Militant Devotion in Christianity and Islam*, (Pennsylvania: University of Pennsylvania Press, 2009).

Smith, Colin: *Christians and Moors in Spain, Vol. II: 1195-1614*, (Warminster- England: Ares and Phillips, 1989).

Smith, Linda Tuhiwai: *Decolonizing Methodologies: Research and Indigenous Peoples*, (London, New York: Zed books, 1999).

Smith, Wilbur: *The Triumph of the Sun,* (New York: St. Martin's press, 2006).

Stanley and Amin Pacha: *Science*, vol. 12, no, 299 (Oct. 26, 1888). P. 333.

Strathern, Paul: *Napoleon in Egypt, (New York, Bantam Books, 2009).*

Ṭāha, Abdulwāḥid Dhanūn: The Muslim Conquest and Settlement of North Africa and Spain, (New York: Routledge, 2016).

Thomas, Hugh; *Conquest: Montezuma, Cortés, and the Fall of Old Mexico*, (New York: Thomas and Schuster, 2005).

Tinker, George E.: *Missionary Conquest: The Gospel and Native American Cultural Genocide*, (Minneapolis: Fortress Press, 1993).

Todorov, Tzvetan: *The Fear of Barbarians: beyond the clash of civilizations*, (UK: Polity Press, 2010).

Todorov, Tzvetan: *The Conquest of America: the Question of the other*, (U.S.A.:University of Oklahoma Press, 1999).

Todorov, Tzventan: *The Morals of History,* (Minneapolis, London: University of Minnesota Press, 1995).

Withey, Lynne: *Voyages of Discovery: Captain Cook and the Exploration of the Pacific* (Berkley, Los Angles, London: University of California Press, 1989).

Zvala, José Manuel, Dillehay, Tom D. and Payas, Gertruis (eds.):*The Hispanic –Mapuche Parlamentos: Interethnic Geo-politics and Concessionary Spaces in Colonial America* (Switzerland: Springer, 2020).

دوريات اللغة الإنجليزية:

Bendict, Ruth: Two Patterns of Indian Acculturation, *American Anthropologist*, vol. 45 no. 2, (1943), 207-212.

Borofsky, Robert: Cook, Lono, Obyesecere, and Sahlins, *Current Anthropology*, vol 38, no. 2, (April 1997), 255-282.

Bourk, John G.: Notes on the Language and Folk-Usage of the Rio Grande Valley: With Especial Regard to Survivals of Arabic Custom, *The Journal of American Folklore*,vol. 9, no. 33 (Apr. - Jun., 1896), pp. 81-116.

Clarke, Nicola: Medieval Arabic Accounts of the Conquest of Cordoba: Creating a narrative for a provincial capital, *Bulletin of the School of Oriental and African Studies*, vol. 74, no. 1 (2011), 41-57.

Klobucka, Anna: In the Dsert and Wilderness Revisited, *The Slavic and East European Journal*, vol. 45, no. 2 (Summer, 2001), 234-259

Louayene, Atef: Pathologies of Moorishness: Al-Andalus, Narrative, and “Worldly Humanism”, *Journal of East-West Thought*, vol. 1 no, 3 (March 2013), 31-44.

Robinson; Arthur E.; The Conquest of the Sudan by the Wali of Egypt, Muhammad Ali Pasha 1820-1824, *African Affairs*, vol. XXV, Issue XCVII, (October 1925)47-58.

Russell, Bertrand: The Ethics of War, *The International Journal of Ethics*, vol. XXV, no 2 (1915): 128- 142.

Wallace, Anthony F. C. Revitalization Movements, *American Anthropolgist*, vol. 58, (April, 1956).

White, Hayden: Interpretation in History, *New Literary History*, vol. 4, no. 2. (Winter, 1973). pp. 281-314.

فهرس عام

(ب)

(ت)

(ج)

(ح)

(د)

(ذ)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ط)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(و)

(هـ)

(ي)

رقم الإيداع 2020/0142